

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الحج

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
12	مقدمة سورة الحج
13	الحج 1-13
41	الحج 14-24
67	الحج 25-37
137	الحج 38-51
178	الحج 52-60
204	الحج 61-70
221	الحج 72-74
233	الحج: 75-78
248	{وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}

2	الفهرس
12	مقدمة سورة الحج

الحج 1-13

13	إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شئ عظيم
14	اليوم الاخر هو الذي ذكره الله
14	التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله
14	سكارى وما هم بسكارى
15	ذم من يجادل ويحاج بلا علم
16	انواع الجدل التي نهى عنها
16	القول بلا علم حرام بالنص والإجماع
17	بين سبحانه حال من يجادل فى الدين بلا علم
18	القرآن لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء
19	بين سبحانه إمكان المعاد أتم بيان
20	طريقة القرآن فى بيان إمكان المعاد
21	ذكر أول الخلق يستدل به على المبدأ و المعاد
22	تشبيه البعث بإحياء الأرض بعد موتها
25	الاستدلال على الخالق بخلق الانسان دليل شرعي وهو عقلي
25	أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته
26	أن الله على كل شئ قدير
28	ذم الله من يجادل ويحاج بلا علم
29	لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم والعمل
29	{ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ }
29	الشرك نوعان
30	ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا
31	أن النعيم لا يدرك بالنعيم
32	أهل الضلال الذين يقرون بالحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية
33	خسران المنقلب على وجهه عند الفتنة
34	ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو اكره
35	الدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة
35	{ يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ }

36 هذه الآية {يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} قد أشكل على كثير من الناس
38 لطائف لغوية

الحج 14-24 41

41 الله سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى
41 الثواب الموعود به في الآخرة لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا
43 حال أهل الاهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب
43 خلق الله الأشياء بأسباب
44 كمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له
45 بنو آدم منحسرون في الأصناف الستة
46 اليهود والنصارى و الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن جهة كفرهم بما
49 الصابئة نوعان
50 اخبر الله انه يفصل بين أهل الملل أجمعين ولم يذكرهم هنا ليتبين المحمود منهم في الآخرة
51 السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله
52 لم يستثن من المخلوقات أحدا حتى جاء ابن آدم استثناه
53 لم يرد بسجود المخلوقات وتسبيحها لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبته
53 عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى
55 سجود القرآن
55 النجوم من آيات الله الدالة عليه المسبحة له الساجدة له
61 الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان
62 لفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته
63 أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب
63 الهدى في الآخرة ثواب الإهداء في الدنيا
64 الله هو المستحق للمحامد الكاملة
65 لطائف لغوية

الحج 25-37 67

67 شرف الله الكعبة وعظمتها وجعلها محرمة
69 لفظ الذوق في الكتاب والسنة مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر
70 الساكنون بمكة أحق بما احتاجوا إليه لأنهم سبقوا الى المباح
70 مسائل فقهية
70 1- الحج فيه ثلاثة أطوفة

- 71-السنة لكل طائف أن يصلي ركعتين خلف المقام _____ 71
- 3-الفرق بين الصلاة والطواف _____ 71
- 4-الطواف بالبيت افضل من العمرة لمن كان بمكة _____ 71
- 5-المشهور نسا ومذهبا ان الفرض لا يصح في الكعبة _____ 72
- 6- " ما بين المشرق و المغرب قبلة كله الا عند البيت " _____ 76
- 7-لا يشرع الطواف بالصفاء والمروة إلا في حج أو عمرة _____ 77
- 7-وجوب طهارة المكان الذي يصلي فيه _____ 77
- 8--الطهارة شرط للصلاة وليست متعلقة بالبيت _____ 78
- 9-الطهارة من الحيض شرطا للطواف أو واجبا كان مع القدرة لا مع العجز _____ 79
- 10-الهدى المسوق لا ينحر حتى يقضي التفث _____ 88
- 11-محظورات الإحرام _____ 89
- 12-على الحاج أن يطوف بالبيت جميعه فلا يطوف في شيء منه _____ 91
- 13-من فاته الحج فإنه يهل بعمرة وليس عليه الحج _____ 92
- 14- " لا يصلي في الحجر الحجر من البيت " _____ 93
- 15-حكم الترتيب بين الذبح والحلق _____ 94
- 16-الامر بوفاء النذر مقيد بطاعة الله _____ 94
- المضاف إلى الله نوعان _____ 95
- إن الله فرض الحج على لسان إبراهيم عليه السلام _____ 96
- حج البيت له صفة معلومة في الشرع _____ 96
- سبب التلبية ومعناها _____ 98
- الأيام المعلومات قيل هي أيام العشر _____ 98
- ان نفس اسمائه عز وجل مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى _____ 102
- من ساق الهدى ففيه ثلاث روايات _____ 102
- " عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله " _____ 105
- لفظ الرجس _____ 106
- أساس الطريق إلى الله هو الصدق والاخلاص _____ 106
- ما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك _____ 109
- شهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر _____ 110
- العبادات مبناها على الشرع والإتباع لا على الهوى والابتداع _____ 111
- { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } _____ 112
- عبادة القلوب هي الأصل _____ 113
- الْبَيْتِ الْعَتِيقِ _____ 114

- 114 تنوع الناس في العبادة والطاعة
- 115 الأضحية الأظهر وجوبها فانها من أعظم شعائر الاسلام
- 116 الله سبحانه قد بين في القرآن أن الذبح والحج كلاهما منسك
- 117 المخبت المظمن الخاضع لله
- 118 التوحيد يكون من الله لنفسه
- 118 الأعياد والمواسم لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم
- 119 لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والإخلاص
- 121 لسماع القرآن من الأدواق الكريمة مالا يسعه خطاب
- 121 وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته
- 122 الأحوال المذكورة في القرآن هي وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود
- 124 الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا
- 125 من أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة
- 125 وجوب الاعتناء بالصلاة ما لا يجب من الاعتناء بغيرها
- 126 الرزق يراد به شيان
- الرجل إذا قطع الطريق و سرق أو أكل الحرام و نحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا أفتونا
127 مأجورين ؟
- 128 " إن من أعظم النفقة نفقة العلم "
- 129 " أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف "
- 130 المسنول مأمور بإجابة السائل
- 130 الوجوب في الأصل هو الثبوت والإستقرار
- 130 ليس في اللفظ ما يدل على التسوية بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة
- 131 في تسخيرها حكما ومنافع غير التكبير
- 131 الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن
- 132 {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}
- 133 الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب
- 134 لطائف لغوية

الحج 38-51 137

- 137 {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا }
- 138 جميع المهاجرين والأنصار كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا
- 138 المسلمون اخرجوا من ديارهم واموالهم بغير حق
- 139 اول اية نزلت في القتال

- 140 اكد الايجاب وعظم أمر الجهاد فى عامة السور المدينة
- 141 ما كان من ظلم الغير فلا بد ان يشرع من عقوبته ما يدفع به ظلم الظالم عن الدين والدنيا
- 142 أن المهاجرين لم يكن فيهم منافق أصلا
- 142 عقاب الطائفة الممتنعة كالتي لا يقدر عليها إلا بقتال فاصل هذا هو جهاد الكفار
- 143 كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع اقرب
- 143 صلاة الجماعة من أعظم شعائر الاسلام
- 147 " ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم "
- 148 الجهاد تمام الايمان وسنام العمل
- 148 العاقبة للمتقين
- 149 سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا
- 150 الإسلام مبني على أصليين
- 151 الله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه
- 152 المساجد هي بيوت الله في الأرض
- 153 الحكم على المظلوم بترك حقه حكم بالظلم لا بالعدل
- 154 الاخلاق التي يحتاج اليها المؤمن في أوقات الفتن الشديدة
- 154 الدعوة الواجبة تحتاج إلى شروط يقام بها
- 155 ازالة الشر بالخير و الكفر بالإيمان و البدعة بالسنة
- 157 ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه فى جبلة العبد وجعل فيه صلاحه
- 157 مناط الوجوب هو القدرة
- 158 الاسم استعمل على وجه يختص بمراد الشارع
- 159 " من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه "
- 160 صلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله
- 161 الصلاة مقرونة بكل عبادة من العبادات
- 162 القرآن جاء بالدلائل اليقينية
- 163 إقرار أمر النبوة بما وقع من قصص الانبياء
- 163 سنة الله فى عباده
- 164 " القلوب أوعية فخيرها أوعاها "
- 167 سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة
- 168 الحق لا ينقض بعضه بعضا بل يصدق بعضه بعضا
- 169 الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى
- 170 بصر القلب هو البصر وعماه هو العمى
- 170 لفظ العقل فى القرآن

- 171 _____ الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون
- 172 _____ الطريق العقلية في القياس والاعتبار
- 173 _____ العمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له
- 175 _____ لطائف لغوية

الحج 52-60 178

- 178 _____ الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه
- 180 _____ القائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة
- 181 _____ " اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج من بينهما إلا حق "
- 182 _____ الفرق بين النبيين وغيرهم
- 183 _____ ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ولم يضمن ذلك للمحدث
- 184 _____ القلوب في العلم والايامن ثلاثة أقسام
- 187 _____ {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ }
- 187 _____ القرآن مزيل للأمراض الموجبة للارادات الفاسده
- 190 _____ قسوة القلوب من ثمرات المعاصي
- 191 _____ " القلوب آتية الله فى أرضه فأحبها الى الله أصلبها وارقها وأصفاها "
- 191 _____ الصادق فى قوله آمنت لايد أن يقوم بالواجب
- 193 _____ لم يجيء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار
- 193 _____ لا منافاة بين إيجاب العدل وبين استحباب الفضل
- 194 _____ " إن الله يلوم على العجز "
- 195 _____ لو أمرنا كل المظلوم بترك حقه لم يكن للظالمين زاجر يزرهم
- 196 _____ " كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا "
- 197 _____ أمر العالم فى الشريعة مبني على العدل
- 198 _____ البغى مصرع الباغى الظالم
- 198 _____ القصاص ثابت باتفاق الأمة
- 199 _____ ان الأمور منها ما يباح فيه القصاص ومنها ما لا يباح فيه
- 200 _____ جميع المتلفات تضمن بالجنس بحسب الامكان مع مراعاة القيمة
- 201 _____ اذا اختصم رجلان وجب ان يقام فى امرهما بالقسط
- 203 _____ لطائف لغوية

الحج 61-70 204

- 204 _____ { اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ }

- 206 كل معبود من دون الله باطل
- 207 { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }
- 208 لفظ الدعاء والدعوة
- 209 { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }
- 209 الحمد نوعان
- 209 { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ }
- 210 العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك
- 210 خلق المخلوقات وتسخيرها لبني آدم
- 211 أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم
- 212 الموت المثبت غير الموت المنفي
- 212 النسك العبادة ثم خص الحج باسم النسك
- 213 { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ }
- 214 الأعياد والمواسم لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم
- 215 الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك
- 216 لفظ الهدى إذا أطلق
- 216 الإيمان بالقدر على درجتين
- 217 " ان الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة "
- 218 " إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا "
- 219 لطائف لغوية

الحج 72-74

- 221 الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسُلطان
- 221 " ما أسر أحد بسريرة إلا أباها الله على صفحات وجهه وقلبات لسانه "
- 222 مساعي القلوب وأعمالها تحمد وتذم
- 223 ذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم
- 223 كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة
- 224 ضرب الأمثال هو القياس العقلي
- 226 الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له
- 227 مثل ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق
- 228 خاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس
- 228 أصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه
- 229 { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }

231 العالم العلوى والسفلى بالنسبة الى الخالق سبحانه وتعالى فى غاية الصغر
232 لطائف لغوية

الحج: 75-78 { 233

- 233 الفرق بين الارسال الكونى و الدينى
- 233 بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده
- 234 الملائكة رسل الله فى تنفيذ أمره الكونى وأمره الدينى
- 234 توسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة
- 235 الرد على الذين يرون ان الملائكة افضل من البشر
- 236 ليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه
- 238 الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه الا بالرسول
- 238 الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال
- 238 وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة
- 239 العبادة هي الغاية المحبوبة لله
- 240 العبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته
- 241 هذه الآية وما بعدها لم تترك خيرا إلا جمعته ولا شرا إلا نفته
- 241 {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}
- 242 الجهاد جنس تحته انواع متعددة ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه
- 242 كل من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين
- 243 الامة الشهاداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول
- 244 " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين "
- 244 الإجماع دليل على النص
- 245 "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره "
- 246 كل دين سوي الإسلام باطل
- 248 {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}
- 248 1-ان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر
- 249 2- " إنما بعثتم ميسرين يسروا ولا تعسروا "
- 250 3-للقلوب قدرة فى باب العلم والاعتقاد العلمى وفى باب الإرادة والقصد وفى الحركة البدنية
- 251 4-الايجاب والتحريم قد يكون نعمة وقد يكون عقوبة وقد يكون محنة
- 251 5-من قال أن الله أمر العباد بما يعجزون عنه فقد كذب على الله ورسوله
- 252 6-درك الصواب فى جميع أعيان الاحكام اما متعذر أو متعسر
- 253 7- الزام العامة بقول واحد بعينه فى جميع الاحكام فيه عسر و حرج عظيم منفي

- 254 8- لم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه
- 255 9- لا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه
- 256 الشارع لم ينقل الاسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة
- 257 من آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة
- 258 " الصلاة أول ما يحاسب عليه العبد من عمله "
- 258 جكم من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا
- 260 إقامة الصلاة إتمامها والطمأنينة فيها
- 261 لا يجوز تأخير الصلاة بحال لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر
- 262 إخلاص الدين لله هو أصل العبادة
- 263 أعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور
- 264 { وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ }
- 264 لطائف لغوية

مقدمة سورة الحج

سورة الحج فيها مكى ومدنى وليلى ونهارى وسفرى وحضرى وشتائى وصيفى وتضمنت منازل المسير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة الأعمى والمريض والقاسى والمخبت الحى المطمئن إلى الله وفيها من التوحيد والحكم والمواظ على إختصارها ما هو بين لمن تدبره وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيدا وصلاة وزكاة وحج وصياما قد تضمن ذلك كله قوله تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }** {الحج 77} فيدخل فى قوله **{ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ }** {الحج 77} كل واجب ومستحب فخصص فى هذه الآية وعمم ثم قال **{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ }** {الحج 78} فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيرا إلا جمعته ولا شرا إلا نفته¹

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 266

§§ الحج (مدنية) 78 §§~

الحج 1-13

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } {3} كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } {4} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عُلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {6} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ } {7} وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُدِيفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {10} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ لِّذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } {12} يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } {13}

إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} الحج 1-2
وأما قوله { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } الحج 1 فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخباراً عن الزلزلة في هذه الحال ولهذا قال { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ } {2} الحج 2 ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شيء عظيم في العلم والتقدير¹

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 156

اليوم الاخر هو الذي ذكره الله

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} {الحج-1-2} قال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } {التوبة-29} مع ان النصرارى يقرون بمعاد الابدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الاكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الابدان ولهم في معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابي نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا وتارة هذا منهم من يقر بمعاد الانفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمة دون الجاهلة فان العالمة تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهلة التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الانفس كما ينكر معاد الابدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الاخر فان اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } آل عمران 9 وقوله تعالى { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} {الحج-1-2} ¹

التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} {الحج-1-2} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } {55} القمر 54-55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2-3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء ²

سكاري وما هم بسكاري

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} {الحج-1-2} وقد يكون سبب

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 460

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

السكر من الألم كما يكون من اللذة كما قال تعالى وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
 {الحج 2} فأخبر انهم يرون سكارى وما هم بسكارى¹

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } {3} كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآنَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } {4} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعَدَ عِلْمَ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ } {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {6} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ } {7} وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {10} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِن أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَابَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } {12} يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لِيُبْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِيُبْسَ الْعَشِيرُ } {13} {الحج 3-13}

ذم من يجادل ويحاج بلا علم

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {الحج 3} وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} {الحج 8-9}

قال تعالى {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} {الإسراء 36} وهذا نهى عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما اخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا يفتي شيئا إلا بعلم ولا يثبت إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس عليه دليل وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات فأوجبه في العقليات دون الشرعيات وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب فإن من أثبت شيئا فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل دليل وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفي ما أثبتته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نقيض قولك ولم يكن هذا كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئا أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعاً في المناظرة وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعياً فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيانات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً وخص الكلام على الله بقوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {الأعراف 33} ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } {168}

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 145

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {169} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا آلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ {170} البقرة 168-170 وكذلك دم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } الحج 3¹

انواع الجدل التي نهى عنها

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } الحج 3 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } الحج 8 { ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} الحج 8-9

فالذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور منها الجدل بغير علم كقوله { هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران 66 ومنها الجدل في الحق بعد ظهوره كقوله { يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } الأنفال 6 ومنها الجدل في الباطل كقوله { وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } غافر 5 ومنها الجدل في آياته كقوله { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } غافر 4 وقوله { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا } غافر 35 وقوله { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ } غافر 56 وقوله { وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِيصٍ } الشورى 35 ونحو ذلك قوله { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } الشورى 16 وقوله { وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } الرعد 13 وقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } الحج 8²

وكذلك سنة رسول الله توافق كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي روى مسلم بعضه عن عبدالله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكانما فقيء وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المرء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي قرأ قوله { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ } آل عمران 7 فقال النبي إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم³

القول بلا علم حرام بالنص والإجماع

¹ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 458-461

² الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453

³ مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310-311

أن القول بلا علم حرام بالنص و الإجماع قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ } الحج3 و قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ } {8} ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ {9} الحج8-9 وقال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } الإسراء36 وقال { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف33 وقال { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } آل عمران66 و قال { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَّفْتَأٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا } غافر35 والسلطان الذي أتاهم هو الحجة الآتية من عند الله كما قال { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم35 و قال { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ } {156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {157} الصافات156-157 و قال { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى } النجم23 فما جاءت به الرسل عن الله فهو سلطان فالقرآن سلطان و السنة سلطان لكن لا يعرف أن النبي صلى الله عليه و سلم جاء به إلا بالنقل الصادق عن الله فكل من احتج بشيء منقول عن النبي صلى الله عليه و سلم فعليه أن يعلم صحته قبل أن يعتقد موجه و يستدل به و إذا احتج به على غيره فعليه بيان صحته و إلا كان قاتلا بلا علم¹

بين سبحانه حال من يجادل في الدين بلا علم

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } {3} كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَاتَّهَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } {4} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَهْدَأَكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ } {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {6} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ } {7} وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ } {8} ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {10} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } {12} يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لِيُبْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِيُبْسَ الْعَسِيرُ } {13} الحج3-13

قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } الحج3 في أثناء آيات المعاد و عقبها بآية المعاد ثم إتبعه بقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ } {8} ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } {9} الحج8-9 إلى قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ } الحج11 فيه بيان حال المتكلمين و حال المتعبدين المجادلين بلا علم و العابدين بلا علم بل مع الشك لأن هذه السورة سورة الملة الإبراهيمية الذي جادل بعلم و عبد الله بعلم ولهذا ضمننت ذكر الحج و ذكر الملل الست فقوله { يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } {3} الحج3 ذم لكل من جادل في الله بغير علم و هو دليل على أنه جائز بالعلم كما فعل إبراهيم بقومه و في الأولى ذم المجادل بغير علم و في الثانية { بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ } {8} الحج8 وهذا والله أعلم من باب عطف الخاص على العام أو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ليبين أن الذي يجادل بالكتاب أعلاهم ثم بالهدى فالعلم إسم جامع ثم منه ما يعلم بالدليل القياسي فهو أدنى أقسامه فيخص بإسم العلم ويفرد ما عداه بإسمه الخاص فاما معلوم بالدليل القياسي وهم

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 60-61

علم النظر وإما ما علم بالهداية الكشفية كما للمحدثين وللمتفرسين ولسائر المؤمنين وهو الهدى وإما نزل من عند الله من الكتب وهو أعلاها فأعلاها العلم المأثور عن الكتب ثم كشوف الأولياء ثم قياس المتكلمين وغيرهم من العلماء¹

فبين سبحانه حال من يجادل في الدين بلا علم والعلم هو ما بعث الله به رسوله وهو السلطان كما قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} {غافر 56} فمن تكلم في الدين بغير ما بعث الله به رسوله كان متكلمًا بغير علم ومن تولاه الشيطان فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ومن انقاد لدين الله فقد عبد الله باليقين بل إن أصابه ما يهواه استمر وإن أصابه ما يخالف هواه رجع وقد عبد الله على حرف و الحرف هو الجانب كحرف الرغيف وحرف الجبل ليس مستقرا باثبات {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ} {الحج 11} في الدنيا {أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ} {الحج 11} أى محنة امتحن بها {انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {الحج 11} وحرف الجبل ليس مستقرا بالثبات معناه خسر الدنيا بما امتحن به وخسر الآخرة برجوعه عن الدين {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} {الحج 12} أى يدعو المخلوقين يخافهم ويرجوهم وهم لا يملكون له ضرا ولا نفعًا بل ضرهم أقرب من نفعهم وإن كان سبب نزولها في شخص معين أسلم وكان مشركا فحكمها عام في كل من تناوله لفظها ومعناها إلى يوم القيامة فكل من دعا غير الله فهو مشرك والعيان يصدق هذا فإن المخلوقين إذا اشتكى اليهم الإنسان فضرهم أقرب من نفعهم والخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا اله غيره إذا اشتكى إليه المخلوق وانزل حاجته به واستغفره من ذنوبه أيده وقواه وهداه وسد فاقته وأغناه وقربه وأقناه وحبه واصطفاه والمخلوق إذا انزل العبد به حاجته استردله وازدراه ثم أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة وإن قضى له ببعض مطلبه لأن عنده من بعض رعاياه يستعبد به بما يهواه قال الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ} {العنكبوت 17} {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {العنكبوت 17} وقال تعالى {إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {آل عمران 160} وقال تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {آل عمران 139} وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئا كثيرا وعرفته علما وذوقا وتجربة²

القرآن لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء

من المعلوم أن القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء بل أخبر سبحانه وتعالى بخلق السموات والأرض كما أخبر بخلق الإنسان والجن وغير ذلك من المخلوقات وأخبر أنه خالق كل شيء قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنَّ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ} {الحج 5} وفي الصحيح عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور و خلقت الجن من نار وخلق آدم مما وصف لكم فأنه سبحانه قد أخبر بخلق الإنسان الذي هو آدم وخلق ذريته شيئا بعد شيء في غير آية وأخبر أن ذلك مخلوق من غيره فالأصل مخلوق من الطين من التراب والماء ثم جعل صلصالا فييس وجف وذلك بالهواء ولهذا قال النبي

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 267-268

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 39-41

صلى الله عليه وسلم حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فثلاث للطعام وثلاث للشراب وثلاث للنفس وأخبر أنه خلق الجن من النار وأنه خلق الملائكة من النور ولم يذكر أنه خلق هذه الأصناف لا من شيء¹

بين سبحانه إمكان المعاد أتم بيان

إن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمي الله آيتي موسى برهانين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل والفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراداه فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } النحل 60 مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المرئوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربيه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه إمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجود لم يلزم من تقديره وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فإله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء 99 وقوله { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 وقوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف 33 وقوله { لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } غافر 57 فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك وكذلك استدلاله على ذلك بالنشأة الأولى في مثل قوله { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم 27 ولهذا قال بعد ذلك { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الروم 27 وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ

¹الصفدية ج: 2 ص: 75

عَلِمَ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {الحج 5} وكذلك ما ذكره في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ {79} } يس 78-79 الآيات فإن قوله تعالى { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78 قياس حذف إحدى مقدمتيه لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {78} } يس 78 وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي ميناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات والتقدير هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال { يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس 79 وقد أنشأها من التراب ثم قال { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } يس 79 ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال ثم قال { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا } يس 80 فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب وذلك أبلغ في المنافاة لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة فالرطوبة تقبل من الانفعال مالا تقبله اليبوسة ثم قال { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } يس 81 وهذه مقدمة معلومة بالبيديهة ولهذا جاء باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان 33 ثم بين قدرته العامة بقوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82¹

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

ليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فإن الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعاً في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجوداً ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهُ جَهْرَةً } البقرة 55 قال { فَأَخَذْتُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } 55 { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 56 { البقرة 55-56 } وعن { الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } البقرة 243 وعن { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } البقرة 259 وعن ابراهيم اذ قال { رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } البقرة 260 القصة وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله { **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ {الحج 5}** الآية وقوله { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس 79 { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } الإسراء 51 { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم 27 وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما في قوله { **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى {الأحقاف 33}** وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما في قوله { **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا {الأعراف 57}** الى قوله { **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى {الأعراف 57}** فقد تبين ان ما عند أئمة النظر اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 446-447 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 299

فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيراً جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} فاطر10 وقرأ في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى11 {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} طه110 ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي¹

العلم بإمكان الشيء في الخارج فهذا يعلم بأن يعلم وجوده أو وجود نظيره أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه فإذا كان حمل البعير للقطار ممكنا كان حمله لتسعين رطلا أولى بالإمكان وبهذه الطريقة يبين الله في القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه كما أخبر أن قوم موسى قالوا {لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {56} البقرة 55-56 وكما أخبر عن المقتول الذي ضربوه بالبقرة فأحياه الله واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك وهو النشأة الأولى وخلق السموات والأرض وقال {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى} {5} {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {الحج5} فاستدل سبحانه على إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان وخلق النبات وذكر ذلك في القرآن في غير موضع وبسط هذا له موضع آخر والمقصود أن قول القائل هذا ممكن لا يحتاج إلى دليل لا يكفي في العلم بإمكانه عدم العلم بامتناعه والله سبحانه على كل شيء قدير والممتنع ليس بشيء باتفاق العقلاء وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه ويمتنع أضداده وإلا فيمتنع وجود الملزوم دون اللازم ويمتنع اجتماع الضدين وليس للعباد اطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضدادها وانتفائها جهل والله سبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم وهو يشق السموات ويسير الجبال ويبسها بسا فيجعلها هباء منبثا إلى أمثال ذلك مما أخبر الله به كما يخلق سائر ما يخلقه بما يبسره من الأسباب وهذا مبسوط في موضع آخر²

وتارة يستدل على إمكان المعاد بالنشأة الأولى وان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ} {الحج5} وكما في قوله {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} {79} يس78-79³

ذكر أول الخلق يستدل به على المبدأ والمعاد

فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء أو بدلائل أخر و لهذا ينكره طائفة من الكفار الدهرية و غيرهم الذين لا يقرون بالنبوات و هذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة فإن ذاك ذكره لما ثبتت النبوة و هذه السورة أول ما نزل و بها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل و المشاهدة و الأخبار المتواترة لمن لم ير العلق و ذكر سبحانه خلق الإنسان من العلق و هو جمع علقة و هي القطعة الصغيرة من الدم لأن ما قبل ذلك كان نطفة و النطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان و قد تسقط في

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 407

³الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 320

الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة فقد صار مبدأ لخلق الإنسان و علم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان و قد قال في سورة القيامة { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ {37} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ {38} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ {39} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ {40} } القيامة 37-40 فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب و لهذا قال في موضع آخر { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ {الحج 5} ففي القيامة إستدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق و في الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية و ذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة و أما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى إبتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق و هو من العلقة الدم يصير مضغة و هو قطعة لحم كاللحم الذي يمزج بالفم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى { ثُمَّ مِن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبِّئَنَّ لَكُمْ {الحج 5} فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم و يرون ذلك بأعينهم و هذا الدليل و هو خلق الإنسان من علق يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون و هم أنفسهم الدليل و البرهان و الآية فالإنسان هو الدليل و هو المستدل كما قال تعالى { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ {الذاريات 21} و قال { سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ {فصلت 53} و هذا كما قال في آية أخرى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ {الطور 35} و هو دليل يعلمه الإنسان من نفسه و يذكره كلما تذكر في نفسه و فيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ و المعاد كما قال تعالى { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا {66} } أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا {67} } مريم 66-67¹

تشبيه البعث بإحياء الأرض بعد موتها

القول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور و لهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي في الرحم يقبله الله علقة ثم مضغة و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التي يقبلها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يقبلها و تنقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقبلها عظما و غير عظام قال الله تعالى { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ {12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ {13} } ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ {14} } ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ {15} } ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ {16} } المؤمنون 12-16 و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا {يس 80} فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذ الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلي كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم و منه يركب و هو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبي صلى الله

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 262

عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {ي كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا قَاعِلِينَ} الأنبياء 104 فهم يعودون غلغا لا مختونين وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم في الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء و قال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} طه 55 و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} الأعراف 25 و هو قد شبه سبحانه إعادة الناس في النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها في غير موضع كقوله و {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 و قال {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} ق 7 إلى قوله {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} ق 11 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَبُوءُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ} 5 {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 6 {الحج 5-6} و قال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} فاطر 9 و هو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} الروم 27 و يخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى {وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} 98 {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ} 99 {الاسراء 98-99} و قال تعالى {وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} 49 {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا} 50 {أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} 51 {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} 52 {الاسراء 49-52} و قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} يس 81 و قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الأحقاف 33 و قال {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} 58 {أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} 59 {نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} 60 {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} 61 {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} 62 {الواقعة 58-62} و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} الأحقاف 33 فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها إحتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} الواقعة 62 و قال {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} 78 {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} 79 {يس 78-79} و قال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ} الحج 5 و لهذا قال {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} الواقعة 61 قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي في هذه الآية {وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} 61 {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ} 62 {الواقعة 61-62} أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة و هو يعذبه بدم الطمث الذي يربي به الجنين في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن و النشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة و لا يغذون بدوم و لا يكون أدهم نطفة رجل و امرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} طه 55 و قال تعالى {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} الأعراف 25 {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} 17 {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} 18 {نوح 17-18} و في الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} ق 11 {كَذَلِكَ النُّشُورُ} فاطر 9 {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 فعلم أن

النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتمثلان و يتشابهان من وجه و يفترقان و يتنوعان من وجه آخر و لهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباختيار إتفاق المبدأ و المعاد فهو هو و بإعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ و المعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبي صلى الله عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} الإسراء 88 و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا و إن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر العادي فالبدي التي ابتدئت و العادي التي أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته الشيء فأعاده إذا سألته أن يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعودته أي صار عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده و هو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة و تعاود القوم في الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة بإعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أو لا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده و يقال قريء على هذا و أعاد على هذا و هذا يقرأ أي يدرس و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل وجه و نحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو من وجه و هو مثله من وجه و بهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضوع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب و هي الإعادة التي فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هي التي يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البداية فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مياينا للأول من كل وجه كما زعم بعضهم و لا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم و كما إنه سبحانه خلق الإنسان و لم يكن شيئا كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئا و على هذا فالإنسان الذي صار ترابا و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائرهم فعدم فيعاد من المادة التي إستحال إليها فإذا إستحال في القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم ترابا فإنهم يعادون و يقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا و إذا صار ألف إنسان ترابا في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنسانا أو أكل حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي إستحالت إلى أبدانهم فقد غلط و حينئذ فإذا أكل إنسانا إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما و شرابا ثم يصير كلوسا كالثرثرة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما و اللحم لحما و العرق عرقا و هذا في الرزق كإستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم

مضغة فكذلك أغدبتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا و فاكهة و لحما ثم يجعلها كلوسا و كيموسا ثم دما ثم عظما و لحما و عروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال { وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة 61 و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التي كانت في النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل و معلوم أن من رأي شخصاً و هو شاب ثم رآه و هو شيخ علم أن هذا هو ذلك مع هذه الإستحالة و كذلك سائر الحيوان و النبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل و الإستحالة ثابت في سائر الحيوان و النبات كما هو في بدن الإنسان و لا يحتاج عاقل في إعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى و أن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين و لا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل و لا يخطر هذا ببال أحد و لا و لا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذلك على تلك الأجزاء التي لا تعرف و لا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة و الفرس و الإنسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر و لا يقال إنما كان هو ذلك بإعتبار أن النفس الناطقة و احدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذلك الأول و لكن المقصود جزء النفس بنعيم أو عذاب ففي أي بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضا باطل مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة فإننا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذلك و هذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه و تقوم بذاتها و كذلك يقولون مثل هذا في الحيوان و في الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا و ذلك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذلك مع وجود الإستحالة و علم بذلك أن ما ذكر من الإستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } يس 65 و قال تعالى { حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 20 { وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 21 { فصلت 21-22¹

الاستدلال على الخالق بخلق الانسان دليل شرعي وهو عقلي

الله سبحانه وتعالى بين القدرة على الابتداء كقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ } الحج 5 فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها وهي عقلية فان نفس كون الانسان حادثا بعد أن لم يكن ومولودا ومخلوقا من نطفة ثم من علقة هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لان الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته²

أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 248-259

²النبوات ج: 1 ص: 51

وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنما فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيراً من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} {الزمر 42} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} {الأنعام 60} مع قوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} {السجدة 11} وقوله {تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} {الأنعام 61} وقال {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {الحج 5} فأضاف الإنبات إليها وقال تعالى {وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} {الحجر 19} وقال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} {10} يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ {11} النحل 10-11¹

قال الله تعالى { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {الحج 5} فجعلها فاعلة بطبعها²

أن الله على كل شيء قدير

قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمُؤْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {الحج 6}

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أي في مواضع كثيرة جدا وقد بسطت الكلام في الرد على من أنكر قدرة الرب في غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين و المحصل وفي شرح الأصبهانية وغير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازي وغيره في مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون ن الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس في هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك دخل في المقدور كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئا فإنه لا يدخل في المقدور كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذي عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة وأن كانوا متنازعين في المعدوم فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتا في الخارج ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان فلم يدخل في قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون قادرا إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه وهذا قول

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 242

² مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 192

بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يردده ويحكي هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبته كالأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالفاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا في الخارج ومنه قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 و لفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة4 وقال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} الأنعام65 وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْخِقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهَ الْقَادِرُونَ} المؤمنون18 قال المفسرون لقادرون على أن يذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} الواقعة68 إلى قوله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ} الواقعة82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} يونس99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا} البقرة253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} يس81 {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} القيامة40 {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة4 ونظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ} المؤمنون12 {أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} البلد5 و جاءت منصوصا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله {فَأِمَّا تَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنْتَقِمُونَ} الزخرف41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} ق45 و {أَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} الغاشية22 ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله {فَطَرَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} الأنبياء87 على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} المرسلات20 إلى قوله {فَنِعَمَ الْقَادِرُونَ} المرسلات23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد¹

فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيبته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة20 و الشيء في الأصل

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 7

مصدر شاء يشاء شيئا كنال ينال نيلا ثم وضع المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن وكما يسمى المقذور قدرة و المخلوق خلقا فقوله { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } البقرة 20 يتناول ما كان شيئا في الخارج و العلم أو ما كان شيئا في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة و هو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم و لهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء¹

ذم الله من يجادل ويحاج بلا علم

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِرٍ } {8} تَائِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } {10} الحج 8-10 وقال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } {الإسراء 36} وهذا نهى عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما اخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا ينفي شيئا إلا بعلم ولا يثبت إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس عليه دليل وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات فأوجه في العقليات دون الشرعيات وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب فإن من أثبت شيئا فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل دليل وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفي ما أثبته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نقيض قولك ولم يكن هذا كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئا أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعاً في المناظرة وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعياً فمعرض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيانات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً وخص الكلام على الله بقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {الأعراف 33} ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } {168} إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {169} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } {170} البقرة 168-170 وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِرٍ } {الحج 8}

فالذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور منها الجدل في آياته كقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِرٍ } {الحج 8} وكذلك سنة رسول الله توافقت كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي روى مسلم بعضه عن عبدالله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 458-461

جده أن رسول الله خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المرء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي قرأ قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} آل عمران 7 فقال النبي إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم¹

لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم والعمل

وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } 8 { ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } 9 { الحج 8-9

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وإنما هداهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى إما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا²

{ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ }

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } 8 { ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } 9 { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ } 10 { الحج 8-10 وجازى كل قوم بعملهم } وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ { فصلت 46

{ 9 } { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ } 10 { مواضع عن عدل الله عز وجل³

الشرك نوعان

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 443

ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا كدعاء غيره أن يفعل أو دعائه أن يدعو الله ونحو ذلك لا يحصل به غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة فأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحوط وكشف العذاب النازل فلا ينفع فيه هذا الشرك كما قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} الإسراء 67 فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به وعلم بذلك أن ما دون هذا أيضا من الإجابات إنما حصولها منه وحده لا شريك له وإن كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة كما أن خلقه للسموات والأرض والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة دل على وحدانيته وأنه خالق كل شيء وأن ما دون هذا بأن يكون خلقا له أولى إذ هو حاصل عن مخلوقاته العظيمة فخالق السبب التام خالق للمسبب لا محالة وجماع الأمر أن الشرك نوعان شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير إما كما قال سبحانه {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ} سبأ 22 فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالاً ولا يشركونه في شيء من ذلك ولا يعينونه على ملكه ومن لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عونا فقد انقطعت علاقته وشرك في الألوهية بأن يدعو غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {5} الفاتحة فكما أن إثبات المخلوقات أسباب لا تقدر في توحيد الربوبية ولا تمنع أن الله خالق كل شيء ولا توجب أن يدعي مخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسبابا لا يقدر في توحيد الإلهية ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص ولا يوجب أن تستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذ كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعتة إذ قد جعل الله الخير كله في أنا لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه وعمامة آيات القرآن تثبت هذا الأصل الأصيل حتى إنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَيْهِ وَجْهَهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} {12} يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنَ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} {13} الحج 11-13¹

ما يحصل لأرباب الذنوب من التمتع بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا

قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَيْهِ وَجْهَهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} {12} يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنَ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} {13} الحج 11-13 وكما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} العنكبوت 10 فإنه لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله بل إختار المعصية كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير ومنهم من يقول {انذني ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا} التوبة 49 ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين كانت العقوبة له في الدنيا والآخرة وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيما وسرورا كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التمتع بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا²

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 358

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 152

قال تعالى {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} {الأنعام 135} والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطا به كالسقف مثلا قد يراد به ما يحيط به فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكانة لهم استقروا عليها وقد تحيط بهم بخلاف الذين قال فيهم {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ} {الحج 11} فان لفظ الحرف أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال حروف الرغيف وحرف الجبل قال الجوهرى حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ومنه قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {الحج 11} فان طرف الشيء إذا كان الانسان عليه لم يكن مستقرا فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابدا له على حرف تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل فإن هذا ليس ثابتا مستقرا مطمئنا بل هو كالواقف على حرف الوادي وهو جانبه فقد يطمئن إذا أصابه خير وقد ينقلب على وجهه ساقطا في الوادي وكذلك فرق بين من {أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ} {التوبة 109} وبين {مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٌ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ} {التوبة 109} ¹

أن النعيم لا يدرك بالنعيم

قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11} {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ} {الْبَعِيدُ} {12} {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} {13} {الحج 11-13} فلا تقوم مصلحة أحد من بني آدم بدون مخالفة الأهواء أبدا لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه كما قال إبراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة علي أن النعيم لا يدرك بالنعيم ولا بد من الصبر في جميع الأمور قال تعالى { وَالْعَصْرِ} {1} {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} {2} {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} {3} {العصر 1-3} فلا بد من التواصي بالحق والصبر إذ أن أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضا لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر وأولئك يتواصون بالصبر علي باطلهم كما قال قائلهم { أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} {ص 6} فالتواصي بالحق بدون الصبر كما يفعله الذين يقولون { آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } {العنكبوت 10} والذين يعبدون الله علي حرف فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه خسر الدنيا والآخرة والتواصي بالصبر بدون الحق كقول الذين قالوا { أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ} {ص 6} كلاهما موجب للخسران وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهذا موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع ²

قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11} {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ} {الْبَعِيدُ} {12} {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} {13} {الحج 11-13} فمن الناس من يقولون عما يصيبهم من الحرب والزلازل والجراح والقتل وغير ذلك مما يحصل من العدو هو منك لأنك أمرتنا

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 63-64 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 110

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 208

بالأعمال الموجبة لذلك ويقولون عن هذا وعن المصائب السماوية إنها منك أي بسبب طاعتنا لك واتباعنا لدينك أصابتنا هذه المصائب كما قال تعالى **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {الحج 11}** فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول وفعل ما بعث به مسببا لشر أصابه إما من السماء وإما من آدمي وهؤلاء كثيرون¹

أهل الضلال الذين يقرون بالحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية

قال تعالى **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11}** **{يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ} {12}** **{يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} {13}** {الحج 11- 13} قسم من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا ويظن أن دين الله الموافقة للقدر سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورساله أو الأعراض عنهم والكفر بهم وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض وبين المتقين والفجار ويجعلون المسلمين كالمجرمين ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان وأهل الجنة كأهل النار وأولياء الله كأعداء الله وربما جعلوا هذا من باب الرضا بالقضاء وربما جعلوه التوحيد والحقيقة بناء على انه توحيد الربوبية الذي يقربه المشركون وأنه الحقيقة الكونية وهؤلاء يعبدون الله على حرف فان أصابهم خير اطمأنوا به وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة وغالبهم يتوسعون في ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالا لله ويجعلون اعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته ويقولون ما في الوجود غيره ولا سواه بمعنى ان المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع وقد يقولون **{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ} {الأنعام 148}** ويقولون **{أَنْطَعِمُ مَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ} {يس 47}** إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التي هي شر من مقالات اليهود والنصارى بل ومن مقالات المشركين والمجوس وسائر الكفار من جنس مقالة فرعون والدجال ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارئ رب العالمين أو يقولون إنه هو أو أنه حل فيه وهؤلاء كفار بأصلي الاسلام وهما شهادة ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله فان التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ولا نجعل له ندا في إلهيته لا شريكا ولا شفيعا فأما توحيد الربوبية وهو الاقرار بأن خالق كل شيء فهذا قد اقر به المشركون الذين قال الله فيهم **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} {يوسف 106}** قال ابن عباس تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم يعبدون غيره وقال تعالى **{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} {الزمر 38}** وقال تعالى **{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84}** **{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {85}** **{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {86}** **{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {87}** **{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {88}** **{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} {89}** {المؤمنون 84-89} فالكفار المشركون مقرون ان الله خالق السموات والأرض وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكا مساويا له في ذاته وصفاته وافعاله هذا لم يقله أحد قط لا من المجوس الوثنية ولا من أهل التثليث ولا من الصائبة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ولا من عباد الأنبياء والصالحين ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم فان جميع هؤلاء وان كانوا كفارا مشركين متنوعين في الشرك فهم مقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله ولكنهم مع هذا مشركون به في الوهيته بأن يعبدوا معه آلهة أخرى يتخذونها شفعاء أو شركاء أو في ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب بعض الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب وخالق ذلك الخلق وقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء 25}** وقال تعالى **{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً**

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 250 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 32

يُعْبُدُونَ { الزخرف 45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} النحل 36 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } {52} المؤمنون 51-52 وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له والى طاعتهم والايمان بالرسول هو الاصل الثاني من أصلى الاسلام فمن لم يؤمن بأن محمدا رسول الله إلى جميع العالمين وانه يجب على جميع الخلق متابعتة وان الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه فهو كافر مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوز الخروج عن دينه وشرعته وطاعته إما عموما وإما خصوصا ويجوز اعانة الكفار والفجار على افساد دينه وشرعته ويحتجون بما يفترونه ان أهل الصفة قاتلوه وانهم قالوا نحن مع الله من كان الله معه كنا معه يريدون بذلك القدر و الحقيقة الكونية دون الأمر و الحقيقة الدينية ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار ويخفرهم بقلبه وهمته وتوجهه من ذوى الفقر ويعتقدون مع هذا انهم من أولياء الله وان الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم وكل هذا ضلال وباطل وان كان لأصحابه زهد وعبادة فهم فى العباد مثل اوليائهم من التتار ونحوهم فى الاجناد فان المرء على دين خليله و المرء مع من احب هكذا قال النبي وقد جعل الله المؤمنين بعضهم أولياء بعض والكافرين بعضهم أولياء بعض وقد أمر النبي بقتال المارقين من الاسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية اينما لقيتموهم فان فى قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة لئن ادركتهم لاقتلنهم قتل عاد وهؤلاء قاتلهم امير المؤمنين على بن أبى طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله وسنته وفاقوا جماعة المسلمين فكيف بمن يعتقد ان المؤمنين كانوا يقاتلون النبي ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين ان أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج وان الله امره ان لا يعلم به احدا فلما اصبح وجدهم يتحدثون فانكر ذلك فقال الله تعالى انا امرتك ان لا تعلم به احدا لكن انا الذى اعلمتهم به إلى امثال هذه الاكاذيب التى هى من أعظم الكفر وهى كذب واضح فان أهل الصفة لم يكونوا الا بالمدينة لم يكن بمكة أهل صفة والمعراج انما كان من مكة كما قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} الإسراء 1 ومما يشبه هذا من بعض الوجوه رواية بعضهم عن عمر انه قال كان النبي يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجى بينهما وهذا من الافك المختلق ثم انهم مع هذا يجعلون عمر الذى سمع كلام النبي وصديقه وهو أفضل الخلق بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام بل كان كالزنجى ويدعون انهم هم سمعوه وعرفوه ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفرية التى يزعم انها علم الاسرار والحقائق ويريدون بذلك اما الاتحاد واما تعطيل الشرائع ونحو ذلك مثل ما تدعى النصيرية والاسماعيلية والقرامطة والباطنية الثنوية والحاكمية وغيرهم من الضلالات المخالفة لدين الاسلام وما ينسبونه إلى على بن أبى طالب أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عنضب وغير ذلك من الاكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة وكل هذا باطل فانه لما كان لآل رسول الله به اتصال النسب والقرابة وللأولياء الصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة وصار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه باطله ويزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته وصار كثير من الناس يغلو إما فى قوم من هؤلاء أو من هؤلاء حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبي وسنته وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة وهذا كثير فى أهل الضلال¹

خسران المنقلب على وجهه عند الفتنة

قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {11} يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 49-55

الْبَعِيدُ {12} {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَالْبَيْسَ الْعَشِيرُ} {13} {الحج 11- 13} فما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان الذي يخلص الله به أهل الصدق والايمن من أهل النفاق والبهتان اذ قد دل كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من الداعي الى الايمان والعقوبة لذوى السيئات والطغيان قال الله تعالى {الم {1} أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} {2} {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} {3} {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} {4} {العنكبوت 1-4} فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب وأن مدعالي ايمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب وأخبر في كتابه أن الصدق في الايمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله فقال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} {الحجرات 14} الى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {الحجرات 15} وأخبر في كتابه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة الذي يعبد الله فيها على حرف وهو الجانب والطرف الذي لا يستقر من هو عليه بل لا يثبت الايمان الا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {الحج 11} وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} {آل عمران 142} وقال تعالى {وَلَنْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ} {محمد 31} وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {المائدة 54} وهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الايمان الصابرون علما لامتحان كما قال تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} {آل عمران 144} الى قوله تعالى {وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} {وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} {فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا وَحَسَنًا تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148} {آل عمران 146-148} فإذا أنعم الله على الإنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى الله له من القضاء خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له والصابر الشكور هو المؤمن الذي ذكره الله في غير موضع من كتابه ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال وكل واحد من السراء والضراء في حقه يقضى الى قبيح المال فكيف اذا كان ذلك في الأمور العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصديقين وفيها تثبيت أصول الدين وحفظ الايمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان¹

ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو اكره

وقد اودى النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وغيرهما بأنواع من الاذى بالضرب وغيره وصبروا على ذلك ولم ينطق احد منهم بكلمة كفر بل قد سعوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع مما قدروا عليه من السعي وهو صابر لأمر الله كما امره الله تعالى وان كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اخبر في اثناء الامر بان الله يعصمه من الناس فلم يكن قد اخبر اولا بانه يعصم من انواع الاذى واما السابقون فلم يخبروا بذلك وكذلك خبيب بن عدي الذي صلبه المشركون حين اخرجوه من الحرم ولم يتكلم بكلمة الكفر وقصته في الصحيح لكن قد يقال ان هذا لم يكن قصدهم منه ان يعود الى دينهم فإنه كان من الانتصار وكانوا يقتلونه بمن قتل منهم يوم بدر بخلاف اقاربهم وحلفائهم ومواليهم فإنهم كانوا يحبونهم ويكرمونهم ولم يكونوا يريدون منهم الا الكفر بعد الايمان وقد ذم الله في

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 212-214

كتابه من يرتد ويفتن ولو اكره وهذا هو الذي ذمه الله بقوله { وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 106

وكذلك يذم من يترك الواجب الظاهر ويفعل المحرم الظاهر عندما يصيبه من الاذى والفتن كما قال تعالى قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } 11 { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفَعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } 12 { يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ } 13 { الحج 11- 13 }¹

الدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } 11 { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفَعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } 12 { يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ } 13 { الحج 11- 13 } لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون 117 وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } القصص 88 وقال { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } الجن 19 وقال { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } النساء 117 ولفظ الصلاة في اللغة اصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامثال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الانبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع²

{ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ }

قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } 11 { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفَعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } 12 { يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ } 13 { الحج 11- 13 } وإنما يطلبون أنهم

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 338

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 238-240

يقضون به أغراضهم الدنيوية لما لهم في ذلك من الهوى وذلك ضار لهم لا نافع كما قال في المشرك {يَدْعُو لَمَنْ
ضُرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} الحج 13¹

فإن المقصود لنفسه هو المعبود ومن عبد غير الله كان باطلا وعبادته باطلة لأنه لا منفعة فيه ولا في عبادته بل ذلك ضرر محض قال الله تعالى {يَدْعُو لَمَنْ ضُرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} الحج 13 وهذا عام في كل معبود وهذا حقيقة الدين فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له وسخر لهم مافي السموات وما في الأرض ليستعينوا به على عبادته فمن لم يستعن بهذه الأشياء على عبادته فعمله كله وقصده باطل ولا منفعة فيه بل فيه الضرر²

هذه الآية {يَدْعُو لَمَنْ ضُرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} قد أشكل على كثير من الناس

في قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} {11} {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} {12} {يَدْعُو لَمَنْ ضُرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} {13} الحج 11-13 فإن آخر هذه الآية قد أشكل على كثير من الناس كما قال طائفة من المفسرين كالتعلبي والبغوي واللفظ للبغوي قال هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة أولها قالوا قد قال الله تعالى في الآية الأولى {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ} الحج 11 أى لا يضره ترك عبادته وقوله {لَمَنْ ضُرَّهُ} الحج 13 أى ضر عبادته قلت هذا جواب وذكر صاحب الكشاف جوابا غير هذا فقال فإن قلت الضر والنفع متقيان عن الأصنام مثبتان لهما في الآيتين وهذا تناقض قلت إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه لجهله وضلاله أنه يستشفع به حين يستشفع به ثم قام يوم القيامة هذا الكافر بدعاء وصراخ حين رأى إسضاراه بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي إدعاها لها {لَمَنْ ضُرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} {13} الحج 13 أو كرر يدعو كأنه قال {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ} الحج 12 ثم قال {لَمَنْ ضُرَّهُ} الحج 13 بكونه معبودا {أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} {13} الحج 13 بكونه شفيعا {لَيْسَ الْمَوْلَىٰ} الحج 13 قلت فقد جعل ضره بكونه معبودا وذكر تضرره بذلك وفي الآخرة وقد قال السدي ما يتضمن الجوابين في تفسيره المعروف قال {مَا لَا يَضُرُّهُ} الحج 12 قال لا يضره أن عصاه {وَمَا لَا يَنْفَعُهُ} الحج 12 قال لا ينفعه الصنم أن أطاعه {يَدْعُو لَمَنْ ضُرَّهُ} الحج 13 قال ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا قلت وهذا الذي ذكر من الجواب كلام صحيح لكن لم يبين فيه وجه نفي التناقض فنقول قوله {مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ} الحج 12 هو نفي لكونه المدعو المعبود من دون الله يملك نفعا أو ضرا وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن والكواكب والأوثان كلها فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {73} أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {74} مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} {75} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {76} المائدة 73-76 وقد قال لخاتم الرسل {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} الأعراف 188 وقال {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} الجن 21 وقال على العموم {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} فاطر 2 وقال {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} يونس 107 وقال {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 16

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 425

هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ {الزمر 38} وقال صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {22} } أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ {23} } إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {24} } إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ {25} } يس 22-25 وقوله **{يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ} {الحج 12}** نفى عام كما في قوله { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً } طه 89 فهو لا يقدر أن يضر أحدا سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحدا سواء عبده أو لم يعبده وقول من قال لا ينفع أن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لإنتفاء الرغبة والرغبة من جهته بخلاف الرب الذي يكرم عابديه ويرحمهم ويهين من لم يعبده ويعاقبه التحقيق انه لا ينفع ولا يضر مطلقا فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبده فنفعه للعباد لا يختص بعابديه وإن كان في هذا تفصيل ليس هذا موضعه وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده وهو سبحانه الضار النافع قادر على أن يضر من يشاء وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم كما قال أيوب { مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {الأنبياء 83} وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } {الأعراف 17} وقال أيضا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } {الأعراف 188} وقال تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } البقرة 177 وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم لما في ذلك منة الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط في غير هذا الموضع فإن المقصود هنا أن نفى الضر والنفع عن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده وهذا بمن لم يعبده وإن كان هذا التخصيص حقا باعتبار صحيح وجواب من اجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعبادته أقرب من نفعه مبني على هذا التخصيص وإذا كان كذلك فنقول المنفى قدرة من سواه على الضر والنفع وأما قوله **{ لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ } {13} {الحج 13}** فنقول أولا المنفى هو فعلهم بقوله **{ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ } {الحج 12}** والمثبت اسم مضاف إليه فإنه لم يقل يضر أعظم مما ينفع بل قال **{ لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ } {13} {الحج 13}** والشئ يضاف إلى الشئ بأدنى ملابسة فلا يجب أن يكون الضر والنفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل بل قد يضاف المصدر من جهة كونه إسما كما تضاف سائر الأسماء وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه وسبب حدوثه وأن لم يكن فاعلا كقوله { بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } سبأ 33 ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلق يقتضى الإضافة كأنه قيل لمن شره أقرب من خيره وخسارته أقرب من ربحه فتدبر هذا ولو جعل هو فاعل الضر بهذا لأنه سبب فيه لا لأنه هو الذي فعل الضر وهذا كقول الخليل عن الأصنام { رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَضْلَلْنُ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ } إبراهيم 36 فنسب الإضلال إليهن والإضلال هو ضرر لمن أضلنهن وكذلك قوله { وَمَا زَادُوهُمُ غَيْرَ تَنْبِيهِ } هود 101 وهذا كما يقال أهلك الناس الدرهم والدينار وأهلك النساء الأحمران الذهب والحرير كما يقال للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعرته وإن كان ذلك المحبوب قد لا يكون شاعرا بحال هذا البتة وكذلك يقال في المحسود إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي أنه قال والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها وإن كانت مفعولا بها لا إختيار لها فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جمادا وإما لكونه عبدا مطيعا لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر لكن هو السبب في دعاء الداعي له وعبادته إياه وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره فهذا الضر المضاف إليه غير الضر المنفى عنه فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة وإن كان عذاب الآخرة أشد فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولي الأبصار قال الله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } {100} } وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمُ غَيْرَ تَنْبِيهِ } {101} } هود 100-101 فبين أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلا شرا وقد قيل في هذا كما قيل في الضر قيل ما زادتهم عبادتها وقيل أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شرا وهذا كقوله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً } {81} } كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً } {82} } مريم 81-82 والتنبيب عبر عنه الأكثرون بأنه التخصير كقوله تعالى { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } {المسد 1} وقيل التنبير والإهلاك وقيل ما زادهم إلا شرا ووقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمُ غَيْرَ تَنْبِيهِ } {هود 101} فعل ماض يدل على أن

هذا كان في الدنيا وقد يقال فالشر كله من جهتهم فلم قيل فما زادوهم فيقال بل عذبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم فلما عبدوهم مع ذلك إزدادوا بذلك كفرا وعذابا فما زادوهم إلا خسارة وشرا ما زادوهم ربحا وخيرا¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {1} { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } {2} { الحج 1-2 } لفظ الذات في الأصل تأنيث ذو كقوله { تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا } { الحج 2 } وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار²

2- قال الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } {3} { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } {4} { الحج 3-4 } عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال إذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} { فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ } {71} { الصافات 69-71 } وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } {67} { رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} { الأحزاب 67-68 } وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرن بالغي والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } { النجم 2 } وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } { الفاتحة 7 } وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } { القمر 47 }³

3- قال تعالى { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { الحج 6 }

قدير منزه عن العجز والضعف⁴

4- قال تعالى { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { الحج 6 }

و الشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كنال ينال نيلا ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقذور قدرة و المخلوق خلقا فقوله { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { البقرة 20 } أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } { البقرة 20 } يتناول ما كان شيئا في الخارج و العلم أو ما كان شيئا في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 269-275

²الصفدية ج: 1 ص: 109 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁵مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

5- قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} الحج 8-9 والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى وقوله ولا كتاب منير نكرة في سياق المعنى فيعم كل كتاب منير¹

6- قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {10} الحج 8-10

وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به فإن الهدى من العلم والكتاب المنير من الهدى²

7- قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } {8} ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } {9} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {10} الحج 8-10 اضيف الفعل الى اليد فتكون اضافته الى اليد اضافة له الى الفعل كقوله { بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ } { الحج 10 و { قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ } آل عمران 182 ومنه قوله { مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } يس 371³

8- فان لفظ الحرف أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال حروف الرغيف وحرف الجبل قال الجوهري حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ومنه قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } { الحج 11 فان طرف الشيء إذا كان الانسان عليه لم يكن مستقرا فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابدا له على حرف تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل⁴

9- قال تعالى { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } { الحج 12 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ } {71} الصافات 69-71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67-68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } { النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } { الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } { القمر 547⁵

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 350

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 384

³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 366

⁴مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 110

⁵مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

الحج 14-24

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {14} { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهَبَ كَيْدُهُ مَا يَعْتَظُّ } {15} { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ } {16} { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } {17} { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } {18} { هَذَا نَحْنُ نَحْنُ أَمْوَالُكُمْ فِي رِبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعْنَا لَهُمْ نِيَابَ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } {19} { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ } {20} { وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ } {21} { كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } {22} { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } {23} { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ } {24}

الله سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {الحج 14} ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} {الصافات 159} وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {الحج 14} ¹

الثواب الموعود به في الآخرة لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {الحج 14} أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب

¹ العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 9

مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَمَّنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238

وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاء بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله أمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هى التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وإن كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيان ترنيان وزناهما النظر والاذنان ترنيان وزناهما السمع واليد ترني وزناها البطش والرجل ترني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198-199

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب

قال تعالى { **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** } **الحج 14** ان قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم فانه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل وهذا جماع الكفر كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الايمان ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب وبسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين كما ان النافية من جنس المجوس وان المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشينة في نفس الأمر والنافية تنفي القدرة العامة والمشينة التامة وتزعم انها تثبت الحكمة والعدل وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشينة والقدرة كما قد بسط في مواضع لامية وأولئك يتعلقون بقوله { **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ** } الأنبياء 23 { **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } **الحج 18** وهذا ذكره الله اثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت فان الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة وذلك انه إنما يقال افعل كذا ان شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الاكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء فقوله تعالى { **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } **الحج 18** و { **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** } **الفتح 14** ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون انه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التي تحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم متقال ذرة وانه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك تدل على فساد قول المجبرة وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى وكلا القولين باطل وهذا هو الذي نهى عنه النبي في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي انه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر هذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ولهذا قال أحمد في بعض مناظراته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض انا قد نهينا عن هذا فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الاقوال فصاروا كما قال عن أهل الكتاب { **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } **المائدة 14** فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل { **فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** } **المؤمنون 53** هؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به وأما ما ابتدعه فكله ضلالة كما قال واياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الاصول وهو الذي يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع¹

خلق الله الأشياء بأسباب

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 225

قال تعالى { **مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ {15}** } وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ {16} } الحج 15-16 إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينته فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذى جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً {21} } المعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {96} الصافات 95-96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدريه فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } الكهف 17 و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابعة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

كمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له

قال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ { الحج 17 }** } فإن الله تعالى أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له و أخبر عن كل نبي أنه دعا قومه إلى ذلك فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل و هو الذي لا يقبل من أحد ديناً غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين فالسعداء الكاملون من نوح إلى الحواريين على الإسلام و كذلك الإيمان قال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62** } فبين اتصاف السعداء من هذه الأصناف الأربعة بالإيمان بالله و اليوم الآخر والعمل الصالح و قد ذكر في سورة الحج ست ملل فقال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ { الحج 17 }** } فهنا لما ذكر

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78-80

فصله بينهم يوم القيامة ذكر الملل الست وهناك لما ذكر السعداء لم يذكر إلا الملل الأربع فإن المجوس والمشركون ليس منهم من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا بل كلهم كفار والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيدا وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل¹

بنو آدم منحسرون في الأصناف الستة

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فكل من لم يعبد الله مخلصا له الدين فلا بد أن يكون مشركا عابدا لغير الله وهو في الحقيقة عابد للشيطان فكل واحد من بني آدم اما عابد للرحمن واما عابد للشيطان قال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ } {37} حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرْيُنُ } {38} وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } {39} الزخرف 36- 39 و قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فبنو آدم منحسرون في الأصناف الستة و بسط هذا له موضع آخر²

الشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه اهل الكتاب وانما يدخلون في الشرك المقيد

لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 و الأول كقوله { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ النَّبِيُّةُ } البينة³

وأن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع وكلا الأمرين حق فالأول كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17⁴

أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } الحج 17 فإن قيل فقد وصفهم بالشرك بقوله { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 قيل أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد فكل من آمن بالرسول و الكتب لم يكن في أصل دينهم شرك و لكن النصارى ابتدعوا الشرك كما قال { سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

¹الصفدية ج: 2 ص: 243-244

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 285 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 58

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 55

⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 112

{ التوبة 31 } فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم يأمر الله به وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك فإذا قيل أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا يشرك فيه كما إذا قيل المسلمون و أمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد و لا رفض و لا تكذيب بالقدر و لا غير ذلك من البدع و ان كان بعض الداخلين فى الأمة قد ابتدع هذه البدع لكن أمة محمد صلى الله عليه و سلم لا تجتمع على ضلالة فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد بخلاف أهل الكتاب و لم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالاسم بل قال { عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 بالفعل و آية البقرة قال فيها المشركين و المشركات بالاسم و الاسم أوكد من الفعل الوجه الثاني ان يقال ان شملهم لفظ { الْمُشْرِكِينَ } البقرة 221 فى سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفردا و مقرونا فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب و إذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم كما قيل مثل هذا فى اسم الفقير و المسكين و نحو ذلك¹

ان الشرك المطلق فى القرآن لا يدخل فيه اهل الكتاب وانما يدخلون فى الشرك المقيد قال تعالى { أَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة 1 فجعل المشركين قسما غير اهل الكتاب وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } الحج 17 فجعلهم قسما غيرهم فأما دخولهم فى المقيد ففى قوله تعالى { اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 فوصفهم بأنهم مشركون و سبب هذا ان اصل دينهم الذى انزل الله به الكتب و أرسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال تعالى { وَإِسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 ولكنهم بدلوا وغيروا فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطانا فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار اصل الدين²

اليهود والنصارى و الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن وجهة كفرهم بما أنزل على محمد

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة و الفلاسفة بقايا أهل دين نمرود و الكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم و نمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين كما أن كسرى ملك الفرس و فرعون ملك مصر و النجاشى ملك الحبشة و بطليموس ملك اليونان و قيصر ملك الروم فهو اسم جنس لا اسم علم فكانت الصابئة الا قليلا منهم اذ ذاك على الشرك و علماءهم هم الفلاسفة و ان كان الصابىء قد لا يكون مشركا بل مؤمنا بالله و اليوم الآخر كما قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 وقال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } المائدة 69 لكن كثيرا منهم أو أكثرهم كانوا كفارا أو مشركين

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 91- 93

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 214 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 199

كما أن كثيرا من اليهود والنصارى بدلوا وحرّفوا وصاروا كفارا أو مشركين فأولئك الصابئون الذين كانوا اذ ذاك كانوا كفارا أو مشركين وكانوا يعبدون الكواكب وبينون لها الهياكل¹

أن الذين اتنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين لم يبدلوا ما أنزل الله ولا كفروا بشيء مما أنزل الله وكان اليهود والنصارى صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد فكذلك الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد وان كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودى والنصرانى وهؤلاء هم المستأخرون من اليهود والنصارى والصابئين وذلك ان متأخري الصابئين لم يؤمنوا ان الله كلاما أو يتكلم ويقول أو أنه ينزل من عنده كلاما وذكرنا على أحد من البشر أو انه يكلم أحدا من البشر بل عندهم لا يوصف الله بصفة ثبوتية لا يقولون إن له علما ولا محبة ولا رحمة وينكرون أن يكون الله اتخذ إبراهيم خليلا أو كلم موسى تكليما وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي مثل قولهم ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه أو باضافة مثل كونه مبدأ للعالم أو العلة الأولى أو بصفة مركبة من السلب والاضافة مثل كونه عاقلا ومعقولا وعقلا وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره ولا يخص محمدا بارسال دون غيره فانهم لا يثبتون له علما مفصلا للمعلومات فضلا عن إرادة تفصيلية بل يثبتون إذا أثبتوا له علما جمليا كليا وغاية جميلة كلية ومن أثبت النبوة منهم قال إنهم إنها فيض تفيض على نفس النبي من جنس ما يفيض على سائر النفوس لكن استعداد النبي اكمل بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره ويسمع ما لا يسمع غيره ويبصر ما لا يبصر غيره وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره والكلام الذى تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن {إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ} المدثر 25 فان الوحيد الذى هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم كان من المشركين الذين هم صابئون ايضا فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين وتارة يجعلهم الله قسيما لهم كما قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} البينة 1 وقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} البينة 6 وكذلك لما ذكر الملل الست فى الحج فقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} الحج 17 الآية وقال تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} التوبة 31 الآية وهذا بعد قوله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} التوبة 30 إلى قوله {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} التوبة 32 وقال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} المائدة 72 فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى وذلك بعد تبديلهم فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك فالشرك مبتدع عندهم فينبغى التفتن لهذه المعانى وكان الوحيد من ذوى الرأى والقياس والتدبير من العرب وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} 18 {فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ} 19 {ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ} 20 {ثُمَّ نَظَرَ} 21 {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} 22 {ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} 23 {فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ} 24 {إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ} 25 {المدثر 18-25} ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبياء حيارى متهكون فانه بهرهم نور النبوة ولم تقع على أصولهم الفاسدة فصاروا على انحاء منهم من لا يؤمن بكثير مما تقوله الأنبياء والمرسلون بل يعرض عنه أو يشك فيه أو يكذب به ومنهم من يقول يجوز الكذب لمصلحة راجحة والأنبياء فعلوا ذلك ومنهم من يقول يجوز هذا لصالح العامة دون الخاصة وأمثلهم من يقول بل هذه تخيلات وأمثلة مضرورية لتقريب الحقائق إلى قلوب العامة وهذه طريقة الفارابى وابن سينا لكن ابن سينا أقرب إلى الإيمان من بعض الوجوه وان لم يكن مؤمنا فمن ادركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرته براهينها وانوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة والأعمال الصالحة حتى قال ابن سينا اتفق فلاسفة العالم على انه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس فلا بد ان يتأول نصوص الكتاب والسنة على عادة اخوانه فى تحريف الكلم عن مواضعه فيحرفون ما اخبرت به الرسل عن كلام الله تحريفا يصيرون به كفارا ببعض تأويل الكتاب فى بعض صفات تنزيهه

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 21

فلما رأوا أن الرسل سمت هذا الكلام كلام الله وأخبرت أنه نزلت به ملائكة الله مثل الروح الأمين جبريل أطلقت هذه العبارة الظاهر وكفرت بمعناها في الباطن وردوها إلى أصلهم أصل الصابئين وصاروا منافقين في المسلمين وفي غيرهم من أهل الملل فيقولون هذا القرآن كلام الله وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله ولكن المعنى انه فاض على نفس النبي من العقل الفعال وربما قالوا ان العقل هو جبريل الذي ليس على الغيب بضنين أى بخيل لأنه فياض ويقولون ان الله كلم موسى من سماء عقله وان أهل الرياضة والصفا يصلون إلى ان يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى وقد ضل بكلامه كثير من المشهورين مثل ابي حامد الغزالي ذكر هذا المعنى في بعض كتبه وصنفوا رسائل اخوان الصفا وغيرها وجمعوا فيها على زعمهم بين مقالات الصابئة المتأخرين التي هي الفلسفة المبتدعة وبين ما جاءت به الرسل عن الله فأتوا بما زعموا انه معقول ولا دليل على كثير منه وربما ذكروا أنه منقول وفيه من الكذب والتحريف أمر عظيم وانما يضلون به كثيرا بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية التي لا تعلق لها بأمر النبوات والرسالة لا بنفى ولا باثبات ولكن ينتفع بها في مصالح الدنيا كالصناعات من الحراثة والحياكة والبنائة والخيطة ونحو ذلك فإذا عرف ان حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة ان القرآن قول البشر كغيره لكنه أفضل من غيره كما أن بعض البشر أفضل من بعض وانه فاض على نفس النبي من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها فاعلم ان هذا القول كثر في كثير من المتأخرين المظهرين للإسلام وهم منافقون وزنادقة وان ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتفقهين حتى يقول احدهم كالتلمساني كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة وقد يقول بعضهم كابن عربي إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي ويقول كثير منهم ان القرآن للعامة وكلامنا للخاصة فهؤلاء جعلوا القرآن عظيم وضربوا له الأمثال مثل ما فعل المشركون قبلهم كما فعلوا بالنبي فان هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبي ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه أو بعض الفلاسفة مثل نفسه أو شيخه أو متبوعه على النبي وربما قالوا هو أفضل من وجهه والنبي أفضل من وجهه فلهم من الالحاد والافتراء في رسل الله نظير مالهم من الالحاد والافتراء في رسالات الله فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم ويقيسون رسل الله بأنفسهم وقد بين الله حال هؤلاء في مثل قوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } الأنعام 91 إلى ان قال { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } الأنعام 93 فذكر الله انزل الكتابين الذين لم ينزل من عند الله كتابا اهدى منهما التوراة والقرآن كما جمع بينهما في قوله { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ } القصص 48 وكذلك الجن لما استعمت القرآن { قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى } الأحقاف 30 الآية وقال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } الأحقاف 10 ولهذا قال النجاشي لما سمع القرآن ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمنتبىء فقال { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } الأنعام 93 فجمع في هذا بين من أضاف ما يفتريه إلى الله وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه فان الذي يدعى الوحي لا يخرج عن هذين القسمين ويدخل في القسم الثاني من يرى عينيه في المنام مالا تريا ومن يقول القى في قلبى والهمت ونحو ذلك إذا كان كاذبا ويدخل في القسم الأول من يقول قال الله لى أو أمرنى الله أو وافقتى أو قال لى ونحو ذلك بخيالات أو الهامات يجدها في نفسه ولا يعلم أنها من عند الله بل قد يعلم انها من الشياطين مثل مسيلمة الكذاب ونحوه ثم قال تعالى { وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } الأنعام 93 فهذه حال من زعم ان البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله او ان هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتى بمثله وهذا يعم من قال انه يمكن معارضة القرآن كابن أبى سرح في حال رده وطائفة متفرقين من الناس ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله فيكون قد أنزل مثل

ما أنزل الله في دعوى الرسل لأن القائل سأنزل مثل ما أنزل الله قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئاً¹

الصابئة نوعان

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 وكذلك يسمى المحب المشتاق الذي صار حبه أقوى من العلاقة صبا وحالة صباية وهو رقة الشوق وحرارته والصب المحب المشتاق وذلك لانصباب قلبه الى المحبوب كما ينصب الماء الجارى والماء ينصب من الجبل اى ينحدر فلما كان فى انحداره يتحرك حركة لا يرده شىء سميت حركة الصب صباية وهذا يستعمل فى المحبة المحمودة والمذمومة ومنه الحديث ان أبا عبيدة رضى الله عنه لما أرسله النبي فى سرية بكى صباية وشوقا الى النبي والصبابة والصب متفقان فى الاشتقاق الاكبر والعرب تعاقب بين الحرف المعتل والحرف المضعف كما يقولون تقضى البازى وتقضض وصبا يصبو معناه مال وسمى الصبى صبيا لسرعة ميله قال الجوهرى والصبى أيضا من الشوق يقال منه تصابى وصبا يصبو صبوة وصبوا أى مال الى الجهل والفتوة واصبته الجارية وقد يستعمل هذا فى الميل المحمود على قراءة من قرأ { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ } البقرة 62 بلا همزة فى قراءة نافع فانه لا يهمز الصابئين فى جميع القرآن وبعضهم قد حمده الله تعالى²

فان الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون فالاولون هم الذين اثنى الله عليهم بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 فأتى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من هذه الملل الاربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالانجيل قبل النسخ والتبديل والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة ابراهيم امام الحنفاء صلى الله عليه وسلم على محمد وعلى ال محمد كما صلى على ابراهيم وعلى ال ابراهيم انه حميد مجيد قبل نزول التوراة والانجيل وهذا بخلاف المجوس والمشركين فأنه ليس فيهم مؤمن فلماذا قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فذكر الملل الست هؤلاء واخبر انه يفصل بينهم يوم القيامة لم يذكر في الست من كان مؤمنا انما ذكر ذلك فى الاربعة فقط ثم ان الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين اما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ويقرون بمعاد الابدان فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين اثنى الله عليهم ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب تقرر بحدوثه وكذلك المشركون من الهند وقد ذكر اهل المقالات ان اول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هم ارسطو³

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 19-21

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 573

³الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 288

واما الصابئون الحنفاء فهم في الصابئين بمنزلة من كان متبعا لشريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى وهؤلاء ممن حمدهم الله واثنى عليهم وبعض الناس يقول ان بقرط كان من هؤلاء ووهب بن منبه من اعلم الناس بأخبار الامم المتقدمة وقد روى ابن ابي حاتم بالاسناد الثابت انه قيل لوهب بن منبه ما الصابئون قال الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا وكذلك روى عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال هم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين قال وروى عن علماء نحو ذلك أي ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي ولم يرد بذلك انهم كفار فان الله قد اثنى على بعضهم فهم متمسكون بالاسلام المشترك وهو عبادة الله وحده وايجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على ايجابه وتحريمه فان هذا دخل في الاسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره وكذلك قال عبد الرحمن بن زيد هم قد يقولون لا اله الا الله فقط وليس لهم كتاب ولا نبي وهذا كما كانت العرب عليه قبل ان يتتبع عمرو بن لحي الشرك وعبادة الاوثان فانهم كانوا حنفاء يعبدون الله وحده ويعظمون ابراهيم واسماعيل ولم يكن لهم كتاب يقرؤونه ويتبعون شريعته وكان موسى قد بعث الى بني اسرائيل بشريعة التوراة وحج البيت العتيق ولم يبعث الى العرب لا عدنان ولد اسماعيل ولا قحطان والناس متفقون على ان عدنان ولد اسماعيل وربيعه ومضر واما قحطان فقال بعضهم هم ايضا من ولد اسماعيل والصحيح انهم كانوا موجودين قبل ابراهيم بأرض اليمن ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة ومنهم تعلم اسماعيل العربية واما من قال من السلف الصابئون فرقة من اهل الكتاب يقرؤن الزبور كما نقل ذلك عن ابي العالية والضحاك والسدي وجابر بن يزيد والربيع ابن انس فهؤلاء ارادوا من دخل في دين اهل الكتاب منهم وكذلك من قال هم صنف من النصارى كما يروى عن ابن عباس انه قال هم صنف من النصارى وهم السائحون المحلقة اوساط رؤسهم فهؤلاء عرفوا منهم من دخل في اهل الكتاب ومن قال انهم يعبدون الملائكة كما يروى عن الحسن قال هم قوم يعبدون الملائكة وعن ابي جعفر الرازي قال بلغني ان الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرؤن الزبور ويصلون فهذا ايضا صحيح وهم صنف منهم وهؤلاء كثير من الصابئين يعبدون الروحانيات العلوية لكن هؤلاء من المشركين منهم ليسوا من الحنفاء وكذلك اختلاف الفقهاء في الصابئين هل هم من اهل الكتاب ام لا ويذكر فيه عن احمد روايتان وكذلك قولان للشافعي والذي عليه محققوا الفقهاء انهم صنفان فمن دان بدين اهل الكتاب كان منهم والا فلا وقال ابو الزناد الصابئون قوم مما يلي العراق وهم يؤمنون بالنبیین كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون الى الشمس كل يوم خمس صلوات فهؤلاء الصابئة الذين ادركهم الاسلام وكانوا بأرض حران والذين خبروهم عرفوا انهم ليسوا من اهل الكتاب بل مشركون يعبدون الكواكب ولا يحل اكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم وان اظهروا الايمان بالنبیین فهو من جنس ايمان الفلاسفة بالنبیین والفلاسفة الصابئون من هؤلاء واما قبول الجزية منهم فهو على خلاف المشهور فمن قبلها من غير اهل الكتاب كما يقبل من المجوس قبلها من هؤلاء وهذا مذهب مالك وابي حنيفة واحمد في احدى الروايتين ومن لم يقبلها الا من اهل الكتاب لم يقبلها من هؤلاء كما اذا لم يدخلوا في دين اهل الكتاب كما هو قول الشافعي واحمد في الرواية الاخرى عنه وكان ابو سعيد الاصطخري افتى بأن لا تقبل منهم الجزية ونازع في ذلك جماعة من الفقهاء¹

اخبر الله انه يفصل بين اهل الملل اجمعين ولم يذكرهم هنا ليتبين المحمود منهم في

الآخرة

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فان هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره فهذه الرسل وأممهم من نوح إلى الحواريين كلهم على الإسلام وكذلك كل من كان قبلنا من أهل السعادة فهو مؤمن قال تعال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 455-457

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {62} البقرة 62 وفي الآية الأخرى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {69} المائدة 69 فإن النصارى أفضل من الصابئين فلما قدموا عليهم نصب لفظ الصابئون ولكن الصابئون أقدم في الزمان فقدموا ها هنا لتقدم زمنهم ورفع اللفظ ليكون ذلك عطفًا على المحل فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن واللفظ وهو سبحانه ذكر في سورة الحج ملل العالم فقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {17} الحج 17 فأخبر أنه يفصل بين أهل الملة أجمعين ولم يذكرهم هنا ليتبين المحمود منهم في الآخرة وفي سورة البقرة والمائدة ذكر أربعة أصناف المسلمين والذين هادوا والصابئين ثم قال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} البقرة 62 فدل على أن هذه الأربعة منهم من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا وأولئك هم السعداء في الآخرة بخلاف من لم يكن من هؤلاء مؤمنًا بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا وبخلاف من كان من المجوس والمشركين فهؤلاء كلهم لم يذكر منهم سعيد في الآخرة¹

السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 والسجود هو الخضوع قال تعالى { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً } البقرة 58 قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمروا أن يدخلوا ركعًا منحنين فان الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ } الحج 18 وقال تعالى { وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } الرعد 15 ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم فعلم ان السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله وأعز ما في الإنسان وجهه فوضعه على الأرض لله غاية خضوعه ببدنه وهو غاية ما يقدر عليه من ذلك ولهذا قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق 19²

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 فإن الله تعالى أوجب الركوع والسجود في الكتاب والسنة وهو واجب بالإجماع لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } الحج 77 وقوله تعالى { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } السجدة 15 وقوله تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق 19 وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

¹الصفدية ج: 2 ص: 304

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 73 و مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 284

يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ {الحج 18} فدل على أن الذي لا يسجد لله من الناس قد حق عليه العذاب¹

لم يستثن من المخلوقات أحدا حتى جاء ابن آدم استثناءه

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } {الحج 18} روى ابن أبي حاتم عن ابن وهب أخبرني عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال قال عمرو يعني ابن دينار إني ليلة أطوف بالبيت إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكائه وتضرعه فوقفت لأعرفه فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه فإذا هو طاووس رضي الله عنه فقال من هذا عمرو قلت نعم أمتع الله بك قال متى وفتت ههنا قال قلت منذ طويل قال ما أوقفك قلت سمعت بكاءك فقال أعجبك بكائي قلت نعم قال وطلع القمر في حرف أبي قبيس قال ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبيكي من خشية الله ولا ذنب له ولا يسأل عما عمل ولا يجازى به فعجبت أن بكيت من خشية الله وأنا صاحب الذنوب وهذا القمر يبيكي من خشية الله وقرأ ابن زيد { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ } {الحج 18} قال فلم يستثن من هؤلاء أحدا حتى جاء ابن آدم استثناءه فقال { وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } {الحج 18} قال والذي كان هو أحق بالشكر هو أكفرهم ثم قرأ { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ } {27} وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ {28} فاطر 28 27 قال وكذلك اختلفوا في دينهم كما اختلف الأولون ولفظ السجود يستعمل في اللغة لخضوع الجامدات وغيرها كالبيت المعروف بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجدا للحوافر قال ابن قتيبة حجراته جوانبه يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطنتها حتى خشعت وانخفضت وقال في الحج { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } {الحج 18} وفي هذا الكثير قولان أحدهما أنه لم يسجد فلماذا حق عليه العذاب كما تقدم عن طاووس وهو قول الفراء وغيره والثاني أنه سجد وحق عليه العذاب فإنه ليس هو السجود المأمور به قال أبو الفرج وفي قوله { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } {الحج 18} قولان أحدهما أنهم الكفار وهم يسجدون وسجودهم سجود ظلهم قاله مقاتل والثاني أنهم لا يسجدون والمعنى وكثير من الناس أبي السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود هذا قول الفراء قلت ذا قول الأكثرين وقد ذكر البغوي في قوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } {الحج 18} الآية قال مجاهد سجودها تحول ظلالها وقال أبو العالية ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها قال وقيل سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } فصلت 11 وقال في وصف الحجارة { وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبُطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } البقرة 74 { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 قال وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة قلت قد تقدم قول الطبري وغيره بهذا القول فإذا كان السجود في هذه الآية لس عاما وهو هناك عام كان السجود المطلق هو سجود الطوع فهذه المذكورات تسجد تطوعا هي وكثير من الناس والكثير الذي حق عليه العذاب إنما يسجد كرها وحينئذ فالكثير الذي حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفي عنه كل سجود بل تخصيص من سواه بالذكر يدل على أنه ليس مثله وحينئذ فإذا لم يسجد طائعا حصل فائدة التخصيص وهو مع ذلك يسجد كرها فكل القولين صحيح وكذلك قال طائفة من المفسرين واللفظ للبغوي قالوا { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } {الحج 18} بكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالم لله تعالى وقال في سورة النحل { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُونَ ظُلُمًا عَنَ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } {48} وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ قُوَّتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {50} النحل 48-50 قال فلفظ دابة إن لم يتناول بني آدم فالإبل تسجد طوعا وإن تناول بني آدم

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبد بل قد يجعل معه إلهاً آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبهته وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخالقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيز بها فيقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربوبيته وملكوته وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعاً وحقلاً أيضاً فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكره إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعاً وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيته الله تعالى إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى { أَفَعَيَّرَ بَيْنَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وكذلك في قوله { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } الرعد 15 وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا { وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا } الجن 11 وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضاً وقال سبحانه { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظُلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } {48} وَبِاللَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } {49} يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {50} النحل 48-50 وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } النور 41 وقال تعالى { سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الحديد 1 { سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الصفا 1 { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ { الجمعة 1 } يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { التغابن 1¹

سجود القرآن

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18
في سجود القرآن وهو نوعان خبر عن أهل السجود ومدح لهم أو أمر به وذم على تركه فالأول سجدة الأعراف { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } الأعراف 206 وهذا ذكره بعد الأمر بإستماع القرآن والذكر وفي سورة الحج الأولى خبر { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 والثانية أمر مقرون بالركوع ولهذا صار فيها نزاع فالسنة الأولى الى الأولى من الحج خبر ومدح والتسع البواقي من الثانية من الحج أمر وذم لمن لم يسجد الا ص فنقول قد تنازع الناس في وجوب سجود التلاوة قيل يجب وقيل لا يجب وقيل يجب اذا قرئت السجدة في الصلاة وهو رواية عن أحمد والذي يتبين لي أنه واجب فان الآيات التي فيها مدح لا تدل بمجرد مدح على الوجوب لكن آيات الأمر والذم والمطلق منها قد يقال إنه محمول على الصلاة كالثانية من الحج والفرقان وقرأ وهذا ضعيف فكيف وفيها مقرون بالتلاوة كقوله

{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } السجدة 15 فهذا نفي للآيات عن لا يخر ساجدا اذا ذكر بها واذا كان سامعا لها فقد ذكر بها وكذلك سورة الانشقاق { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } 20 { وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ } 21 { الانشقاق 20-21 وهذا ذم لمن لا يسجد اذا قرئ عليه القرآن كقوله { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ } المدثر 49 { وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ } الحديد 8 { فَمَا لَهُمْ لَئِنْ قَالُوا لَا يَكْفُرُونَ بِفَهْوَنَ حَدِيثًا } النساء 78 وكذلك سورة النجم قوله { أَقْمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ } 59 { وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ } 60 { وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ } 61 { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا } 62 { النجم 59-62 أمر بالغا عقب ذكر الحديث الذي هو القرآن يقتضى أن سماعه سبب الأمر بالسجود لكن السجود المأمور به عند سماع القرآن كما أنه ليس مختصا بسجود الصلاة فليس هو مختصا بسجود التلاوة فمن ظن هذا أو هذا فقد غلط بل هو متناول لهما جميعا كما بينه الرسول فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدلل عليه فالسجود عند سماع آية السجدة هو سجود مجرد عند سماع آية السجدة سواء تليت مع سائر القرآن أو وحدها ليس هو سجودا عند تلاوة مطلق القرآن فهو سجود عند جنس القرآن وعند خصوص الأمر بالسجود فالأمر يتناوله وهو أيضا متناول لسجود القرآن أيضا وهو أبلغ²

النجوم من آيات الله الدالة عليه المسبحة له الساجدة له

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18
النجوم من آيات الله الدالة عليه المسبحة له الساجدة له كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 25

²مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 138

فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالذُّرَابِ وَكَثِيرٍ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {الحج18} ثم قال { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } {الحج18} وهذا التفريق

يبين أنه لما يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبيته كما يقول ذلك طوائف من الناس إذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات فجميع الناس فيهم هذه الدلالة وهو قد فرق فعلم أن ذلك قدر زائد من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حق عليه العذاب وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرها لهم كما قال تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } إبراهيم33 وقال تعالى { وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } الأعراف54 وقال تعالى { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } الجاثية13 ومن منافعها الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار وإنضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن وكذلك ما يجعله بها من الترطيب والتبييض وغير ذلك من الأمور المشهورة كما جعل في النار الإشراق والإحراق وفي الماء التطهير والسقي وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه كما قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } {48} لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ

كثيراً {49} الفرقان48-49 وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل بعض مخلوقاته ببعض كما قال تعالى { لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا } الفرقان49 وكما قال { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّتَهُ لَيْلِيًّا فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف57 وكما قال { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } البقرة164 فمن قال من أهل الكلام إن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها فعبارته مخالفة لكتاب الله تعالى والأمور المشهورة كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدين وقد أخبر في كتابه سبحانه من منافع النجوم أنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وأخبر أنها زينة السماء الدنيا وأخبر أن الشياطين ترحم بالنجوم وإن كانت النجوم التي ترحم بها الشياطين من نوع آخر غير النجوم الثابتة في السماء التي يهتدى بها فإن هذه لا تزول عن مكانها بخلاف تلك ولهذا حقيقة مخالفة لتلك وإن كان

اسم النجم يجمعها كما يجمع اسم الدابة والحيوان للملك والأدمي والبهائم والذباب والبعوض وقد ثبت بالأخبار الصحيحة التي اتفق عليها العلماء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر وأمر بالدعاء والاستغفار والصدقة والعتق وقال إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته وفي رواية آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده هذا قاله ردا لما قاله بعض جهال الناس إن

الشمس كسفت لموت إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم فإنها كسفت يوم موته وظن بعض الناس لما كسفت أن كسوفها كان لأجل موته وأن موته هو السبب لكسوفها كما قد يحدث عن موت بعض الأكابر مصائب في الناس فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر لا يكون كسوفهما عن موت أحد من أهل الأرض ولا عن حياته ونهى أن يكون للموت والحياة أثر في كسوف الشمس والقمر وأخبر أنهما من آيات الله وأنه يخوف عباده فذكر أن من حكمة ذلك تخويف العباد كما يكون تخويفهم في سائر الآيات كالرياح الشديدة والزلازل والجذب والأمطار المتواترة

ونحو ذلك من الأسباب التي قد تكون عذابا كما عذب الله أمما بالريح والصيحة والظوفان وقال تعالى { فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا } العنكبوت40 وقد قال { وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } الإسراء59 وإخباره بأن الله يخوف عباده بذلك يبين أنه قد يكون سببا لعذاب ينزل كالرياح العاصفة الشديدة وإنما يكون ذلك إذا

كان الله قد جعل ذلك سببا لما ينزله في الأرض فمن أراد بقوله إن لها تأثيرا ما قد علم بالحس وغيره من هذه الأمور فهذا حق ولكن الله قد أمر بالعبادات التي تدفع عنا ما ترسل به من الشر كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عند الخسوف بالصلاة والصدقة والدعاء والاستغفار والعتق وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح أقبل وأدبر وتغير وأمر أن يقال عند هبوبها اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما أرسلت به وقال إن الريح من روح الله وأنها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوا ولكن سلوا الله من خيرها وتعودوا ب الله من شرها فأخبر أنها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب وأمر أن نسأل الله من خيرها ونعوذ ب الله من شرها فهذه السنة في أسباب الخير والشر أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة من الأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر فأما ما يخفى من الأسباب فليس العبد مأمورا بأن يتكلف معرفته بل إذا فعل ما أمر وترك ما حظر كفاه الله مؤنة الشر ويسر له أسباب الخير { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } {3} الطلاق2-3 قد قال تعالى فيمن يتعاطى السحر

لجلب منافع الدنيا { وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قِثْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَانَ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {102} البقرة 102 فأخبر سبحانه أن من اعتاض بذلك يعلم أنه لا نصيب له في الآخرة وإنما يرجو بزعمه نفعه في الدنيا كما يرجون بما يفعلونه من السحر المتعلق بالكواكب وغيرها مثل الرياسة والمال ثم قال { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمُنُّوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 103 فبين أن الإيمان والتقوى هو خير لهم في الدنيا والآخرة قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {64} يونس 62-64 وقال تعالى في قصة يوسف { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ } {57} يونس 56-57 فأخبر أن أجر الآخرة خير للمؤمنين المتقين مما يعطونه في الدنيا من الملك والمال كما أعطى يوسف وقد أخبر سبحانه بسوء عاقبة من ترك الإيمان والتقوى في غير آية في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 والمفلاح الذي ينال المطلوب وينجو من المرهوب فالساحر لا يحصل له ذلك وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر والسحر محرم في الكتاب والسنة والإجماع وذلك أن النجوم التي من السحر نوعان أحدهما علمي وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالازلام والثاني عملي وهو الذي يقولون إنه القوى السماوية بالقوى المنفصلة الأرضية كالطلاسم ونحوها وهذا من أرفع أنواع السحر وكل ما حرمه الله ورسوله فضره أعظم من نفعه فالثاني وأن توهم المتوهم أن فيه تقدمة للمعرفة بالحوادث وأن ذلك ينفع فالجهل في ذلك أضعف ومضرة ذلك أعظم من منفعته ولهذا قد علم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التي يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق وهم في ذلك من نوع الكهان وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له إن منا قوما يأتون الكهان فقال إنهم ليسوا بشيء فقالوا يا رسول الله انهم يحدثونا أحيانا بالشيء فيكون حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة من الحق يسمعها الجني فيقرها في أذن وليه وأخبر أن الله إذا قضى بالأمر ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وأن كل أهل سماء يخبرون أهل السماء التي تليهم حتى ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا وهناك مسترقة السمع بعضهم فوق بعض فربما سمع الكلمة قبل أن يدركه الشهاب بعد أن يلقيها قال صلى الله عليه وسلم فلو أتوا بالأمر على وجهه ولكن يزيدون في الكلمة مائة كذبة وهكذا المنجمون حتى أني لما خاطبتهم بدمشق وحضر عندي رؤساؤهم وبينت فساد صناعتهم بالأدلة العقلية التي يعترفون بصحتها قال لي رئيس منهم و الله إنا نكذب مائة كذبة حتى نصدق في كلمة وذلك أن مبني علمهم على أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذي لا يتخلف عنه حكمه وهؤلاء أكثر ما يعلمون إن علموا جزءا يسيرا من جملة الأسباب الكثيرة ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع مثل من يعلم أن الشمس في الصيف تعلق الرأس حتى يشتد الحر فيريد أن يعلم من هذا مثلا أنه حينئذ أن العنب الذي في الأرض الفلانية يصير زيبيا على أن هنالك عنبا وأنه ينضج وينشره صاحبه في الشمس وقت الحر فينزيب وهذا وإن كان يقع كثيرا لكن أخذ هذا من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون وقد يثمر ذلك الشجر إن خدم وقد لا يثمر وقد يؤكل عنبا وقد يعصر وقد يسرق وقد يزبب وأمثال ذلك والأدلة الدالة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة ليس هذا موضعها وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أتى عرافا فسأله عن شيء لم يقبل الله له صلاة أربعين يوما والعراف قد قيل إنه اسم عام للك والمنجم لرمال ونحوهم ممن يتكلم في تقدمة المعرفة بهذه الطرق ولو قيل إنه في اللغة اسم لبعض هذه الأنواع فسائر ما يدخل فيه بطريق العموم المعنوي كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوهما وأما إنكار بعض الناس أن يكون شيء من حركات الكواكب وغيرها من الأسباب فهو أيضا قول بلا علم وليس له في ذلك دليل من الأدلة الشرعية ولا غيرها بل النصوص تدل على خلاف ذلك كما في الحديث الذي في السنن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال يا عائشة تعوذني ب الله من شر هذا فهذا الغاسق إذا وقب كما تقدم في حديث الكسوف حيث أخبر أن الله يخوف بهما عباده وقد تبين أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم

لا يخسفن لموت أحد ولا لحياته أي لا يكون الكسوف معللا بالموت فهو نفي العلة الفاعلة كما في الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن ابن عباس عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذا رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية فقالوا كنا نقول ولد الليلة عظيم أو مات عظيم فقال إنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن الله إذا قضى بالأمر تسبح حملة العرش وذكر الحديث في مسترقة السمع فنفي النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون الرمي بها لأجل أنه قد ولد عظيم أو مات عظيم بل لأجل الشياطين المسترقين السمع ففي كلا الحديثين أن موت بعض الناس وحياتهم لا يكون سببا لكسوف الشمس والقمر ولا للرمي بالنجوم وإن كان موت بعض الناس قد يقتضي حدوث أمر في السموات كما ثبت في الصحاح أن العرش عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ وأما كون الكسوف وغيره قد يكون سببا لحدث في الأرض من عذاب يقتضي موتا أو غيره فهذا قد أثبتته الحديث نفسه وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لا ينافي لكون الكسوف له وقت محدود يكون فيه حيث لا يكون كسوف الشمس إلا في آخر الشهر ليلة السرار ولا يكون خسوف القمر إلا في وسط الشهر ليالي الإبدار ومن ادعى خلاف ذلك من المتفهمة أو العامة فلعدم علمه بالحساب ولهذا تمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل كما تمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب كما قال تعالى { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا } { الأنعام 96 } { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ } { الرحمن 5 } وقال تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } { يونس 5 } وقال قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل يظن أن خبره عن الحوادث من هذا النوع فإن هذا جهل إذ الخبر الأول بمنزلة إخباره بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين وإما ليلة إحدى وثلاثين فإن هذا أمر أجرى الله به العادة لا يخرم أبدا وبمنزلة خبره أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك فمن عرف منزلة الشمس والقمر ومجاريهما علم ذلك وإن كان ذلك علما قليل المنفعة فإذا كان الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب وغيره لمن يعذب الله في ذلك الوقت أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك كما أن تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب وهو آخر الشتاء كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصاص الأنبياء وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى مخيطة وهو السحاب الذي يخال فيه المطر أقبل وأدبر وتغير وجهه فقالت له عائشة إن الناس إذا رأوا مخيطة استبشروا فقال يا عائشة وما يؤمنني قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا قال الله { بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } { الأحقاف 24 } وكذلك الأوقات التي ينزل الله فيه الرحمة كالعشر الأواخر من رمضان والأولى لا يوجب ما ذكر بل ما علم حقيقة تأثيره فيه مثل حال الوالدين وحال البلد الذي هو فيه فإن ذلك سبب محسوس في أحوال المولود ومع هذا فليس هذا مستقلا ثم إن الأوائل من هؤلاء المنجمين المشركين الصابئين وأتباعهم قد قيل إنهم كانوا إذا ولد لهم المولود أخذوا طالع المولود وسمو المولود باسم يدل على ذلك فإذا كبر سئل عن اسمه أخذ السائل حال الطالع فجاء هؤلاء الطريقة يسألون الرجل عن اسمه واسم أمه ويزعمون أنهم يأخذون من ذلك الدلالة على أحواله وهذه ظلمات بعضها فوق بعض منافية للعقل والدين وأما اختياراتهم وهو أنهم يأخذون الطالع لما يفعلونه من الأفعال مثل اختيارهم للسفر أن يكون القمر في شروقه وهو السرطان وأن لا يكون في هبوطه وهو العقرب فهو من هذا الباب المذموم ولما أراد علي بن أبي طالب أن يسافر لقتال الخوارج عرض له منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تسافر فإن القمر في العقرب فإنك إن سافرت والقمر في العقرب هزم أصحابك أو كما قال فقال علي بل نسافر ثقة ب الله وتوكلا على الله وتكديبا لك فسافر فبورك له في ذلك السفر حتى قتل عامة الخوارج وكان ذلك من أعظم ما سر به حيث كان قتاله لهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأما ما يذكره بعض الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تسافر والقمر في العقرب فكذب مختلق باتفاق أهل الحديث وأما قول القائل إنها صنعة إدريس فيقال أولا هذا قول بلا علم فإن مثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح ولا سبيل لهذا القائل إلى ذلك ولكن في كتب هؤلاء هرمس ويزعمون أنه هو إدريس والهرمس عندهم اسم جنس ولهذا يقولون هرمس الهرامسة وهذا القدر الذي يذكرونه عن هرمسهم يعلم المؤمن قطعا أنه ليس هو مأخوذا عن نبي من الأنبياء على وجهه لما فيه كل من الكذب والباطل ويقال ثانيا إن هذا إن كان مأخوذا عن إدريس فإنه كان معجزة له وعلما أعطاه الله إياه فيكون من العلوم النبوية وهؤلاء ما يحتجون عليه بالتجربة والقياس لا بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويقال ثالثا إن كان بعض هذا مأخوذا عن نبي فمن المعلوم قطعا ان فيه من الكذب والباطل أضعاف ما هو مأخوذ عن ذلك النبي ومعلوم قطعا ان الكذب والباطل الذي في ذلك أضعاف الكذب والباطل الذي عند اليهود والنصارى فيما يأترونه عن الأنبياء وإذا كان

اليهود والنصارى قد تيفنا قطعاً أن أصل دينهم مأخوذ عن المرسلين وأن الله أنزل التوراة والإنجيل والزيور كما أنزل القرآن وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بما أنزل علينا وما أنزل على من قبلنا كما قال تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 ثم مع ذلك قد أخبرنا الله أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وكذبوا وكتبوا فإذا كانت هذه حال الوحي المحقق والكتب المنزلة يقينا مع أنها أقرب إلينا عهداً من إدريس ومع أن نقلتها أعظم من نقلة النجوم وأبعد عن تعمد الكذب والباطل وأبعد عن الكفر ب الله ورسوله واليوم الآخر فما الظن بهذا القدر إن كان فيه ما هو منقول عن إدريس فإننا نعلم ان فيه من الكذب والباطل والتحريف أعظم مما في علوم أهل الكتاب وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا ب الله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون فإذا كنا مأمورين فيما يحدثنا به أهل الكتاب أن لا نصدق إلا بما نعلم أنه الحق كما لا نكذب إلا بما نعلم أنه باطل فكيف يجوز تصديق هؤلاء فيما يزعمون أنه منقول عن إدريس عليه السلام وهم في ذلك أبعد عن علم الصدق من أهل الكتاب ويقال رابعا لا ريب أن النجوم نوعان حساب وأحكام فأما الحساب وهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب وصفاتها ومقادير حركاتها وما يتبع ذلك فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه كمعرفة الأرض وصفاتها ونحو ذلك لكن جمهور الدقيق منه كثير التعب قليل الفائدة كالعالم مثلا بمقادير الدقائق والثواني والثالث في حركات السبعة المتحيرة الخس الجواري الكنس فإن كان أصل هذا مأخوذاً عن إدريس فهذا ممكن والله أعلم بحقيقة ذلك كما يقول ناس إن أصل الطب مأخوذ عن بعض الأنبياء وأما الأحكام التي هي من جنس السحر فمن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحرا وهم يذكرون أنواعا من السحر ويقولون هذا يصلح لعمل النواميس أي الشرائع والسنن ومنها ما هو دعاة الكواكب وعبادة لها وأنواع من الشرك الذي يعلم كل من آمن ب الله ورسله بالاضطرار أن نبيا من الأنبياء لم يأمر بذلك ولا علمه وإضافة ذلك إلى بعض الأنبياء كإضافة من أضاف ذلك إلى سليمان عليه السلام لما سخر الله له الجن والإنس والطيور فزعم قوم أن ذلك كان بأنواع من السحر حتى إن طوائف من اليهود والنصارى لا يجعلونه نبيا بل حكيماً فزعمه الله عن ذلك وقال تعالى {وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} البقرة 102 إلى آخر الآية وكذلك أيضا الاستدلال على الحوادث بما يستدلون به من الحركات العلوية أو الاختيارات للأعمال هذا كله يعلم قطعاً أن نبيا من الأنبياء لم يأمر قط بهذا إذ فيه من الكذب والباطل ما ينزه عنه العملاء الذين هم دون الأنبياء بكثير وما فيه من الحق فهو شبيه بما قال إمام هؤلاء ومعلمهم الثاني أبو نصر الفارابي قال ما مضمونه إنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت مكان السعد نحسا و مكان النحس سعدا أو مكان الحار باردا و مكان البارد حارا أو مكان المذكر مؤنثا و مكان المؤنث مذكرا وحكمت لكان حكمك من جنس أحكامهم يصيب تارة ويخطيء أخرى وما كان بهذه المثابة فهم ينزهون عنه بقراط وأفلاطون وأرسطو وأصحابه الفلاسفة المشائين الذين يوجد في كلامهم من الباطل والضلال أعظم مما يوجد في كلام اليهود والنصارى فإذا كانوا ينزهون عنه هؤلاء الصابئين وأنبياءهم الذين هم أقل مرتبة وأبعد عن معرفة الحق من اليهود والنصارى فكيف يجوز نسبته إلى نبي كريم ونحن نعلم من أحوال أمتنا أنه قد أضيف إلى جعفر الصادق وأليس هو بنبي من الأنبياء من جنس هذه الأمور ما يعلم كل عالم بحال جعفر رضي الله عنه أن ذلك كذب عليه فإن الكذب عليه من أعظم الكذب حتى ينسب إليه أحكام الحركات السفلية كاختلاج الأعضاء وجواذب الجو من الرعد والبرق والهالة وقوس الله الذي يقال له قوس قزح وأمثال ذلك والعلماء يعلمون أنه بريء من ذلك كله وكذلك ينسب إليه الجدول الذي تبنى عليه الضلال طائفة من الرافضة وهو كذب مفتعل عليه افتعله عليه عبد الله بن معاوية أحد المشهورين بالكذب مع رياسته وعظمته عند أتباعه وكذلك أضيف إليه كتاب الجفر و البطاقة و الهفت وكل ذلك كذب عليه باتفاق أهل العلم به حتى أضيف إليه رسائل إخوان الصفا وهذا في غاية الجهل فإن هذه الرسائل إنما وضعت بعد موته بأكثر من مائتي سنة فإنه توفي سنة ثمان وأربعين ومائة وهذه الرسائل وضعت في دولة بني بويه في أثناء المائة الرابعة في أوائل دولة بني عبيد الذين بنو القاهرة وضعها جماعة وزعموا أنهم جمعوا بها بين الشريعة والفلسفة فضلوا وأضلوا وأصحاب جعفر الصادق الذين أخذوا عنه العلم كمالك بن أنس وسفيان في عبينة وأمثالهما من الأئمة أئمة الإسلام براء من هذه الأكاذيب وكذلك كثير مما يذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب حقائق التفسير عن جعفر من الكذب الذي لا يشك في كذبه أحد من أهل المعرفة بذلك وكذلك كثير من المذاهب الباطلة التي تحكيها عنه الرافضة وهي من أبين الكذب عليه وليس في فرق الأمة أكثر كذبا واختلاقا من

الرافضة من حين تبعوا إلى أول من ابتدع الرفض وكان منافقا زنديقا يقال له عبد الله بن سبأ فأراد بذلك فساد دين المسلمين كما فعل بولص صاحب الرسائل التي بأيدي النصارى حيث ابتدع لهم بدعا أفسد بها دينهم وكان يهوديا فأظهر النصرانية نفاقا لقصد إفسادها وكذلك كان ابن سبأ يهوديا فقصد ذلك وسعى في الفتنة لقصد إفساد الملة فلم يتمكن لكن حصل بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها عثمان رضي الله عنه وجرى من الفتنة ولم يجمع الله والله الحمد هذه الأمة على ضلالة بل لا تزال فيها طائفة قائمة بالحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة كما تشهد بذلك النصوص المستفيضة في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم¹

{ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ }

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18

لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله { الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 37 وقوله { وَخَذُوا حذرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ آعدٌ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 102 وقوله { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 151 وقوله { فَبَاؤُوا بَعْضَ عَلَى بَعْضٍ وَكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } البقرة 90 { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } آل عمران 178 { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الحج 57 { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الجاثية 9 { وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 5 { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 16 { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } النساء 14 فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله { لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } الأنفال 68 وقوله { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النور 14 وفي المحارب { ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } المائدة 33 وفي القاتل { وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } النساء 93 وقوله { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 94 وقد قال سبحانه { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزي وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان²

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله بكرمه وفيهم من يهينه قال تعالى { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات 13 وقال تعالى { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل و إياك و كرائم أموالهم و اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب و كرائم الأموال التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها و انتفاعهم بها من الأنعام وغيرها³

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 386-398 و مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 168-182

² الصارم المسلول ج: 2 ص: 112 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 459 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 368

³ مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 295

الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان

قال تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ {19} يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ {20} وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ {21} كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {22} إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ {23} الحج 19-23 يعني أهل الإيمان والكفر وقد يكون المختلفون كلهم على باطل¹

أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا لَوْ مَا أَفْتَنَّا لَوْ {البقرة 253 فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ {الحج 19²

والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان أحدهما أنه يذم الطائفتين جميعا كما في قوله (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ {119} هود 118-119 فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وأما القسم الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم فيه الأخرى مثل قوله { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ {19} يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ {20} وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ {21} كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {22} إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ {23} الحج 19-23 الآية مع ما ثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنها نزلت في المقتلين يوم بدر علي وحمزة وعبيدة بن الحرث والذين بارزوه من قريش وهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول وكذلك آل إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك³

{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ {19} يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ {20} وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ {21} كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {22} إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ {23} الحج 19-23 فإن بنى هاشم أفضل قريش وقريشا أفضل العرب والعرب أفضل بنى آدم كما صح ذلك عن النبي مثل قوله في الحديث الصحيح إن الله إصطفى من ولد إبراهيم بنى إسماعيل وإصطفى كنانة من بنى إسماعيل وإصطفى قريشا من بنى كنانة وإصطفى بنى هاشم من قريش وإصطفاني من بنى هاشم وفي صحيح مسلم عنه أنه قال يوم غدیر خم أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي وفي السنن أنه شكاه إليه العباس إن بعض قريش يحقرونهم

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 258

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 267-268

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 40

فقال والذي نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم الله ولقرايتى وإذا كانوا أفضل الخلق فلا ريب أن أعمالهم أفضل الأعمال وكان أفضلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا عدل له من البشر ففاضلهم أفضل من كل فاضل من سائر قبائل قريش والعرب بل ومن بنى إسرائيل وغيرهم ثم على وحمزة وجعفر وعبيدة بن الحارث هم من السابقين الأولين من المهاجرين فهم أفضل من الطبقة الثانية من سائر القبائل ولهذا لما كان يوم بدر أمرهم النبى بالمبارزة لما برز عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فقال النبى قم يا حمزة قم يا عبيدة قم يا على فبرز إلى الثلاثة ثلاثة من بنى هاشم وقد ثبت فى الصحيح أن فيهم نزل قوله { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } الحج 19 الآية وإن كان فى الآية عموم¹

لفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته

قال تعالى { **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** } الحج 22 ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه فى الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل فى الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس فى عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما فى اللغة فأصله الرؤيا كما قال { **هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ** } مريم 98 والمقصود لفظ الذوق قال تعالى { **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** } النحل 112 فجعل الخوف والجوع مذوقا وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه ليس الجائع والخائف فشملة وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { **فَذُوقُوا الْعَذَابَ** } آل عمران 106 وقال تعالى { **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } الدخان 49 وقال تعالى { **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** } القمر 48 وقال { **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ** } الدخان 56 وقال تعالى { **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** } 24 { **إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا** } 25 { **النَّبَأُ 24- 25** } وقال { **وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } السجدة 21 وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضى ب الله ربا وبالاسلام ديننا وبمحمد نبيا فاستعمال لفظ الذوق فى إدراك الملائم والمنافر كثير²

قال تعالى { **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** } الحج 22 قال تعالى { **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** } النحل 112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة فى الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى { **وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ** } السجدة 21 وقال { **وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } فصلت 50 وقال { **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } الدخان 49 وقال { **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا** } الطلاق 9 وقال { **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ** } فاطر 37 وقال النبى ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديننا وبمحمد رسولا وفى بعض الادعية أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالشراب اذا كان باردا أو حارا يقال ذقت حره وبرده ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى الملمذ دل على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديننا وبمحمد

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 473

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

نبيا فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمل لفظ الذوق في النفي كما قال عن أهل النار {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} النبأ 24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} الدخان 56¹

أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِيَنَاسُفَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} الحج 23 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفائه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم²

الهدى في الآخرة ثواب الإهداء في الدنيا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 109- 111

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198- 199

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } {23} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ {24} {الحج 23-24} قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } التوبة 33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } {الحج 23}

قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهدى في الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } {23} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ {24} {الحج 23-24} وقال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } يونس 9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } يونس 9 كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } {الطور 21} على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى { أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } {22} مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } {23} الصافات 22-23 وقال { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } {الإسراء 72} وقال { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مَّيِّ هُدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى } {126} طه 123-126 وقال { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَكُفْمًا وَصُمًّا } {الإسراء 97} الآية فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار²

الله هو المستحق للمحامد الكاملة

قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } {23} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ {24} {الحج 23-24} أخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 146-174 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 424

ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {الحج 14} قوله تعالى { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } يوسف 82 وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال²

2- قال تعالى { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ } {الحج 15} ولفظ السماء في اللغة والقرآن اسم لكل ما علا فهو اسم جنس للعالي لا يتعين في شيء إلا بما يضاف إلى ذلك وقد قال { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } {الحج 15} وقال { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } {الأنعام 99} وقال { أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } {الملك 16} والمراد بالجميع العلو ثم يتعين هنا بالسقف ونحوه وهنا بالسحاب وهناك بما فوق العالم كله³

3- قال تعالى { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ } {15} { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } {16} {الحج 15-16} عامة الأسماء يتنوع مسماهها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {الفاتحة 6} والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {البقرة 2} والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } {الأعراف 43} وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {الأنعام 87} وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَذَا } {النحل 121} { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } {الشورى 13} وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } {التوبة 33} والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا⁴

4- قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } {الحج 17} وكذلك يسمى المحب المشتاق الذى صار حبه أقوى من العلاقة

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

³منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 442

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

صبا وحالة صباية وهو رقة الشوق وحرارته والصب المحب المشتاق وذلك لانصباب قلبه الى المحبوب كما ينصب الماء الجارى والماء ينصب من الجبل اى ينحدر فلما كان فى انحداره يتحرك حركة لا يرده شىء سميت حركة الصب صباية وهذا يستعمل فى المحبة المحمودة والمذمومة ومنه الحديث ان ابا عبيدة رضى الله عنه لما أرسله النبي فى سرية بكى صباية وشوقا الى النبي والصباية والصب متفقان فى الاشتقاق الاكبر والعرب تعاقب بين الحرف المعتل والحرف المضعف كما يقولون تقضى البازى وتقضض وصبا يصبو معناه مال وسمى الصبى صبيا لسرعة ميله قال الجوهرى والصبى أيضا من الشوق يقال منه تصابى وصبا يصبو صبوة وصبوا أى مال الى الجهل والفتوة واصبته الجارية وقد يستعمل هذا فى الميل المحمود على قراءة من قرأ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ} البقرة 62 بلا همزة فى قراءة نافع فانه لا يهمز الصابئين فى جميع القرآن وبعضهم قد حمده الله تعالى¹

5- قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} الحج 23 قوله تعالى {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} البقرة 25 فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف 82 وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال²

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 573

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

الحج 25-37

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {25} وَإِنَّا لَأَبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ {26} وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ {27} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ {28} ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ {29} ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ {30} حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {31} ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ {32} لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ {33} وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ {34} الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {35} وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَاعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {36} لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَاؤِهَا وَلَكِن يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِنُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ {37}

شرف الله الكعبة وعظمتها وجعلها محرمة

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {الحج 25} الكعبة فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك ومكة هي التي ربا الله لها الأولاد من حجاجها والقاطنين بها وذلك أن مكة هي التي أخرج عنها كل من أن أراد أن يخيفها ويخربها فلم تزل عزيمة مكرمة محرمة لم يهنها أحد من البشر قط بل أصحاب الفيل لما قصدوها عذبهم الله العذاب المشهور ولم تزل عامرة محجوجة من لدن إبراهيم الخليل بخلاف بيت المقدس فإنه قد أخرج مرة بعد مرة وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله وكذلك إخباره بإهانة كل من يناوبها قال تعالى { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {الحج 25}

وأما الكعبة فإن الله شرفها وعظمتها وجعلها محرمة فلم يمكن الله أحدا من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده بل لما قصدتها أهل الفيل عاقبهم الله العقوبة المشهورة كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ {1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ {2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ {3} تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ {4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ

مَأْكُولٍ {5} الفيل 1-5 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ} الحج 25 قال ابن مسعود رضي الله عنه لو هم رجل بعدن أبين أن يلحج في الحرم لأذاقه الله من عذاب أليم رواه الإمام أحمد في مسنده موقوفا ومرفوعا ومعلوم أن من أعظم الناس كفرا القرامطة الباطنية الذين قتلوا الحجاج وأقوهم في بئر زمزم وأخذوا الحجر الأسود وبقي عندهم مدة ثم أعادوه وجرى فيه عبرة حتى أعيد ومع هذا فلم يسلطوا على الكعبة بإهانة بل كانت معظمة مشرفة وهم كانوا من أكفر خلق الله تعالى وأما ملوك المسلمين من بني أمية وبني العباس ونوابهم فلا ريب أن أحدا منهم لم يقصد أهانة الكعبة لا نائب يزيد ولا نائب عبد الملك الحجاج بن يوسف ولا غيرهما بل كان المسلمين كانوا معظمين للكعبة وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير والضرب بالمنجنيق كان له لا للكعبة وي زيد لم يهدم الكعبة ولم يقصد إحراقها لا وهو ولا نوبه باتفاق المسلمين ولكن ابن الزبير هدمها تعظيما لها لقصد إعادتها وبنائها على الوجه الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكانت النار قد أصابت بعض ستائرهما فتفجر بعض الحجارة ثم إن عبد الملك أمر الحجاج بإعادتها إلى البناء الذي كانت عليه زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما زاد في طولها في السماء فأمره أن يدعه فهي على هذه الصفة إلى الآن وهذه مسألة اجتهد فابن الزبير ومن وافقه من السلف رأوا إعادتها إلى الصفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لعائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قرشا حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلت لها خلفا قال البخاري يعني بابا وعنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنقضت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها من الحجر وفي رواية في صحيح مسلم ولجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر وروى مسلم في صحيحه عن عطاء بن أبي رباح قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاه أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرتهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال يا أيها الناس أشيروا على في الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها أم أصلح ما وهي منها قال ابن عباس رضي الله عنهما فإني قد فرق لي فيها رأى أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجارا أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبير لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجده فكيف بيت ربكم إني مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت الثلاث أجمع أمره على أن ينقضها فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه قال ابن الزبير سمعت عائشة رضي الله عنها تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الناس حديث عهدم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع ولجعلت لها ما بين بابا يدخل الناس منه وباب يخرجون منه قال فأنما اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس قال فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر إليه الناس قال فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر إليه الناس فبنة عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل لها بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما ما زاد في طوله فأقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعادته إلى بنائه وعن عبد الله بن عبيد قال وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك ما أظن أبا خبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة رضي الله عنها ما كان زعم أنه سمعه منها قال الحارث بلى أنا سمعته منها قال سمعتها تقول ماذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حادثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد وعن الوليد بن عطاء عن الحارث في هذا الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم ولجعلت لها بابين موضعين بالأرض شرقيا وغربيا وهل تدريين لم كان قومك رفعوا بابها قالت قلت لا قال تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخلها دفعوه فسقط قال عبد الملك للحارث أنت سمعتها تقول هذا قال نعم فنكت ساعة بعصاه ثم قال وددت أني تركته وما تحمل وذكر البخاري عن يزيد بن رومان شهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسمنة الإبل فذكر الزيادة ستة أذرع أو نحوها قلت وابن عباس وطائفة أخرى رأوا إقرارها على الصفة التي كانت عليها

زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم أقرها كذلك ثم إنه لما قتل ابن الزبير رأى عبد الملك أن تعاد كما كانت لا اعتقاده أن ما فعله ابن الزبير لا مستند له فيه ولما بلغه الحديث ود أنه تركه فلما كانت خلافة الرشيد رحمه الله شاور مالك بن أنس في أن يفعل كما فعل ابن الزبير فأشار عليه مالك بن أنس أن لا يفعل ذلك وقيل عن الشافعي إنه رجح فعل ابن الزبير وكل من الأمراء والعلماء الذين رأوا هذا وهذا معظومون للكعبة مشرفون لها إنما يقصدون ما يرونه أحب إلى الله ورسوله وأفضل عند الله ورسوله ليس فيهم من يقصد إهانة الكعبة ومن قال إن أحدا من خلق الله قصد رمى الكعبة بمنجنيق أو عذرة فقد كذب فإن هذا لم يكن لا في الجاهلية ولا في الإسلام والذين كانوا كفارا لا يحترمون الكعبة كأصحاب الفيل والقرامطة لم يفعلوا هذا فكيف بالمسلمين الذين كانوا يعظمون الكعبة وأيضا فلو قدر والعياذ بالله أن أحدا يقصد إهانة الكعبة وهو قادر على ذلك لم يحتج إلى رميها بالمنجنيق بل يمكن تخريبها بدون ذلك كما تخرب في آخر الزمان إذا أراد الله أن يقيم القيامة فيخرب بيته ويرفع كلامه من الأرض فلا يبقى في المصاحف والقلوب قران ويبعث ريحا طيبة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى في الأرض خير من ذلك وتخريبها بأن يسلم عليها ذو السويقتين كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كأتي به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا وقال الله تعالى {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ} المائدة 97 قال ابن عباس رضي الله عنهما لو ترك الناس الحج سنة واحدة لما نوظروا وقال لو اجتمع الناس على أن لا يحجوا لسقطت السماء على الأرض ذكره الإمام أحمد في المناسك ولهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد إن الحج كل عام فرض على الكفاية والمنجنيق إنما يرمى به ما لا يقدر عليه بدونه كما رمى النبي صلى الله عليه وسلم أهل الطائف بالمنجنيق لما دخلوا حصنهم وامتنعوا فيه والذين حاصروا ابن الزبير لما استجار هو وأصحابه بالمسجد الحرام رموهم بالمنجنيق حيث لم يقدر عليهم بدونه ولما قتل ابن الزبير دخلوا بعد هذا إلى المسجد الحرام فطافوا بالكعبة وحج الحجاج بن يوسف ذلك العام بالناس وأمره عبد الملك بن مروان أن لا يخالف ابن عمر في أمر الحج فلو كان قصدهم بالكعبة شرا لفعلوا ذلك بعد أن تمكنوا منها كما أنهم لما تمكنوا من ابن الزبير قتلوه¹

لفظ الذوق في الكتاب والسنة مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر

قال تعالى {رَبِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلْمٍ يُدْفَعْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} الحج 25 ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما في اللغة فأصله الرؤيا كما قال {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ} مريم 98 والمقصود لفظ الذوق قال تعالى {فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} النحل 112 فجعل الخوف والجوع مذوقا وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى {فَذُوقُوا الْعَذَابَ} آل عمران 106 وقال تعالى {ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} الدخان 49 وقال تعالى {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} القمر 48 وقال {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ} الدخان 56 وقال تعالى {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} {24} {إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا} {25} النبأ 24-25 وقال {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} السجدة 21 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد نبيا فاستعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 576-585

² الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

الساكنون بمكة أحق بما احتاجوا إليه لأنهم سبقوا الى المباح

قال تعالى { **رَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِن عَذَابِ الْبِيمِ** } الحج 25 فمكة كونها أرض المشاعر التي يشترك في استحقاق الانتفاع بها جميع المسلمين كما قال الله تعالى { **سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ** } الحج 25 فالساكنون بها أحق بما احتاجوا إليه لأنهم سبقوا الى المباح كمن سبق الى مسجد أو طريق أو سوق و أما الفاضل فعليهم بذله¹

فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين و جعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك فكيف و مكة أقرها النبي صلى الله عليه و سلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها و مزارعها و لم يقسمها و لم يضرب عليها خراجا و لهذا قال من قال إنها فتحت صلحا و لا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن النبي صلى الله عليه و سلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله و لم يسب لهم ذرية و لا غنم لهم مالا و لهذا سماوا الطلقاء و أحمد و غيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى { **وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ** } الحج 25 و هذه هي العلة التي إختصت بها مكة دون سائر الأمصار فإن الله أوجب حجها على جميع الناس و شرع إعتماها دائما فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال { **سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ** } الحج 25 و لهذا كانت منى و غيرها من المشاعر من سبق الى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمسجد و مكة نفسها من سبق الى مكان فهو أحق به و الإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجا إليه و ما إستغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج و غيرهم و لهذا كانت الأقوال في إجارة دورها و بيع رباعها ثلاثة قبل لا يجوز لا هذا و لا هذا و قيل يجوز الأمان و الصحيح أنه يجوز بيع رباعها و لا يجوز إجارتها و على هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم و عن الصحابة رضى الله عنهم فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها و الدور تورث و توهب و إذا كانت تورث و توهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فإنه لا يباع و لا يورث و لا يوهب²

مسائل فقهية

1- الحج فيه ثلاثة أطوفة

قال تعالى { **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26 فإن الحج فيه ثلاثة أطوفة طواف عند الدخول و هو يسمى طواف القدوم و الدخول و الورود و الطواف الثاني هو بعد التعريف و يقال له طواف الإفاضة و الزيارة و هو طواف الفرض الذي لا بد منه كما قال تعالى { **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } الحج 29 و الطواف الثالث هو لمن أراد الخروج من مكة و هو طواف الوداع³

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 212

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 490-491

³مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 127

2- السنة لكل طائف أن يصلي ركعتين خلف المقام

قال تعالى { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 في رواية عبد الله إن قدر على الحجر استلمه وإلا إذا حاذاه كبر ورفع يده ومضى وقال ثم يصلي ركعتين خلف المقام هذه السنة لكل طائف أسبوعاً أن يصلي بعده ركعتين لقوله سبحانه قال تعالى { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 وعن ابن عمر قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ثم خرج إلى الصفا وقد قال الله عز وجل { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } الأحزاب 21 متفق عليه وعن عبد الله بن أبي أوفى قال اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ومعه من يستتره من الناس فقال له رجل أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة قال لا رواه البخاري وهذا في عمرة القضية¹

3- الفرق بين الصلاة والطواف

أن الطواف يشبه الصلاة من بعض الوجوه وليس كالصلاة من كل الوجوه والحديث الذي رواه النسائي عن ابن عباس عن النبي انه قال الطواف بالبيت صلاة الا ان الله أباح فيه الكلام فمن تكلم فيه فلا يتكلم الا بخير قد قيل انه من كلام ابن عباس وسواء كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم او كلام ابن عباس ليس معناه انه نوع من الصلاة كصلاة الجمعة والاستسقاء والكسوف فإن الله قد فرق بين الصلاة والطواف بقوله تعالى { طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 وقد تكلم العلماء ايما افضل للقيام الصلاة او الطواف وأجمع العلماء على ان النبي طاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وسائر العلماء بالفرق بين مسمى الصلاة ومسمى الطواف متواترة فلا يجوز ان يجعل نوعا من الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم قال الصلاة مفتاحها الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم والطواف ليس تحريمه التكبير وتحليله التسليم وقد تنازع السلف ومن بعدهم في وجوب الوضوء من الحدث له والوضوء للصلاة معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ومن انكره فهو كافر ولم ينقل شيء عن النبي في وجوب الوضوء له ومنع الحائض لا يستلزم منع المحدث وتنازع العلماء في الطهارة من الحيض هل هي واجبة فيه او شرط فيه على قولين فيه ولم يتنازعوا في الطهارة للصلاة انها شرط فيها وأيضا فقد قال النبي لا صلاة الا بأمر القرآن والقراءة فيه ليست واجبة باتفاق العلماء بل في كراهتها قولان للعلماء وأيضا فإنه قد قال ان الله يحدث من أمره ما شاء ومما احدث ان لا تكلموا في الصلاة فنهى عن الكلام في الصلاة مطلقا والطواف يجوز فيه من الكلام ما لا يجوز في غيره وبهذا يظهر الفرق بينه وبين صلاة الجنابة فان لها تحريما وتحليلا ونهى فيها عن الكلام وتصلى بامام وصفوف وهذا كله متفق عليه والقراءة فيها سنة عن النبي وهذا أصح قولى العلماء²

4- الطواف بالبيت افضل من العمرة لمن كان بمكة

¹ شرح العمدة ج: 3 ص: 447-449

² مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 193

فأما كون الطواف بالبيت افضل من العمرة لمن كان بمكة فهذا مما لا يستريب فيه من كان عالما بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه وأثار الصحابة وسلف الأمة وأئمتها وذلك تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وهو من أعظم عبادة اهل مكة أعنى من كان بمكة مستوطنا او غير مستوطن ومن عباداتهم الدائمة الراتبة التي امتازوا بها على سائر اهل الأمصار وما زال اهل مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه واصحابه رضي الله عنهم يطوفون بالبيت في كل وقت ويكثرون ذلك وكذلك امر النبي صلى الله عليه وسلم ولادة البيت ان لا يمنعوا احدا من ذلك في عموم الأوقات فروى جبير بن مطعم ان النبي قال لا يا بني عبد مناف لا تمنعوا احدا طاف بهذا البيت وصلى فيه أية ساعة شاء من ليل او نهار رواه مسلم في صحيحه وسائر اهل السنن كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم وقد قال تعالى لخليله إمام الحنفاء الذي امره ببناء البيت ودعا الناس الى حجة { طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 وفي الآية الأخرى والقائمين { وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 فذكر ثلاثة انواع الطواف والعكوف والركوع مع السجود وقدم الأخص فالأخص فان الطواف لا يشرع الا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين ولهذا اتفقوا على تضليل من يطوف بغير ذلك مثل من يطوف بالصخرة او بحجرة النبي او بالمسجد المبنية بعرفة او منى او غير ذلك او بقبر بعض المشائخ او بعض اهل البيت كما يفعله كثير من جهال المسلمين فان الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتفاق المسلمين بل من اعتقد ذلك دينا وقربة عرف ان ذلك ليس بدين باتفاق المسلمين وان ذلك معلوم بالضرورة من دين الاسلام فإن اصر على اتخاذه دينا قتل وأما الاعتكاف فهو مشروع في المساجد دون غيرها وأما الركوع مع السجود فهو مشروع في عموم الأرض كما قال النبي جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره وهذا كله متفق عليه بين المسلمين وان كان بعض البقاع تمنع الصلاة فيها لوصف عارض كنجاسة او مقبرة او حش او غير ذلك فالمقصود هنا انه سبحانه وتعالى قدم الأخص بالبقاع فالأخص فالأخص لأن البيت الحرام ثم العكوف لأنه يكون فيه وفي المساجد التي يصلى المسلمون فيها الصلاة المشروعة وهي الصلوات الخمس جماعة ثم الصلاة لأن مكانها أعم ومن خصائص الطواف انه مشروع بنفسه منفردا او في ضمن العمرة وفي ضمن الحج وليس في اعمال المناسك ما يشرع منفردا عن حج وعمرة الا الطواف فان اعمال المناسك على ثلاث درجات منها ما لا يكون الا في حج وهو الوقوف بعرفة وتوابعه من المناسك التي بمزدلفة ومنها ما لا يكون الا في حج او عمرة وهو الاحرام والاحلال والسعي بين الجبلين كما قال تعالى { إِنَّ الصَّعَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } البقرة 158 ومنها ما يكون في الحج وفي العمرة ويكون منفردا وهو الطواف والطواف ايضا هو اكثر المناسك عملا في الحج فانه يشرع للقادم طواف القدام ويشرع للحاج طواف الوداع وذلك غير الطواف المفروض طواف الافاضة الذي يكون بعد التعريف ويستحب ايضا الطواف في اثناء المقام بمنى ويستحب في جميع الحول عموما وأما الاعتمار للمكي بخروجه الى الحل فهذا لم يفعله احد عنى عهد رسول الله قط الا عائشة في حجة الوداع مع ان النبي لم يأمرها به بل أذن فيه بعد مراجعتها اياه كما سنذكره ان شاء الله تعالى فأما اصحابه الذين حجوا معه حجة الوداع كلهم من أولهم الى آخرهم فلم يخرج أحد منهم لا قبل الحجة ولا بعدها لا الى التنعيم ولا الى الحديبية ولا الى الجعرانة ولا غير ذلك لأجل العمرة وكذلك اهل مكة المستوطنين لم يخرج احد منهم الى الحل لعمرة وهذا متفق عليه معلوم لجميع العلماء الذين يعلمون سنته وشريعته¹

5- المشهور نصا ومذهبا ان الفرض لا يصح في الكعبة

و اما الصلاة في الكعبة فالنفل فيها اخف من الفرض فاذا صلى النافلة في جوف الكعبة صحت صلاته هذا هو المعروف والمشهور عن احمد واصحابه وحكي عنه رواية أنه لا يصح النفل فيها وحكي عنه أنه يصح ولا يستحب لما سيأتي في الفرض ووجه المذهب ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت كنت احب ان ادخل البيت واصل في فيه فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فادخلني الحجر فقال صلى في الحجر إذا اردت

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 249- 252

دخول البيت فانما هو قطعة من البيت رواه الخمسة الا ابن ماجه و صححه الترمذي و عن عثمان بن طلحة رضي الله عنه قال قال لي النبي صلى الله عليه و سلم اني كنت رايت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت ان امرك ان تخمرها فخرهما فانه لا ينبغي ان يكون في قبلة البيت شيء يلهي المصلي رواه احمد و أبو داود و عن سالم عن ابيه قال دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم البيت هو و اسامة بن زيد و بلال و عثمان بن طلحة فاغلقوا عليهم فلما فتحوا كنت أول من ولج فلقيت بلالا فسألته هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال نعم بين العمودين اليمانيين متفق عليه و في رواية للبخاري عن ابن عمر أنه كان إذا دخل الكعبة جعل الباب قبل ظهره و مشى حتى إذا كان بينه و بين الجدار الذي قبل وجهه قريبا من ثلاثة اذرع صلى يتوخى المكان الذي اخبره بلال ان النبي صلى الله عليه و سلم صلى فيه و في رواية لأحمد و البخاري أنه قال لبلال هل صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم في الكعبة قال نعم بين السارين اللتين عن يسارك اذا دخلت ثم خرج فصلى في وجه الكعبة ركعتين و في رواية متفق عليها قال جعل عمودا عن يمينه و عمودا عن يساره و ثلاثة اعمدة وراءه و كان البيت يومئذ على ستة اعمدة ثم صلى و في رواية متفق عليها و نسيت ان اساله كم صلى و هي اصح فلعل ابن عمر فيما بعد علم أنه صلى ركعتين و عن عبد الرحمن بن صفوان قال قلت لعمر بن الخطاب كيف صنع رسول الله صلى الله عليه و سلم حين دخل الكعبة قال صلى ركعتين رواه أبو داود و عن ابن عمر و أبي جعفر عن اسامة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى في الكعبة رواه احمد و عن عثمان بن طلحة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه و سلم صلى في البيت ركعتين و جاهك حيث تدخل بين السارين رواه احمد فقد امر صلى الله عليه و سلم عائشة بالصلاة في البيت و صلى هو في البيت و امر بصون البيت عما يلهي المصلي فيه فعلم ان الصلاة فيه جائزة و أنه موضع للصلاة و قوله في الحديث الماضي و ظهر بيت الله الحرام دليل على أنه باطنه ليس من مواضع النهي فان قيل فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما دخل النبي صلى الله عليه و سلم البيت دعا في نواحيه كلها و لم يصل حتى خرج منه متفق عليه و في رواية عن ابن عباس عن اسامة نحو ذلك رواه احمد و مسلم قيل اما دخول النبي صلى الله عليه و سلم الكعبة و الصلاة فيها فقد ثبت على وجه لا يمكن دفعه و كان ذلك عام الفتح قال ابن عمر اقبل النبي صلى الله عليه و سلم عام الفتح و هو مردف اسامة على القصواء و معه بلال و عثمان ذكر الحديث اخرجاه و أما حديث ابن عباس فربما ظن أنه كان في حجة الوداع و ان النبي صلى الله عليه و سلم حينئذ لم يصل فيها الا أنه قد روي فيه عن ابن عباس ما يدل على أنه اراد دخوله عام الفتح ايضا فان لم يكن حديث ابن عمر و حديث ابن عباس في وقتين متغايرين و الا فحديث ابن عمر هو الصواب لانه مثبت عن بلال شيئا شاهده و عاينه و المثبت اولى من النافي و لأن ابن عباس لم يدخل معهم بل كان اذ ذلك صغيرا له نحو عشر سنين و إنما روى الحديث عن اسامة و قد روى غيره عن اسامة خلافه فان لم يكونا واقعتين فلعل اسامة كان مشغولا بدعاء و ابتهاج حين دخول البيت في بعض نواحيه فلم ير النبي صلى الله عليه و سلم يصل في لا سيما و الباب موجف عليهم ثم لعله بعد ذلك اخبره اسامة أو عثمان ان النبي صلى الله عليه و سلم صلى فيه فصل و لا بد ان يكون بين يديه شيء من الكعبة في حال قيامه و ركوعه و سجوده فلو سجد على منتهى السطح أو على عتبة الباب لم تصح صلاته لانه لم يستقبل شيئا من القبلة بل هو مصل إلى غير الكعبة فان كان الذي بين يديه ليس بشاخص مثل أن يصلي إلى الباب و هو مفتوح وليست له عتبة شاخصة أو يصلي على السطح و لا سترة امامه لم تصح صلاته في المنصوص من الوجهين قال في رواية الاثرم إذا صلى فوق الكعبة فلا تجوز صلاته و قال في رواية ابن الحارث لا يصلي فوق بيت الله الحرام و قال في رواية الاثرم اما فوق الكعبة فلم يختلفوا أنه لا يجوز و احتج بالحديث لا قبلة له و هذا اختيار الامدي و ابن عقيل و حكي ذلك عن القاضي و عامة اصحابنا و في الثاني تصح و هو اختيار جماعة من المتأخرين و هو الذي ذكره القاضي في المجرى فانه قال تجوز الصلاة النافلة فيها إذا توجه إلى غير الباب و ان توجهه إلى الباب و هو مغلق أو مردودا اجزاه و ان كان مفتوحا و كان بين يديه من عرصة البيت جاز و ان لم يكن لم يجز قال و ان انهدم البيت و بقية العرصة و لم يبق هناك منها شيء شاخص عن وجه الارض و صلى بناحية العرصة متوجها اليها اجزاه و ان وقف على العرصة لم تجزئه الفريضة و ان كانت نافلة و لم يكن بين يديه شيء منها كأن وقف اخرها متوجها إلى غيرها لم تجزه و ان وقف على العرصة و بين يديه منها ما يتوجه اليه و سجد اجزاه قال و لا تجوز الفريضة على ظهر الكعبة و تجوز صلاة النافلة إذا كان بين يديه شيء منها فان لم يكن بين يديه شيء منها كأن وقف على السطح بحيث لا يكون بين يديه شيء من ارض السطح لم يجزه الا ان يكون بين يديه شيء منصوب بناء أو خشبة مسمرة فان كان فوقه لبن أو اجر معبا بعضه على بعض أو خشبة معروضة غير مسمرة لم تجزه لانه ليس من البيت بدليل أنه لا يتبعه

في البيع و كذلك لو كان حبل ممدود فهذا يبين ان القاضي إنما اشترط البناء الشاخص في موضع لم يكن بين يديه شيء من العرصة و ان المشروط عنده أحد امرين شيء من أرض السطح أو البناء كما أنه في الصلاة إلى الباب اعتبر أحد أمرين إما اما كون الباب سترة له أو كون شيء من العرصة بين يديه و هذا ايضاح و تبين لانه يلزم من كون الباب و السترة بين يديه ان يكون بين يديه شيء من العرصة و وجه ذلك ان الواجب استقبال هوائها دون بنائها بدليل المصلي على أبي قبيس و غيره من الجبال العالية فانه إنما يستقبل الهواء لا البناء بدليل ما لو انتقضت الكعبة و العياد بالله فانه يكفي استقبال العرصة و الهواء فعلى هذا إذا صلى في الحجر و هو مستدبر البناء أو مستقبل الممر و قلنا ان استقبال الحجر جائز فيجب ان يجزئه و فيه قبح و الأول اصح لما تقدم من الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال سبعة مواطن لا تجوز الصلاة فيها و عد منها فوق ظهر بيت الله و في لفظ ظاهر بيت الله و عن عمر رضي الله عنه أنه نهى عن الصلاة على ظهر الكعبة ذكره القاضي فلو لم تجب الصلاة إلى شيء شاخص مرتفع لم يكن بين ظاهر بيت الله و باطنه فرق بل هذا نص في منع الصلاة فوق ظهر بيت الله و لا يجوز ان يحمل على ما إذا سجد على منتهى الكعبة لأن الحديث عام في جميع المواضع التي فوق الظهر عموماً مقصوداً و هذه الصورة نادرة لا يجوز ان تقصد وحدها من مثل هذا العموم مع غير قرينة يبين بها مراد المتكلم فان هذا لو وقع كان تلبساً ثم ان هذه الصورة امرها ظاهر لا يخفى على أحد فلا تكاد تقصد بالبيان ثم ان مثل هذه الصورة تقع في الصلاة في جوف الكعبة إذا استقبل الباب مفتوحاً ثم أنه جميع المواضع التي ذكر أنه لا تجوز الصلاة فيها من المقبرة والحش والحمام لا يصلي في شيء منها كذلك ظهر الكعبة يجب ان لا يصلي في شيء منه و هذا ظاهر لمن تأمله و ايضاً فان هذا اجماع عن السلف كما حكاه احمد رضي الله عنه وكما سيأتي تقريره و ايضاً فقول النبي صلى الله عليه و سلم هذه القبلة و في حديث اخر استحلال الكعبة البيت الحرام قبلتكم احياء و امواتاً دليل على ان القبلة هو الشيء المبني هناك الذي يشار اليه و يمكن استحلاله و تسمى كعبة و بيتاً و ايضاً فان الله سبحانه قال { وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 و قال { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ } المائدة 97 فبين ان الطواف و الركوع و السجود إنما هو متعلق بالبيت و البيت أو الكعبة لا يكون اسماً الا للبناء فاما العرصة و الهواء فليس هو بيتاً ولا كعبة و ايضاً فلو كان استقبال هواء العرصة و الطواف به كافياً لم يجب بناء البيت و لم يحتج اليه فلما امر الله ابراهيم خليله ببناء بيته و بدعاء الناس إلى حجه حينئذ و كان من اشراط الساعة خراب هذه البنية علم ان دين الله منوط ببنيته تكون هناك و ان لا يكون وجودها و عدمها سواء وان هذه البنية إذا زالت زوالاً لا تعود بعده فقد اقترب الوعد الحق بما يكون من رفع كتاب الله المنزل من الصدور و المصاحف و قبض ارواح المؤمنين الذين هم اهل دين الله و ذلك دليل واضح أنه لا دين يقوم لله الا بوجود البنية المعظمة المكرمة المشرفة و ايضاً فان النبي صلى الله عليه و سلم سن لكل مصلي ان ينصب بين يديه شيئاً يصلي اليه و كره الصلاة إلى الهواء المحض فكيف تكون قبلة الله التي يجب استقبالها هواء محضاً و اما ما ذكره من الصلاة إلى أبي قبيس و نحوه فانما ذلك لأن بين يدي المصلي قبلة شاخصة مرتفعة و ان لم تكن مسامتة له فإن المسامتة غير مشروطة كما لم تكن مشروطة في الائتمام بالامام مع ان الماموم خلفه فكذلك المصلي على أبي قبيس خلف الكعبة و وراءها و ان كان اعلا منها و اما إذا زال بناء الكعبة فتقول بموجبه و أنه لا تصح الصلاة حتى ينصب شيئاً يصلي اليه لأن احمد جعل المصلي على ظهر الكعبة لا قبلة له فعلم أنه جعل القبلة الشيء الشاخص و كذلك قال الامدي ان صلى بازاء الباب و كان الباب مفتوحاً لم تصح الصلاة و ان كان مردوداً صحت الصلاة و ان كان الباب مفتوحاً و بين يديه شيء منصوب كالسترة صحت الصلاة لانه يصلي إلى جزء من البيت فان زال بنيان البيت و العياد بالله و صلى و بين يديه شيء صحت الصلاة و ان لم يكن بين يديه شيء لم تصح الصلاة و ان صلى على ظهر الكعبة الفرض لم تصح صلاته و ان صلى النفل و ليس بين يديه شيء لم تصح صلاته فان كان بين يديه شيء صحت صلاته و هذا من كلامه يدل على ان البناء لو ازيل لم تصح الصلاة الا ان يكون بين يديه شيء و إنما يعني به والله أعلم شيئاً شاخصاً كما قيده فيما إذا صلى إلى الباب و كذلك قوله في الصلاة على الظهر اذ لا يجوز ان يفرق بين الصلاة على الظهر و الصلاة على الباب و لانه علل ذلك بانه إذا صلى إلى سترة فقد صلى إلى جزء من البيت فعلم ان مجرد العرصة غير كاف و يدل على ذلك ما ذكره الازرق في اخبار مكة عن ابن جريج قال سمعت غير واحد من اهل العلم ممن حضر بناء ابن الزبير حين هدم الكعبة و بناها و ذكر الحديث إلى ان قال فما ترجلت الشمس حتى الصقها كلها بالارض من جوانبها جميعاً و كان هدمها يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة اربع و ستين و لم يقرب ابن عباس رضي الله عنه مكة حين هدمت الكعبة حتى فرغ منها و ارسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب و احعل عليها الستور حتى يطوف

الناس من ورائها و يصلون اليها ففعل ذلك ابن الزبير رضي الله عنه و ذكر الحديث و قد رواه مسلم في صحيحه عن عطاء في قصة ابن الزبير لما هدم البيت و اعاده على قواعد ابراهيم قال فنقضوه حتى بلغوا به الارض فجعل ابن الزبير اعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه و هذا من ابن عباس و ابن الزبير رضي الله عنهم دليل على ان القبلة التي يطاف بها و يصلى اليها لا بد ان تكون شيئا منصوبا شاخصا و ان العرصة ليست قبلة و لم ينقل ان احدا من السلف خالف ذلك و لا انكره نعم لو فرض أنه قد تعذر نصب شيء من الاشياء موضعها بان يقع ذلك اذا هدمها ذو السويقتين من الحبشة في اخر الزمان فهنا ينبغي ان يكتفي حينئذ باستقبال العرصة كما يكفي المصلي ان يخط خطا إذا لم يجد سترة فان قواعد ابراهيم كالخط و لانه فرض قد عجز عنه فيسقط بالتعذر كغيره من الفروض و لا يلزم من الاكتفاء بالعرصة عند استقبال البناء الاكتفاء بها عند القدرة على استقبال البناء لأن فرض استقبال القبلة يسقط بالعجز كالخائف و المحبوس بين حائطين و غيرهما و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم اذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم و لا يمتنع الصلاة في شيء من الاوقات و لا الطواف بالبيت لعدم البناء اصلا إذا تعذر في تلك الساعة الطواف و الصلاة إلى بناء كما لا يمتنع الصلاة لتعذر شيء من شروطها و اركانها و ذكر ابن عقيل و غيره من اصحابنا ان البناء إذا زالت صحت الصلاة إلى هواء البيت مع قولهم أنه لا يصلى على ظهر الكعبة و من قال هذا يفرق بانه إذا زال لم يبق هناك شيء شاخص مستقبل بخلاف ما إذا كان هناك قبلة تستقبل و لا يلزم من سقوط استقبال الشيء الشاخص إذا كان معدوما سقوط استقباله إذا كان موجودا كما فرقنا نحن بين حال امكان نصب شيء و حال تعذر ذلك و كما يفرق في سائر الشرائط بين حال الوجود و العدم و القدرة و العجز فاذا قلنا لا بد من الصلاة إلى شيء شاخص فانه يكفي شخوصه أنه شيء يسير كالعتبة التي للباب قاله ابن عقيل و قال أبو الحسن الامدي لا يجوز ان يصلى إلى الباب إذا كان إذا كان مفتوحا لكن إن كان بين يديه شيء منصوب كالسترة صحت الصلاة فعلى هذا لا يكفي ارتفاع العتبة و نحوها بل لا بد ان يكون مثل مؤخرة الرحل لانها السترة التي قدر بها الشارع القبلة المستحبة فلان تقدر بها القبلة الواجبة اولى ثم ان كانت السترة فوق السطح و نحوه بناء أو خشبة مسمرة و نحو ذلك مما يتبع في مطلق البيع لو كان في موضع مملوك جازت الصلاة إليه لأنه جزء من البيت وإن كان هناك لبن أو اجر بقي بعضه فوق بعض أو خشبة معروضة غير مسمرة أو حبل و نحو ذلك لم يكن قبلة فيما ذكره اصحابنا لانه ليس من البيت و يتوجه ان يكتفي في ذلك بما يكون سترة لانه شيء شاخص في هواء البيت فاشبهه ببناءه فان ذلك قبلة سواء اتصل بالعرصة أو لم يتصل بها و لأن البيت كان رضاما من الحجارة غير مبني مع كون الطواف به كان مشروعا و لأن حديث ابن عباس و ابن الزبير فيه دليل على الاكتفاء بكل ما يكون قبلة و سترة فان الخشب و الستور المعلقة عليها لا تتبع في مطلق البيع و اما صلاة الفرض في الكعبة حيث تصح صلاة النافلة ففيها روايتان احدهما انها كصلاة النافلة على ما تقدم من الاحاديث لأن الفرض و النفل مستويان في جميع الشرائط و الاركان الا ما استثنى من ذلك مثل القيام و الصلاة على الراحة في السفر حيث توجهت به و نحو ذلك فالتفريق بينهما في غير ذلك يحتاج إلى دليل و لأن الاستقبال الواجب في الفرض واجب في النفل على المقيم و لو لم يكن المصلي في البيت مستقبلا للقبلة لما صح فيها النفل ولأن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعائشة صلي في الحجر إذا اردت دخول البيت و لم يفرق و قال للسادن أنه لا ينبغي ان يكون في قبلة البيت شيء يلهي المصلي و لم يفرق و الرواية الثانية والمشهور نصا ومذهبا ان الفرض لا يصح في الكعبة لأن الله سبحانه قال { فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } البقرة 144 أي نحوه و تلقاه باجماع اهل العلم لأن الشطر له معنيان هذا احدهما و الآخر بمعنى النصف و ذلك المعنى ليس مرادا فتعين الاول و إذا كان الله قد فرض تولية الوجه نحو الكعبة و ذلك هو الصلاة اليها فالمصلي فيها ليس بمصل اليها لانه لا يقال لمن صلى في دار أو حانوت أنه مصل اليه و كذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما إنما امر الناس ان يصلوا إلى الكعبة و لم يؤمروا ان يصلوا فيها و لأن التوجه اليها إنما يكون باستقبالها كلها أي استقبال جميع ما يحاذيه منها فاذا استقبل بعضها فليس بموول وجهه إلى الكعبة بل إلى بعض ما يسمى كعبة و لانه إذا استقبل البعض و استدبر البعض فليس وصفه باستقبالها باولى من وصفه باستدبارها بل استدبار بعضها ينافي الاستقبال المطلق و لهذا قال ابن عباس لا تجعل شيئا من البيت خلفك ذكره احمد يبين هذا ان الله سبحانه امر بالطواف به كما امر بالصلاة اليه و إخراجها مخرجا واحدا في قوله تعالى { أَنْ طَهَّرَآ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 و قال تعالى { وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } الحج 29 كما قال تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } البقرة 149 ثم الطواف فيه لا يجوز فكذلك الصلاة فيه و لما وجب على الطائف ان يطوف به كله وجب على المصلي ان يستقبله كله و استقبال جميعه يحصل بان تكون القبلة كلها

امامه و ان خرج بعضها عن مسامته بدنه و محاذاته فان المطابقة ليس من معنى الاستقبال في شيء اذ لو كانت من معناه ما صح ان يستقبل الجسم الكبير للصغير و لا الصغير للكبير نعم لو خرج هو على مسامتتها ببعضه لم يكن مستقبلا لها فعلى هذا لا يصلي الفرض في الحجر نص عليه فقال لا يصلي في الحجر الحجر من البيت¹

6- " ما بين المشرق و المغرب قبلة كله الا عند البيت "

قال تعالى { **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26 مسألة فان كان قريبا منها لزمته الصلاة إلى عينها و ان كان بعيدا فالى جهتها و جملة ذلك ان الناس في القبلة على قسمين احدهما من يمكنه استقبال عين الكعبة و ذلك على ثلاثة اوجه احدها ان يكون بحيث يراها مثل أن يكون داخل المسجد أو خارجا عنه و هو ينظرها فعليه ان يستقبلها بجميع بدنه حتى لا يخرج شيء منه عنها و ان خرج شيء منه عنها لم تصح صلاته نص عليه الثاني ان يعلم ذلك لكونه من اهل البلد وقد نشأ فيه سواء كان بينه وبينها حوائل حادثة أو لم يكن فإنه من طال مقامه بمكان نم مكة علم أين تكون القبلة منه الثالث أن يخبره بذلك ثقة من أهل البلد لكونه غريبا أو بينه وبينها حائل و على الحائل من يخبره بذلك فإن الإخبار بالأخبار كالأخبار بدخول الوقت عن علم فإن هذا الخبر لا يدخله الخطا و جواز الكذب من الثقة غير ملتفت اليه في مثل هذا قال اصحابنا و حكم من كان بمدينة النبي صلى الله عليه و سلم حكم من كان بمكة لأن قبلته متيقنة الصحة لانه لا يقر على الخطا القسم الثاني البعيد فهذا فرضه الاستدلال و الاجتهاد لكن هل الواجب عليه طلب العين أو طلب الجهة على روايتين احدهما ان فرضه طلب العين فمتى غلب على ظنه أنه مستقبل العين اجزاه ذلك و ان تبين له أنه اخطأها فيما بعد ذلك أو انحراف عنها انحرافا يسيرا و هذا اختيار أبي الخطاب لأن الله سبحانه و تعالى قال { **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26 و قال { **جَعَلَ اللَّهُ الْكُعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ** } المائدة 97 و قد روى ابن عباس ان النبي صلى الله عليه و سلم دخل البيت ثم خرج فركع ركعتين في قبل الكعبة و قال هذه القبلة متفق عليه و في حديث اخر أنه عد الكبائر و ذكر منها استحلال الكعبة البيت الحرام قبلتكم احياء و امواتا و إذا كان نفس الكعبة هي القبلة فيجب عليه ان يستدل على قبلته بحسب الامكان و لا يكفي مجرد التوجه إلى جهتها لأن المستقبل لجهتها قد لا يكون مستقبلا لها و لانه مخاطب باستقبال الكعبة فوجب عليه ان يقصد عينها حسب الطاقة كالقريب و ذلك لانهما لا يفترقان في فرض استقبال الكعبة و إنما يفترقان في أن ذلك متيقن للصواب على التحديد و هذا مجتهد في الاصابة على التقريب و لأن المسافر يلزمه حين اشتباه الجهات تحري جهة الكعبة فكذلك العالم بجهة الكعبة يلزمه تحري جهة سمت الكعبة حسب الطاقة و ان كان على وجه التقريب والتخمين و على هذه الرواية متى تيامن أو تياسر عن صوب اجتهاده لم تصح صلاته لانه يغلب على ظنه أنه منحرف عن قبلته فاشبهه القريب بخلاف ما إذا توسط الجهة و تحرى نفس البيت و الرواية الثانية ما ذكره الشيخ رحمه الله ان فرضه اصابة الجهة فلو تيامن أو تياسر شيئا يسيرا و لم يخرج عن الجهة جاز و اكثر الروايات عن احمد تدل على هذا و لهذا انكر وجوب الاستدلال بالجدي و قال إنما الحديث ما بين المشرق و المغرب و هذا اختيار الخرقى و جماهير اصحابنا لأن الله سبحانه قال { **قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } البقرة 144 و المسجد الحرام اسم للحرم كله و شطره نحوه و اتجاهه فعلم ان الواجب تولية الوجه إلى نحو الحرم و النحو هو الجهة بعينها ثم قال بعد ذلك { **وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا** } البقرة 148 و الوجهة الجهة فعلم ان الواجب تولي جهة المسجد الحرام و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما بين المشرق و المغرب قبلة رواه ابن ماجه و الترمذي و قال حديث صحيح و روي ذلك من حديث أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه و سلم و روي ايضا مسندا من حديث ابن عمر و غيره و قال صلى الله عليه و سلم لا تستقبلوا القبلة بغائط و لا بول و لا تستدبروها و لكن شرقوا أو غربوا و هذا بيان لأن ما سوى التشريق و التغريب استقبال للقبلة أو استدبار لها و هذا خطاب لاهل المدينة و من كان على سمتهم و قريبا من سمتهم اهل الشام و العراق و

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 484-499

اليمن و نحوهم دون من كانت إلى الركن الاسود أو الركن الغربي و ما يقرب منهما من اهل المشرق و المغرب الذين مساكنهم بين شام الارض و يمنها على مسامحة مكة و ما يقارب ذلك و لأن ذلك اجماع الصحابة رضي الله عنهم قال عمر ما بين المشرق و المغرب قبلة كله الا عند البيت رواه أبو حفص و ذكره احمد و قال ما بين المشرق و المغرب قبلة الا عند البيت فهذا لا يكون ثم لأنه يأتي بالبيت كيف دار و ان صلى قريبا من الركن فزال عن الركن قليلا ترك القبلة فمكة غير البلدان و في رواية إذا توجهت قبل البيت و روى الاثرم عن عمر و علي و ابن عباس انهم قالوا ما بين المشرق و المغرب قبلة و عن عثمان أنه قال كيف يخطي الرجل الصلاة و ما بين المشرق و المغرب قبلة ما لم يتحر المشرق عمدا و روى أبو حفص عن ابن عمر قال إذا جعلت المغرب عن يمينك و المشرق عن يسارك فما بينهما قبلة لاهل المشرق يعني به اهل العراق و نحوهم و روى أبو حفص عن المطلب بن حنطب ان رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ما بين المشرق و المغرب قبلة إذا وجهت وجهك نحو البيت الحرام يعني و الله اعلم إذا وجهت وجهك قبله و تجاهه و ذلك يحصل باستقبال جهته كما في قوله تعالى { قَوْلُوا **وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** } البقرة 144 أي نحوه و تلقاه و اراد ان يبين صلى الله عليه و سلم أنه لا بد من قصد جهتها و ايضا فانهم اجمعوا على صحة صلاة الصف المستطيل الزائد طوله على سمة الكعبة مع استقامته بل على صحة صلاة اهل البلد الذي فيه مساجد كثيرة تصلى كلها إلى جهة واحدة مع انها يمتنع ان تكون قبلتها على خط مستقيم و هي كلها على سمت عين الكعبة فان قيل مع البعد تحصل المواجهة و المحاذاة لكل واحد مع كثرة المحاذين و طول صفهم لأن المحاذي مع البعد و ان احتاج إلى تقوس و انحناء فهو مع البعد شيء يسير لا يظبط مثله قلنا لو كان المفروض محاذاة نفس العين لوجب مراعاة ذلك الشيء اليسير من الانحناء مع القدرة و ان لا يعتمد تركه كما في القريب فمتى سلم جواز تعمد تركه فلا يعني باستقبال جهة الكعبة الا ذلك فيرتفع الخلاف و هذا المعنى هو الفارق بين القريب و البعيد فان البعد إذا طال يكون المستقبل للجهة و العين متقاربتين جدا حتى لا يكاد يميز بينهما و مثل هذا يعفى عنه كما عفونا عن سائر الشرائط عما يشق مراعاته مثل يسير النجاسة و يسير العورة و التقدم اليسير بالنية و شبه ذلك فان الدين ايسر من تكلف هذا و قد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم من وجهين فيهما أنه قال البيت قبلة لاهل المسجد و المسجد قبلة لاهل الحرم و الحرم قبلة لاهل الارض في مشارقها و مغاربها من أمتي¹

7- لا يشرع الطواف بالصفة والمروة إلا في حج أو عمرة

قال تعالى { **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26 قال تعالى { **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** } البقرة 158 فإنها دليل على امتناع الطواف بهما من غير الحاج والمعتمر ولذلك لا يشرع الطواف بالصفة والمروة إلا في حج أو عمرة بخلاف الطواف بالبيت فإنه عبادة منفردة أفردتها بالذكر في قوله { **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26²

7- وجوب طهارة المكان الذي يصلى فيه

قال تعالى { **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } الحج 26 أن الله تعالى قال { **وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ**

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 535-540

² شرح العمدة ج: 3 ص: 658

السُّجُودِ {البقرة 125} **{ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } {الحج 26}** فأمر بتطهير بيته الذي هو المسجد الحرام وضح عنه أنه أمر بتنظيف المساجد وقال جعلت لي كل أرض طيبة مسجداً وطهوراً وقال الطواف بالبيت صلاة¹

و إنما قلنا بوجوب طهارة المكان الذي يصلي فيه لقوله سبحانه **{ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } {البقرة 125}** وهذه تعم تطهيره من النجاسة الحسية ومن الكفر والمعاصي والأصنام وغيرها وقال تعالى **{ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } {التوبة 28}** فعمل منعهم منه بنجاستهم فعلم أن مواضع الصلاة يجب صونها عن الانجاس ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال جعلت لي كل أرض طيبة مسجداً وطهوراً رواه الخطابي بإسناد صحيح من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن انس وقال ابن المنذر ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والطيبة هي الطاهرة فلما اختص الأرض الطيبة بالذكر دل على اختصاصها بالحكم في كونها مسجداً وطهوراً ولأن الحكم المعلق بوصف مناسب لدليل على أن ذلك الوصف علة له فعلم أن طهارتها مؤثرة في كونها مسجداً وطهوراً ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يصوبوا على بول الأعرابي ذنوباً من ماء وقال إن المساجد لا تصلح لشيء من هذا فدل على وجوب تطهير مواضع الصلاة ووجوب تنزيهه من النجاسات ولأنه نهى عن الصلاة في الأماكن التي هي مظنة النجاسات كما سيأتي إن شاء الله تعالى فالموضع الذي قد تحقق وصول النجاسة فيه أولى أن لا تجوز فيه الصلاة والنهي يقتضي فساد المنهي عنه لا سيما إذا كان من العبادات وكان النهي لمعنى في المنهي عنه²

8-- الطهارة شرط للصلاة وليست متعلقة بالبيت

قال تعالى **{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } {الحج 26}** فإن الطهارة شرط للصلاة وليست متعلقة بالبيت وأيضاً فالنظر إلى البيت عبادة متعلقة بالبيت ولا يشترط له الطهارة لا غيرها ثم هناك عبادة من شرطها المسجد ولم تكن الطهارة شرطاً فيها كالإعتكاف وقد قال تعالى **{ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } {البقرة 125}** فليس إلحاقه بالعاكف بل بالعاكف أشبه لأن المسجد شرط في الطواف والعكوف وليس شرطاً في الصلاة³

وقد قرن الله في كتابه وسنة رسوله بين الطائف والمصلي ولم يرد عن النبي أنه أمر بالطهارة للطواف لكنه كان يطوف متطهراً هو والصحابة وكانوا يصلون ركعتي الطواف بعد الطواف ولا يصلي إلا متطهراً والنهي إنما جاء في طواف الحائض فقال الحائض تقضي المناسك كلها إلا الطواف بالبيت وقد قيل إن ذلك لأجل المسجد وقيل لأجل الطواف وقيل لهما والله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام **{ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ } {الحج 26}** فاقتضى ذلك تطهيره من دم الحيض وغيره وأيضاً فإبراهيم والنبيون بعده كانوا يطوفون بغير وضوء كما كانوا يصلون بغير وضوء وشرعهم شرعنا إلا فيما نسخ فالصلاة قد أمرنا بالوضوء لها ولم يفرض علينا الوضوء لغيرها كما جعلت لنا الأرض مسجداً وطهوراً فحيث ما أدركت المسلم الصلاة فعنده مسجده وطهوره وإن كان جنباً تيمم

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 584

²شرح العمدة ج: 4 ص: 403-404

³مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 213

وصلى ومن قبلنا لم يكن لهم ذلك بل كانوا ممنوعين من الصلاة مع الجنابة حتى يغتسلوا كما يمنع الجنب من اللبث في المسجد ومن قراءة القرآن ويجوز للمحدث اللبث في المسجد معتكفاً وغير معتكف ويجوز له قراءة القرآن¹

9- الطهارة من الحيض شرطاً للطواف أو واجباً كان مع القدرة لا مع العجز

قال تعالى { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 وأما الحائض فقد قيل إنما منعت من الطواف لأجل المسجد كما تمنع من الاعتكاف لأجل المسجد والمسجد الحرام أفضل المساجد وقد قال تعالى لإبراهيم { وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الحج 26 فأمر بتطهيره فتمنع منه الحائض من الطواف وغير الطواف وهذا من سر قول من يجعل الطهارة واجبة فيه ويقول إذا طافت وهي حائض عصمت بدخول المسجد مع الحيض ولا يجعل طهارتها للطواف كطهارتها للصلاة بل يجعله من جنس منعها أن تعتكف في المسجد وهي حائض ولهذا لم تمنع الحائض من سائر المناسك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الحائض تقضي المناسك كلها إلا الطواف بالبيت وقال لعائشة افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت ولما قيل له عن صفة إنها حائض قال أحابستنا هي قيل له إنها قد أفاضت قال فلا إذا متفق عليه وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه بعث أبا بكر عام تسع لما أمره على الموسم ينادي أن لا يطوف بالبيت عريان ولم ينقل أحد عنه أنه أمر الطائفين بالوضوء ولا باجتنب النجاسة كما أمر المصلين بالوضوء فنهيه الحائض عن الطواف بالبيت إما أن يكون لأجل المسجد لكونها منهيّة عن اللبث فيه وفي الطواف لبث أو عن الدخول إليه مطلقاً لمرور أو لب وإما أن يكون لكون الطواف نفسه يحرم مع الحيض كما يحرم على الحائض الصلاة والصيام بالنص والإجماع ومس المصحف عند عامة العلماء وكذلك قراءة القرآن في أحد قولي العلماء والذين حرموا عليها القراءة كأحمد في المشهور وكذلك الشافعي مع أبي حنيفة تنازعوا في إباحة قراءة القرآن لها وللنفساء قبل الغسل وبعد انقطاع الدم على ثلاثة أقوال أحدها بإباحتها للحائض والنفساء وهو اختيار القاضي أبي يعلى وقال هو ظاهر كلام أحمد والثاني منع الحائض والنفساء والثالث إباحتها للنفساء دون الحائض اختاره الخليل من أصحاب أحمد وإما أن يكون لكل منهما وإما أن يكون لمجموعهما بحيث لو انفرد أحدهما لم يحرم فإن كان تحريره للأول لم يحرم عليها عند الضرورة فإن لبثها في المسجد لضرورة المسجد وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ناوليني الخمرة من المسجد فقلت إني حائض قال إن حيضتك ليست في يدك وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع رأسه في حجر إحدانا يتلو القرآن وهي حائض وتقوم إحدانا لخمرة إلى المسجد فتبسطها وهي حائض رواه النسائي وقد روى أبو داود من حديث عائشة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أحل المسجد لجنب ولا لحائض رواه ابن ماجة من حديث ام سلمة وقد تكلم في هذين الحديثين ولهذا ذهب أكثر العلماء كالشافعي وأحمد وغيرهما إلى الفرق بين المرور واللبث جمعاً بين الأحاديث ومنهم من منعها من اللبث والمرور كأبي حنيفة ومالك ومنهم من لم يحرم المسجد عليها وقد يستدلون على ذلك بقوله تعالى صلى الله عليه وسلم ولا جنباً إلا عابري سبيل وأباح أحمد وغيره اللبث لمن يتوضأ لما رواه هو وغيره عن عطاء بن يسار قال رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة وذلك والله أعلم أن المسجد ببيت الملائكة والملائكة لا تدخل بيتاً فيه جنب كما جاء ذلك في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم الجنب أن ينام حتى يتوضأ وروى يحيى بن سعيد عن هشام بن عروة قال أخبرني أبي عن عائشة أنها كانت تقول إذا أصاب أحدكم المرأة ثم أراد أن ينام فلا ينام حتى يتوضأ وضوءه للصلاة فإنه لا يدرى لعل نفسه تصاب في نومه وفي حديث آخر فإنه إذا مات لم تشهد له الملائكة جنازته وقد أمر الجنب بالوضوء عند الأكل والشرب والمعودة وهذا دليل أنه إذا توضأ ذهب الجنابة عن أعضاء الوضوء فلا تبقى جنبته تامة وإن كان قد بقي

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 171-172

عليه بعض الحدث كما أن المحدث الحدث الأصغر عليه حدث دون الجنابة وإن كان حدثه فوق الحديث الأصغر فهو دون الجنب فلا يمنع الملائكة عن شهوده فهذا ينال ويلبث في المسجد وأما الحائض فحدثها دائم لا يمكنها طهارة تمنعها عن الدوام فهي معذورة في مكثها ونومها وأكلها وغير ذلك فلا تمنع ما يمنع منه الجنب مع حاجتها إليه ولهذا كان أظهر قول العلماء أنها لا تمنع من قراءة القرآن إذا احتاجت إليه كما هو مذهب مالك وأحد الوجهين في مذهب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد فإنها محتاجة إليها ولا يمكنها الطهارة كما يمكن الجنب وإن كان حدثها أغلظ من حدث الجنب من جهة أنها لا تصوم ما لم ينقطع الدم والجنب يصوم ومن جهة أنها ممنوعة من الصلاة طهرت أو لم تطهر ويمنع الرجل من وطئها أيضا فهذا يقتضي أن المقتضي للحظر في حقها أقوى لكن إذا احتاجت إلى الفعل استباح المحظور مع قيام سبب الحظر لأجل الضرورة كما يباح سائر المحرمات مع الضرورة من الدم والميتة ولحم الخنزير وإن كان ما هو دونها في التحريم لا يباح من غير حاجة كلبس الحرير والشرب في أنية الذهب والفضة ونحو ذلك وكذلك الصلاة إلى غير القبلة مع كشف العورة ومع النجاسة في البدن والثوب هي محرمة أغلظ من غيرها وتباح بل تجب مع الحاجة وغيرها وإن كان دونها في التحريم كقراءة القرآن مع الحاجة لا يباح وإذا قدر جنب استمرت به الجنابة وهو يقدر على غسل أو تيمم فهذا كالحائض في الرخصة وإن كان هذا نادرا وكما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الحيض أن يخرجن في العيد ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ويكبرن بتكبير الناس وكذلك الحائض والنفساء أمرهما النبي صلى الله عليه وسلم بالإحرام والتلبية وما فيهما من ذكر الله وشهودهما عرفة مع الذكر والدعاء ورمي الجمار مع ذكر الله وغير ذلك ولا يكره لها ذلك بل يجب عليها والجنب يكره له ذلك حتى يغتسل لأنه قادر على الطهارة بخلاف الحائض فهذا أصل عظيم في هذه المسائل ونوعها لا ينبغي أن ينظر إلى غلظ المفسدة المقتضية للحظر أو لا ينظر مع ذلك إلى الحاجة الموجبة للإذن بل الموجبة للاستحباب أو الإيجاب وكل ما يحرم معه الصلاة يجب معه عند الحاجة إذا لم يمكن الصلاة إلا كذلك فإن الصلاة مع تلك الأمور أخف من ترك الصلاة فلو صلى بتيمم مع قدرته على استعمال الماء لكانت الصلاة محرمة ومع عجزه عن استعمال الماء كانت الصلاة بالتيمم واجب بالوقت وكذلك الصلاة عريانا وإلى غير القبلة ومع حصول النجاسة وبدون القراءة وصلاة الفرض قاعدا أو بدون إكمال الركوع والسجود وأمثال ذلك مما يحرم مع القدرة ويجب مع العجز وكذلك أكل الميتة والدم ولحم الخنزير يحرم أكلها عند الغنى عنها ويجب أكلها بالضرورة عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء قال مسروق من اضطر فلم يأكل حتى مات دخل النار وذلك لأنه أعان على نفسه بترك ما يقدر عليه من الأكل المباح له في هذه الحال فصار بمنزلة من قتل نفسه بخلاف المجاهد بالنفس ومن تكلم بحق عند سلطان جائر فإن ذلك قتل مجاهدا ففي قتله مصلحة لدين الله تعالى وتعليل منع طواف الحائض بأنه لأجل حرمة المسجد رأيته يعطل به بعض الحنفية فإن مذهب أبي حنيفة أن الطهارة واجبة له لا فرض فيه ولا شرط له ولكن هذا التعليل يناسب القول بأن طواف المحدث غير محرم وهذا مذهب منصور بن المعتمر وحماد بن أبي سليمان رواه أحمد عنهما قال عبد الله في مناسكه حدثني أبي حدثنا سهل بن يوسف أنبأنا شعبة عن حماد ومنصور قال سألتهما عن الرجل يطوف بالبيت وهو غير متوضيء فلم يريا به بأسا قال عبد الله سألت أبي عن ذلك فقال أحب إلي أن يطوف بالبيت وهو غير متوضيء لأن الطواف صلاة وأحمد عنه روايتان منصوصتان في الطهارة هل هي شرط في الطواف أم لا وكذلك وجوب الطهارة في الطواف كلامه فيها يقتضي روايتين وكذلك قال بعض الحنفية إن الطهارة ليست واجبة في الطواف بل سنة مع قوله أن في تركها دما فمن قال أن المحدث يجوز له أن يطوف بخلاف الحائض والجنب فإنه يمكنه تعليل المنع بحرمة المسجد لا بخصوص الطواف لأن الطواف يباح فيه الكلام والأكل والشرب فلا يكون كالصلاة ولأن الصلاة مفتاحها الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم والطواف ليس كذلك ويقول إنما منع المرأة من ذلك لأجل نظر الناس وحرمة المسجد أيضا ومن قال هذا قال المطاف أشرف المساجد لا يكاد يخلو من طائف وقد قال الله تعالى صلى الله عليه وسلم { خذوا زينتكم عند كل مسجد } الأعراف 31 فأمر بأخذها عند دخول المسجد وهذا بخلاف الصلاة فإن المصلي عليه أن يستتر لنفس الصلاة والصلاة تفعل في جميع البقاع فلو صلى وحده في بيت مظلم لكان عليه أن يفعل ما أمر به من الستر للصلاة بخلاف الطواف فإنه يشترط فيه المسجد الحرام والاعتكاف يشترط فيه جنس المساجد وعلى قول هؤلاء فلا يحرم طواف الجنب والحائض إذا اضطر إلى ذلك كما لا يحرم عندهم الطواف على المحدث بحال لأنه لا يحرم عليهما دخول المسجد حينئذ وهما إذا كانا مضطرين إلى ذلك أولى بالجواز من المحدث الذي يجوزون له الطواف مع الحديث من غير حاجة إلا أن المحدث منع من الصلاة ومس المصحف مع قدرته على الطهارة وذلك جائز للجنب مع التيمم وإذا عجز عن التيمم صلى بلا غسل ولا تيمم في أحد قول العلماء وهو المشهور في مذهب

الشافعي وأحمد كما نقل أن الصحابة صلوا مع الجنابة قبل أن تنزل آية التيمم والحائض نهيت عن الصوم فإنها ليست محتاجة إلى الصوم في الحيض فإنه يمكنها أن تصوم شهرا آخر غير رمضان فإذا كان المسافر والمريض مع إمكان صومهما جعل لهما أن يصوما شهرا آخر فالحائض الممنوعة من ذلك أولى أن تصوم شهر آخر وإذا أمرت بقضاء الصوم فلم تؤمر إلا بشهر واحد فلم يجب عليها إلا ما يجب على غيرها ولهذا لو استحاضت فإنها تصوم مع الاستحاضة فإن ذلك لا يمكن الإحترار عنه إذ قد تستحيض وقت القضاء وإما الصلاة فإنها تتكرر في كل يوم وليلة خمس مرات والحيض مما يمنع الصلاة فلو قيل أنها تصلى مع الحيض لأجل الحاجة لم يكن الحيض مانعا من الصلاة بحال وكان يكون الصوم والطواف بالبيت أعظم حرمة من الصلاة وليس الأمر كذلك بل كان من حرمة الصلاة أنها لا تصلى وقت الحيض إذا كان لها في الصلاة أوقات الطهر غنبة عن الصلاة وقت الحيض وإذا كانت إنما منعت من الطواف لأجل المسجد فمعلوم أن إباحة ذلك للعذر أولى من إباحة مس المصحف للعذر ولو كان لها مصحف ولم يمكنها حفظه إلا بمسه مثل أن يريد أن يأذه لص أو كافر أو ينهيه أحد أو ينهيه منها ولم يمكنها منعه إلا بمسه لكان ذلك جائزا لها مع المحدث لا يمس المصحف ويجوز له الدخول في المسجد فعلم أن حرمة المصحف أعظم من حرمة المسجد وإذا أبيح لها مس المصحف للحاجة فالمسجد الذي حرّمته دون حرمة المصحف أولى بالإباحة فصل وأما إن كان المنع من الطواف لمعنى في نفس الطواف ما منع من غيره أو كان لذلك وللمسجد كل منهما علة مستقلة فنقول إذا اضطرت إلى ذلك بحيث لم يمكنها الحج بدون طوافها وهي حائض لتعذر المقام عليها إلى أن تطهر فهنا الأمر دائر بين أن تطوف مع الحيض وبين الضرر الذي ينافي الشريعة فإن إلزامها بالمقام إذا كان فيه خوف على نفسها ومالها وفيه عجزها عن الرجوع إلى أهلها والزامها بالمقام بمكة مع عجزها عن ذلك وتضررها به لا تأتي به الشريعة فإن مذهب عامة العلماء أن من أمكنه الحج ولم يمكنه الرجوع إلى أهله لم يجب عليه الحج وفيه قول ضعيف أنه يجب إذا أمكنه المقام أما مع الضرر الذي يخاف منه على النفس أو مع العجز عن الكسب فلا يوجب أحد عليه المقام فهذه لا تجب عليها حج يحتاج معه إلى سكنى مسكة وكثير من النساء إذا لم ترجع مع من حجت معه لم يمكنها بعد ذلك الرجوع ولو قدر أنه أنه يمكنها بعد ذلك الرجوع فلا يجب عليها أيبقى وطؤها محرما مع رجوعها إلى أهلها ولا تزال كذلك إلى أن تعود فهذا أيضا من أعظم الحرج الذي لا يوجب الله مثله إذ هو أعظم من إيجاب حجتين والله تعالى لم يوجب إلا حجة واحدة ومن وجب عليه القضاء كالمفطر وإنما ذاك لتقريبه بإفساد الحج ولهذا لم يجب القضاء على المحصر في أظهر قولي العلماء لعدم التقريط ومن أوجب القضاء على من فإنه الحج يوجب له لأنه مفطر عنده وإذا قيل في هذه المسألة بل يتحلل كما يتحلل المحصر فهذا لا يفيد سقوط الفرض عنها فيحتاج مع ذلك إلى حجة ثانية ثم في الثانية تخاف ما خافته في الأولى مع أن الحصر لا يعقل إلا مع العجز الحسى إما بعذر وإما بمرض أو فقد أو حبس فأما من جهة الشرع فلا يكون أحد محصرا وكل من قدر على الوصول إلى البيت لم يكن محصرا في الشرع فهذه هي التقديرات التي يمكن أن تفعل إما مقامها بمكة وإما رجوعها محرمة ولها تحللها وكل ذلك مما منعه الشرع في حق مثلها وإن قيل أن الحج يسقط عن مثل هذه كما يسقط عن لا تحج إلا مع من يفجر بها لكون الطواف مع الحيض يحرم كالفجور بل هذا مخالف لأصول الشرع لأن الشرع مبناه على قوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} ومعلوم أن المرأة إذا لم يمكنها فعل شيء من فرائض الصلاة أو الصيام أو غيرهما إلا مع الفجور لم يكن لها أن تفعل ذلك فإن الله تعالى لم يأمر عباده بأمر لا يمكن إلا مع الفجور فإن الزنا لا يباح بالضرورة كما يباح أكل الميتة عند الضرورة ولكن إذا أكرهت عليه بأن يفعل بها ولا تستطيع الامتناع منه فهذه لا فعل لها وإن كان بالأكره ففيه قولان وهما روايتان عن أحمد إحداهما أنه لا يباح بالإكراه إلا الأقوال دون الأفعال والثاني وهو قول الأكثرين أن المكروهة على الزنا وشرب الخمر معفو عنها لقوله تعالى {وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 33} وأما الرجل الزانى ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره بناء على كون الإكراه هل يمنع من الإنتشار أم لا فأبو حنيفة وأحمد في المنصوص عنه قولان لا يكون الرجل مكرها على الزنا وأما المكروهة على الزنا وشرب الخمر معفو عنها لقوله تعالى {وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 33} وأما الرجل الزانى ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره بناء على كون الإكراه هل يمنع من الإنتشار أم لا فأبو حنيفة وأحمد في المنصوص عنه قولان لا يكون الرجل مكرها على الزنا وأما إذا أمكن العبد أن يفعل بعض الواجبات دون بعض فإنه يؤمر بما يقدر عليه وما عجز عنه يبقى ساقطا كان يؤمر بالصلاة عريانا ومع النجاسة وإلى غير القبلة إذا لم يطق إلا ذلك ففيه نزاع وكما يجوز أداء الفرض للمريض قاعدا أو راكبا ولا يجوز ذلك في الفرض بدون العذر مع أن الصلاة إلى غير القبلة والصلاة عريانا وبدون الاستنجاء وفي الثوب النجس حرام في الفرض والنفل ومع هذا فكان أ يصلّى

الفرض مع هذه المحضورات خيرا من تركها وكذلك صلاة الخوف مع العمل الكثير ومع استدبار القبلة مع مفارقة الإمام في أثناء الصلاة ومع قضاء ما فاتته قبل السلام وغير ذلك مما لا يجوز في غير العذر فإن قيل الطواف مع الحيض كالصلاة مع الحيض والصوم مع الحيض وذلك لا يباح بحال قيل الصوم مع الحيض لا يحتاج إليه بحال فإن الواجب عليه شهر وغير رمضان يقوم مقامه وإذا لم يكن لها أن تؤدي الفرض مع الحيض فالنفل بطريق الأولى لألها مندوحة عن ذلك بالتطوع في أوقات أخر فلم تكن محتاجة إلى الصوم مع الحيض بحال فلا تباح هذه المفسدة مع الاستغناء عنها كما لا تباح صلاة التطوع التي لا سبب لها في أوقات النهي بخلاف ذوات السبب فإن الراجح في الدليل من قولي العلماء أنها تجوز لحاجته إليها فإنه إن لم يفعلها فأنت مصلحتها بخلاف التطوع المحض فإنه لا يفوت والصوم من هذا الباب ليس لما صوم إلا ويمكن فعله في أيام الطهر ولهذا جاز للمستحاضة الصوم والصلاة وأما الصلاة فإنها لو أبيحت مع الحيض لم يكن الحيض مانعا من الصلاة بحال فإن الحيض مما يعتاد النساء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم فلو أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلين بالحيض صارت الصلاة مع الحيض كالصلاة مع الطهر ثم إن أبيض سائر العبادات لم يبق الحيض مانعا مع أن الجنابة والحدث الأصغر مانع وهذا تناقض عظيم وإن حرم ما دون الصلاة وأبيحت الصلاة كان أيضا تناقضا ولم تكن محتاجة إلى الصلاة زمن الحيض فإن لها في الصلاة زمن الطهر وهو أغلب أوقاتها ما يغنيها عن الصلاة أيام الحيض ولكن رخص لها فيما تحتاج إليه من التلبية والذكر والدعاء وقد أمرت لذلك بالإغتسال كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أسماء أن تغتسل عند الإحرام لما نكحته بمحمد ابن أبي بكر وأمر أيضا بذلك النساء مطلقا وأمر عائشة حين حاضت بسرق أن تغتسل وتحرم بالحج فأمرها بالاغتسال مع الحيض للأهلال بالحج ورخص الحائض مع ذلك أن تلبى وتقف بعرفة وتدعو وتذكر الله ولا تغتسل ولا تتوضأ ولا يكره لها ذلك كما يكره للجنب لو فعل ذلك بدون طهارة لأنها محتاجة إلى ذلك وغسلها ووضوءها لا يؤثران في الحدث المستمر بخلاف غسلها عند الإحرام فإنه غسل نظافة كما يغتسل للجمعة ولهذا هل يتيمم لمثل هذه الأغسال إذا عدم الماء على قولين في مذهب أحمد وكذلك هل يتيمم الميت إذا تعذر غسله على قولين ليس هذا الغسل والجنابة والوضوء من الحدث ومع هذا فلم يؤمر بالغسل عند دخول مكة والوقوف بعرفة فلما نهيت عن الصلاة مع الحيض دون الأذكار من غير كراهة علم الفرق بين ما يحتاج إليه فإن قيل سائر الأذكار تباح للجنب والمحدث فلا حظر في ذلك قيل الجنب ممنوع من قراءة القرآن ويكره له الإذان مع الجنابة والخطبة وكذلك النوم بلا وضوء وكذلك فعل المناسك بلا طهارة مع قدرته عليها والمحدث أيضا تستحب له الطهارة لذكر الله تعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهر والحائض لا يستحب لها شيء من ذلك ولا يكره الذكر بدونه عند أحد من العلماء للسنة المتوترة في ذلك وإنما تنازعوا في قراءة القرآن وليس في منعها من القرآن سنة أصلا فإن قوله لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئا من القرآن حديث ضعيف باتفاق أهل المعرفة بالحديث رواه اسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر وأحاديثه عن آل الحجاز يغلط فيها كثيرا وليس لهذا أصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا حدث به عن ابن عمر ولا عن نافع ولا عن موسى بن عقبة أصحابهم المعروفون بنقل السنن عنهم وقد كان النساء يحضن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو كانت القراءة محرمة عليهن كالصلاة لكان هذا مما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لأخته وتعلمه أمهات المؤمنين وكان ذلك مما ينقلونه إلى الناس فلما لم ينقل أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك نهيا لم يجز إن تجعل حراما العلم أنه لم ينه عن ذلك وإذا لم ينه عنه مع كثرة الحيض في زمنه علم أنه ليس بمحرم وهذا كما استدللنا على أن المنى لو كان نجسا لكان يأمر الصحابة بإزالته من أبدانهم وثيابهم لأنه لا بد أن يصيب أبدان الناس وثيابهم في الاحتلام فلما لم ينقل أحل عنه أنه أمر بإزالة ذلك لا بغسل ولا فرك مع كثرة إصابة ذلك الأبدان والثياب على عهده وإلى يوم القيامة علم أنه لم يأمر بذلك ويمتنع أن يكون إزالته واجبة ولا يأمر به مع عموم البلوى بذلك كما أمر بالاستنجاء مع الغائط والبول والحائض بإزالة دم الحيض من ثوبها وكذلك الوضوء من لمس النساء ومن النجاسات الخارجة من غير السبيلين لم يأمر المسلمين بالوضوء من ذلك مع كثرة ابتلائهم به ولو كان واجبا لكان يجب الأمر وكان إذا أمر به فلا بد أن ينقله المسلمون لأنه مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله وأمره بالوضوء من مس الذكر ومما مست النار أمر استحباب فهذا أولى لا يكون إلا مستحبا وإذا كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مضت بإنه يرخص للحائض فيما لا يرخص فيه للجنب لأجل حاجتها إلى ذلك لعدم إمكان تطهرها وإنه إنما حرم عليها مالا تحتاج إليه فمنعت منه كما منعت من الصلاة بطريق الأولى لا اعتياضها عن صلاة الحيض بالصلاة بالطهر فهي أيضا منعت من الطواف إذا أمكنها أن تطوف مع الطهر لأن الطواف يشبه الصلاة من بعض الوجوه وليس كالصلاة من كل الوجوه والحديث الذي

رواه النسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الطواف بالبيت صلاة إلا أباح فيه الكلام فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير قد قيل أنه من كلام ابن عباس وسواء كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو كلام ابن عباس ليس معناه أنه نوع من الصلاة كصلاة الجمعة والاستسقاء والكسوف فإن الله قد فرق بين الصلاة والطواف بقوله تعالى { طَهَّرًا لِنَبِيِّ لِكَلِمَاتٍ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ } البقرة 125 وقد تكلم العلماء أيما أفضل للقادِم الصلاة أو الطواف وأجمع العلماء على أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين والآثار عن النبي والصحابة والتابعين وسائر العلماء بالفرق بين مسمى الصلاة ومسمى الطواف متواترة فلا يجوز أن يجعل نوعا من الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم قال الصلاة مفتاحها الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم والطواف ليس تحريمه التكبير وتحليله التسليم وقد تنازع السلف ومن بعدهم في وجوب الوضوء من الحدث له والوضوء للصلاة معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ومن أنكره فهو كافر ولم ينقل شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم في وجوب الوضوء له ومنع الحائض لا يستلزم منع المحدث وتنازع العلماء في الطهارة للصلاة أنها شرط فيها وأيضا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة إلا بأبم القرآن والقراءة فيه ليست واجبة باتفاق العلماء بل في كراهتها قولان للعلماء وأيضا فإنه قد قال أن الله يحدث من أمره ما شاء ومما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة فنهى عن الكلام في الصلاة مطلقا والطواف يجوز فيه من الكلام ما لا يجوز في غيره وبهذا يظهر الفرق بينه وبين صلاة الجنائز فإن لها تحريما وتحليلا ونهى فيها عن الكلام وتصلى بإمام وصفوف وهذا كله متفق عليه والقراءة فيها سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا أصح قولى العلماء وأما سجود التلاوة فقد تنازع العلماء هل هو من الصلاة التى تشترط لها الطهارة مع أه سجود وهو أعظم أركان الصلاة الفعلية ولا يتكلم فى حال سجوده بل يكبر إذا سجد وإذا رفع ويسلم أيضا فى أحد قولى العلماء هذا عند من يسلم أن السجود المجرى كسجود التلاوة يجب له الطهارة ومن منع ذلك قال أنه يجوز بدون الوضوء وقال أن السجود المجرى لا يدخل فى مسمى الصلاة ماله تحريم وتحليل وهذا السجود لم يرو عن النبي أنه أمر له بالطهارة بل ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم سجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس وسجد سحرة فرعون على غير طهارة وثبت عن ابن عمر أنه سجد للتلاوة على غير وضوء ولم يرو عن أحد من الصحابة أنه أوجب فيه الطهارة وكذلك لم يرو أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سلم فيه وأكثر السلف على أنه لا يسلم فيه وهو إحدى الروايتين عن أحمد وذكر أنه لم يسمع فى التسليم أثر ومن قال فيه تسليم فقد أثبتته بالقياس الفاسد حيث جعله صلاة وهو موضع المنع وصلاة الجنائز قد ذهب بعضهم إلى أنه لا يشترط لها الطهارة لكن هذا قول ضعيف فإن لها تحريما وتحليلا فهي صلاة وليس الطواف مثل شيء من ذلك ولا الحائض محتاجة إلى ذلك فإنها إن لم تصل فرض العين ففرض الكفاية والنفل أولى ودعاؤها للميت واستغفارها له يحصل المقصود بحسب الإمكان كما أن شهودها العيد وذكر الله تعالى مع المسلمين يحصل المقصود بحسب الإمكان والطواف وإن كان له مزية على سائر المناسك بنفسه ولكونه فى المسجد وبأن الطواف شرع منفردا بنفسه وشرع فى العمرة وشرع فى الحج وأما الإحرام والسعي بين الصفا والمروة والعلق فلا يشرع إلا فى الحج فهذا يدل على أن الله عز وجل يسره للناس وجعل لهم التقرب به مع الإحلال والإحرام فى النسكين وفى غيرهما فلم يوجب فيه ما أوجبه فى الصلاة ولا حرم فيه ما حرمه فى الصلاة فعلم أن أمر الصلاة أعظم فلا يجعل مثل الصلاة ومن قال من العلماء إن طواف أهل الأفاق أفضل من الصلاة بالمسجد فإنما ذلك لأن الصلاة تمكنهم فى سائر الأمصار بخلاف الطواف فإنه لا يمكن إلا بمكة والعمل المفضول فى مكانه وزمانه يقدم على الفاضل لا لأن جنسه أفضل كما يقدم الدعاء فى آخر الصلاة على الذكر والقراءة ويقدم الذكر فى الركوع والسجود على القراءة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال نهيت أن أقرأ القرآن راكعا وساجدا وكما يقدم القراءة والذكر والدعاء فى أوقات النهي وكما تقدم إجابة المؤذن على الصلاة والقراءة لأن هذا يفوت وذلك لا يفوت الأفاقي إذا خرج فقدم ذلك لا لأن جنسه أفضل من جنس الصلاة بل ولا مثلها فإن هذا لا يقوله أحد والحج كله لا يقاس بالصلاة التى هي عمود الدين فكيف يقاس بها بعض أفعاله وإنما فرض الله الحج على كل مسلم مرة فى العمر ولم يوجب شيئا من أعماله مرتين بل إنما فرض طوفا واحدا ووقفا واحدا وكذلك السعي عند أحمد فى أنص الروايتين عنه لا يوجب على المتمتع إلا سعيًا واحدا إما قبل التعريف وإما بعده بعد الطواف ولهذا قال أكثر العلماء إن العمرة لا تجب كما هو مذهب مالك وأبي حنيفة وهو أحد القولين فى مذهب الشافعي وأحمد وهو الأظهر فى الدليل فإن الله لم يوجب إلا حج البيت ولم يوجب العمرة ولكن أوجب إتمام الحج والعمرة على من يشرع فيها لأن العمرة هي الحج الأصغر فيجب إتمامها كما يجب إتمام الحج التطوع والله لم يوجب إلا مسمى الحج لم يوجب

حجين أكبر وأصغر وهو المفهوم من اسم الحج عند الإطلاق فلا يجب غير ذلك وليس في أعمال العمرة قدر زائد على أعمال الحج فلو وجبت لم يجب إلا عمل واحد مرتين وهذا خلاف ما أوجبه الله في الحج والمقصود هنا أن الحج إذا لم يجب إلا مرة واحدة فكيف يقاس بما يجب في اليوم والليلة خمس مرات وهذا مما يفرق بين طواف الحائض وصلاة الحائض فإنها تحتاج إلى الطواف الذي فرض عليها مرة في العمر وقد تكلفت السفر الطويل وحملت الإبل أقالها إلى بلد لم يكن الناس بالغيه إلا بشق الأنفس فأين حاجة هذه إلى الطواف من حاجتها إلى الصلاة التي تستغني عنها زمن الحيض بما تفعله زمن الطهر وقد تقدم أن الحائض لم تمنع من القراءة لحاجتها إليها وحاجتها إلى هذا الطواف أعظم وإذا قال القائل القرآن تقرأه مع الحدث الأصغر فالطواف تجب له الطهارة قيل له هذا فيه نزاع معروف عن السلف فلا بد بذلك من حجة على وجوب الطهارة الصغرى في الطواف والاحتجاج بقوله الطواف بالبيت صلاة حجة ضعيفة فإن نهايته أن يشبه بالصلاة وليس المشبه كالمشبه به من كل وجه وإنما أراد أنه كالصلاة في اجتناب المحظورات التي تحرم خارج الصلاة فأما ما يختص بالصلاة وهو الأكل والشرب والعمل الكثير فليس شيء من هذا مبطلاً للطواف وإن كره فيه إذا لم يكن به حاجة إليه فإنه يشتغل عن مقصوده كما يكره مثل ذلك عند القراءة والدعاء والذكر وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم العبد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة وقوله إذا خرج أحدكم إلى المسجد فلا يشبك بين أصابعه فإنه في صلاة ولهذا قال إن الله أباح لكم فيه الكلام ومعلوم أنه يباح فيه الأكل والشرب وهذه محظورات الصلاة التي تبطلها الأكل والشرب والعمل الكثير ولا يبطل شيء من ذلك الطواف بل نهايته أنه يكره فيه لغير حاجة كما يكره العبث في الصلاة ولو قطع الطواف لصلاة مكتوبة أو جنازة أقيمت بنى على طوافه والصلاة لا تقطع لمثل ذلك فليس محظورات الصلاة محظورة فيه ولا واجبات الصلاة واجبات فيه كالتحليل والتحرير فكيف يقال إنه مثل الصلاة فيما يجب لها ويحرم فيها فمن أوجب له الطهارة الصغرى فلا بد له من دليل شرعي وما أعلم ما يوجب ذلك ثم تدبرت وتبين لي أن طهارة الحدث لا تستتر في الطواف ولا تجب فيه بلا ريب ولكن تستحب فيه الطهارة الصغرى فإن الأدلة الشرعية إنما تدل على عدم وجوبها فيه وليس في الشريعة ما يدل على وجوب الطهارة الصغرى فيه وحينئذ فلا نسلم أن جنس الطواف أفضل من جنس قراءة القرآن بل جنس القراءة أفضل منه فإنها أفضل ما في الصلاة من الأقوال والسجود أفضل ما فيها من الأفعال والطواف ليس فيه ذكر مفروض وإذا قيل الطواف قد فرض بعضه قيل له قد فرضت القراءة في كل صلاة فلا تصح صلاة إلا بقراءة فكيف يقاس الطواف بالصلاة وإذا كانت القراءة أفضل وهي تجوز للحائض لحاجتها إليه في أظهر قولي العلماء فالطواف أولى أن يجوز مع الحاجة

وإذا قيل أنتم تسلمون أن الطواف في الأصل محظور على الحائض وإنما يباح للضرورة قيل من علل بالمسجد فلم يسلم أن نفس فعله محظور لنفسه ومن سلم ذلك يقول وكذلك من القرآن ما هو محظور على الحائض وهو القراءة في الصلاة وكذلك في غير الصلاة لغير حاجة يجرمها أكثر العلماء وإنما أبيحت للحاجة فالطواف أولى ثم مس المصحف يشترط له الطهارة الكبرى والصغرى عند جماهير العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة وهو ثابت عن سلمان وسعد وغيرهم من الصحابة وحرمة المصحف أعظم من حرمة المساجد ومع هذا إذا اضطر الجنب والمحدث والحائض إلى مسه مسه فإذا اضطر إلى الطواف الذي لم يعم دليل شرعي على وجوب الطهارة فيه مطلقاً كان أولى بالجواز فإذا قيل الطواف منه ما هو واجب قيل ومس المصحف قد يجب في بعض الأحوال إذا احتج إليه لصيانته الواجبة والقراءة الواجبة أو الحمل الواجب إذا لم يمكن أداء الواجب إلا بمسه وقوله صلى الله عليه وآله وسلم الحائض تقضي المناسك كلها إلا الطواف بالبيت من جنس قوله لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ وقوله لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا أحل المسجد لجنب ولا حائض بل اشتراط الوضوء في الصلاة وخمار المرأة في الصلاة ومنع الصلاة بدون ذلك أعظم من منع الطواف وإذا كان قد حرم المسجد على الجنب والحائض ورخص للحائض أن تتاوله الخمرة من المسجد وقال لها إن حيضك ليست في يدك فبين أن الحيضة في الفرج والفرج لا ينال المسجد وهذه العلة تقتضي إباحته للحائض مطلقاً لكن إذا كان قد قال لا أحل المسجد لجنب ولا حائض فلا بد من الجمع بين ذلك والإيمان بكل ما جاء من عند الله وإذا لم يكن أحدهما ناسخاً للآخر فهذا مجمل وهذا خاص فيه إباحة المرور وهو مستثنى من ذلك التحريم مع أنه لا ضرورة إليه فإباحة الطواف للضرورة لا تنافي تحريمه بذلك النص كإباحة الصلاة بلا وضوء للضرورة بدل التيمم بل وبلا وضوء ولا تيمم للضرورة كما فعل الصحابة لما فقدوا الماء قبل نزول الآية وإباحة الصلاة بلا قراءة للضرورة مع قوله لا صلاة إلا بأمر القرآن وكالصلاة والطواف مع النجاسة للضرورة مع قوله حثيه ثم أقرصيه ثم صلى فيه والصلاة على المكان النجس للضرورة مع قوله جعلت لي كل أرض

طيبة مسجدا وطهورا بل تحريم الدم ولحم الخنزير أعظم الأمور وقد أبيح للضرورة والذي جاءت به السنة أن الطواف عبادة متوسطة بين الصلاة وبين سائر المناسك فهو أفضل من غيره لنهي الحائض عنه والصلاة أكمل منه وذلك أنه يشبه الصلاة أكثر من غيره ولأنه مختص بالمسجد فلهايتين الحرمتين منعت منه الحائض ولم تأت سنة تمنع المحدث منه وما لم يحرم على المحدث فلا يحرم على الحائض مع الضرورة بطريق الأولى والأحرى كقراءة القرآن وكالاتكاف في المسجد ولو حرم عليها مع الحدث فلا يلزم تحريم ذلك مع الضرورة كمس المصحف وغيره ومن جعل حكم الطواف مثل حكم الصلاة فيما يجب ويحرم فقد خالف النص والإجماع وليس لأحد أن يحتج بقول أحد في مسائل النزاع وإنما الحجة النص والإجماع ودليل مستنبط من ذلك تقدر مقدماته بالأدلة الشرعية لا بأقوال بعض العلماء فإن أقوال العلماء يحتج لها بالأدلة الشرعية لا يحتج بها على الأدلة الشرعية ومن تربي على مذهب قد تعودوا واعتقد ما فيه وهو لا يحسن الأدلة الشرعية وتنازع العلماء لا يفرق بين ما جاء عن الرسول وتلقته الأمة بالقبول بحيث يجب الإيمان به وبين ما قاله بعض العلماء أو يتعذر إقامة الحجة عليه ومن كان لا يفرق بين هذا وهذا لم يحسن أن يتكلم في العلم بكلام العلماء وإنما هو من المقلدة الناقلين لأقوال غيرهم مثل المحدث عن غيره والشاهد على غيره لا يكون حاكما والناقل المحمود يكون حاكيا لا مفتيا ولا يحتمل حال هذه المرأة إلا تلك الأمور الثلاثة أو هذا القول أو أن يقال طواف الإفاضة قبل الوقوف يجزئ إذا تعذر الطواف بعده كما يذكر ذلك قولاً في مذهب مالك فيمن نسي طواف الإفاضة حتى عاد إلى بلده أنه يجزئه طواف القدوم هذا مع أنه ليس لها فيه فرج فإنها قد يمتد بها الحيض من حين تدخل مكة إلى أن يخرج الحاج وفيه أيضا تقديم للطواف قبل وقته الثابت بالكتاب والسنة والإجماع والمناسك قبل وقتها لا تجزئ وإذا دار الأمر بين أن تطوف طواف الإفاضة مع الحدث وبين أن لا تطوفه كان أن تطوفه مع الحدث أولى فإن في اشتراط الطهارة نزاعا معروفا وكثير من العلماء كأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين عنه يقولون إنها في حال القدرة على الطهارة إذا طافت مع الحيض أجزأها وعليها دم مع قولهم إنها تأثم بذلك ولو طافت قبل التعريف لم يجزئها وهذا القول مشهور معروف تبين لك أن الطواف مع الحيض أولى من الطواف قبل الوقت وأصحاب هذا القول يقولون إن الطهارة واجبة فيها لا شرط فيها والواجبات كلها تسقط بالعجز ولهذا كان قول أبي حنيفة وغيره من العلماء أن كل ما يجب في حال دون حال فليس بفرض وإنما الفرض ما يجب على كل أحد ولهذا قالوا إن طواف الوداع لما أسقطه النبي صلى الله عليه وسلم عن الحائض دل على أنه ليس بركن بل يجبره دم وكذلك الرمي لما جوز فيه للرعاة وأهل السقاية التأخير من وقت إلى وقت دل ليس بفرض بل هو واجب يجبره دم وكذلك الرمي لما جوز فيه للرعاة وأهل السقاية التأخير من وقت إلى وقت دل ذلك على أن فعله في ذلك الوقت ليس بفرض وكذلك رخص للضعفة أن يفيضوا من جمع لبيل جمع من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم وقد ذكرها أصحاب أبي حنيفة كالتحايوي وغيره فإذا كان من قولهم أن الطهارة ليست فرضا في الطواف وشرطا فيه بل هي واجبة تجبر بدم دل ذلك على أنها لا تجب على كل أحد في كل حال فإذا وجب على كل أحد في كل حال إنما هو فرض عندهم لا بد من فعله لا يجبر بدم وحينئذ فإذا كانت الطهارة واجبة في حال دون حال سقطت مع العجز كما سقط سائر الواجبات مع العجز كطواف الوداع وكما يباح للمحرم ما يحتاج إليه الناس من حاجة عامة كالسراويل والخفين فلا فدية عند أكثر العلماء كالشافعي وأحمد وسائر فقهاء الحديث بخلاف ما يحتاج إليه في بعض الأحوال فإنه لا يباح إلا مع القدرة وأبو حنيفة يوجب الفدية في الجميع وحينئذ فهذه المحتاجة إلى الطواف أكثر ما يقال إنه يلزمها دم كما هو قول أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب أحمد فإن الدم يلزمها بدون العذر على قول من يجعل الطهارة واجبة وأما مع العجز فإذا قيل بوجوب ذلك فهذا غاية ما يقال فيها وإلا قيس أنه لا دم عليها عند الضرورة وأما أن يجعل هذا واجبا يجبره دم ويقال إنه لا يسقط للضرورة فهذا خلاف أصول الشريعة وقد تبين بهذا أن المضطرة إلى الطواف مع الحيض لما كان في علماء المسلمين من يفتيها بالإجزاء مع الدم وإن لم تكن مضطرة لم تكن الأمة مجمعة على أنه لا يجزئها إلا الطواف مع الطهر مطلقا وحينئذ فليس مع المنازع القائل بذلك لا نص ولا إجماع ولا قياس وقد بينا أن هذا القول يلزم لجواز ذلك عند الحاجة وأن العلماء اختلفوا في طهارة الحدث هل هي واجبة عليها وأن قول النفاة للوجوب أظهر فلم تجمع الأمة على وجوب الطهارة مطلقا ولا على أن شيئا من الطهارة شرط في الطواف وأما الذي لا أعلم فيه نزاعا أنه ليس لها أن تطوف مع الحيض إذا كانت قادرة على الطواف مع الطهر فما أعلم منازعا أن ذلك يحرم عليها وتأثم به وتنازعوا في إجزائه فمذهب أبي حنيفة يجزئها ذلك وهو قول في مذهب أحمد فإن أحمد نص في رواية على أن الجنب إذا طاف ناسيا أجزأه ذلك فمن أصحابه من قصر ذلك على حال النسيان ومنهم من قال هذا يدل على أن الطهارة ليست فرضا إذ لو كانت فرضا لما سقطت بالنسيان لأنها من باب المأمور به لا من باب المنهي عنه

كطهارة الحدث في الصلاة بخلاف اجتناب النجاسة في الصلاة فإن ظاهر مذهب أحمد أنه إذا صلى ناسيا لها أو جاهلا بها لا يعيد لأن ذلك من باب المنهي عنه فإذا فعله ناسيا أو جاهلا به لم يكن عليه إثم فيكون وجوده تدمه ثم إن أصحابه من قال هذا يدل على أن الطهارة في الطواف ليست عنده ركنًا على هذه الرواية بل واجب يجبر بدم وحكى هؤلاء في صحة طواف الحائض روايتين إحداهما لا يصح والثانية يصح وتجبره بدم وممن ذكر هذا أبو بركات وغيره وكذلك صرح غير واحد منهم أن هذا النزاع في الطهارة من الحيض والجنابة كمذهب أبي حنيفة فعلى هذا القول تسقط بالعجز كسائر الواجبات وذكر آخرون من أصحابه عنه ثلاث روايات رواية يجزئه الطواف مع الجنابة ناسيا لا دم عليه ورواية أن عليه دما ورواية أنه لا يجزئه ذلك وبعض الناس يظن أن النزاع في مذهب أحمد إنما هو في الجنب والمحدث دون الحائض وليس الأمر كذلك بل صرح غير واحد من أصحابه بأن النزاع في الحائض وغيرها وكلام أحمد يدل على ذلك وتبين أنه كان متوقفا في طواف الحائض وفي طواف الجنب وكان يذكر أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم في ذلك فذكر أبو بكر عبد العزيز في الشافي عن الميموني قال لأحمد من سعى أو طاف طواف الواجب على غير طهارة ثم واقع أهله فقال في هذه الناس فيها مختلفون وذكر قول ابن عمر وما يقول عطاء وما يسهل فيه وما يقول الحسن وأمر عائشة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم حين حاضت افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم فقد بليت به نزل عليها ليس من قبلها قلت فمن الناس من يقول عليه الحج فقال نعم كذلك أكثر علمي ومن الناس من يذهب إلى أن عليه دما قال أبو عبدالله أولا وأخرا هي مسألة مشتبهة فيها نظر دعني حتى أنظر فيها ومن الناس من يقول وإن رجع إلى بلده يرجع حتى يطوف قلت والنسيان قال والنسيان أهون حكما بكثير يريد أهون ممن يطوف على غير طهارة متعمدا قال أبو بكر عبد العزيز قد بينا أمر الطواف بالبيت في أحكام الطواف على قولين يعني لأحمد أحد القولين أن الطواف إذا طاف الرجل وهو غير طاهر أن الطواف يجرى عنه إذا كان ناسيا والقول الآخر الجواب أنه لا يجزئه حتى يكون طاهرا فإن وطئ وقد طاف غير طاهر ناسيا فعلى قولين مثل قوله في الطواف فمن أجاز الطواف غير طاهر قال تم حجه ومن لم يجزه إلا طاهرا رده من أي المواضع ذكر حتى يطوف قال وبهذا أقول فأبو بكر وغيره من أصحاب أحمد يقولون في إحدى الروايتين يجزئه مع العذر ولا دم عليه وكلام أحمد بين في هذا وجواب أحمد المذكور يبين أن النزاع عنده في طواف الحائض وغيره وذكر عن عمر وعطاء وغيرهما التسهيل في هذا ومما نقل عن عطاء في ذلك أن المرأة إذا حاضت في أثناء الطواف فإنها تتم طوافها وهذا صريح من عطاء أن الطهارة من الحيض ليست شرطا وقوله مما اعتد به أحمد وقد ذكر حديث عائشة وأن قول النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم يبين أنه أمر بليت به نزل عليها ليس من قبلها فهي معذورة في ذلك ولهذا تعذر إذا حاضت وهي معتكفة فلا يبطل اعتكافها بل تقيم في رحبة المسجد وإن اضطرت إلى المقام في المسجد أقامت به وكذلك إذا حاضت في صوم الشهرين لم ينقطع التتابع باتفاق العلماء وهذا يقتضي أنها تشهد المناسك بلا كراهة وتشهد العيد مع المسلمين بلا كراهة وتدعو وتذكر الله والجنب يكره له ذلك لأنه قادر على الطهارة وهذه عاجزة عنها فهي معذورة كما عذرها من جوز لها القراءة بخلاف الجنب الذي يمكنه الطهارة فالحائض أحق بأن تعذر من الجنب الذي طاف مع الجنابة فإن ذلك يمكنه الطهارة وهذه تعجز عن الطهارة وعذرها بالعجز والضرورة أولى من عذر الجنب بالنسيان فإن الناسي لما أمر بها في الصلاة يؤمر بها إذا ذكرها وكذلك من نسي الطهارة للصلاة فعليه أن يتطهر ويصلي إذا ذكر بخلاف العاجز عن الشرط مثل من يعجز عن الطهارة بالماء فإنها تسقط عنه وكذلك العاجز عن سائر أركان الصلاة كالعاجز عن القراءة والقيام وعن تكميل الركوع والسجود وعن استقبال القبلة فإن هذا يسقط عنه كل ما عجز عنه ولم يوجب الله على أحد ما يعجز عنه ولا سقط عنها الطواف الذي تعذر عليه بعجزها عما هو ركن فيه أو واجب كما في الصلاة وغيرها وقد قال الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وهذه لا تستطيع إلا هذا وقد اتقت الله ما استطاعت فليس عليها غير ذلك ومعلوم أن الذي طاف على غير طهارة متعمدا أثم وقد ذكر أحمد القولين هل عليه دم أم يرجع فيطوف وذكر النزاع في ذلك وكلامه يبين في أن توقفة في الطائف على غير طهارة يتناول الحائض والجنب مع التعمد ويبين أن الناسي أهون بكثير والعاجز عن الطهارة أعذر من الناسي وقال أبو بكر عبد العزيز في الشافي باب في الطواف بالبيت غير طاهر قال أبو عبد الله في رواية أبي طالب ولا يطوف بالبيت أحد إلا طاهرا والمتطوع أيسر ولا يقف مشاهد الحج إلا طاهرا وقال في رواية محمد بن الحكم إذا طاف طواف الزيارة وهو ناس لطهارته حتى رجع فإنه لا شيء عليه واختار له أن يطوف وهو طاهر وإن وطئ فحجه ماض ولا شيء عليه فهذا النص من أحمد صريح

بأن الطهارة ليست شرطا وأنه لا شيء عليه إذا طاف ناسيا لطهارته لا دم ولا غيره وأنه إذا وطىء بعد ذلك فحجه ماض ولا شيء عليه كما أنه لما فرق بين التطوع وغيره في الطهارة فأمر بالطهارة فيه وفي سائر المشاهد دل ذلك على أن الطهارة ليست شرطا عنده فقطع القول هنا بأنه لا شيء عليه من النسيان وقال في رواية أبي طالب أيضا إذا طاف بالبيت وهو غير طاهر يتوضأ ويعيد الطواف وإذا طاف وهو جنب فإنه يغتسل ويعيد الطواف وقال في رواية أبي داود حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء إذا طاف على غير وضوء فليعد طوافه وقال أبو بكر عبد العزيز باب في الطواف في الثوب النجس قال أبو عبد الله في رواية أبي طالب وإذا طاف رجل في ثوب نجس فإن الحسن كان يكره أن يفعل ذلك ولا ينبغي له أن يطوف إلا في ثوب طاهر وهذا الكلام من أحمد يبين أنه ليس الطواف عنده كالصلاة في شروطها فإن غاية ما ذكر في الطواف في الثوب النجس أن الحسن كره ذلك وقال لا ينبغي له أن يطوف إلا في ثوب طاهر ومثل هذه العبارة تقال في المستحب المؤكد وهذا لخلاف الطهارة في الصلاة ومذهب أبي حنيفة وغيره أنه إذا طاف وعليه نجاسة صح طوافه ولا شيء عليه وبالجملة هل للطواف شروط الصلاة على قولين في مذهب أحمد وغيره أحدهما يشترط كقول مالك والشافعي وغيرهما والثاني لا يشترط وهذا قول أكثر السلف وهو مذهب أبي حنيفة وغيره وهذا القول هو الصواب فإن المشركين في الطواف كشروط الصلاة ليس معهم حجة إلا قوله صلى الله عليه وسلم الطواف بالبيت صلاة وهذا لو ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لهم فيه حجة كما تقدم والأدلة الشرعية تدل على خلاف ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم لم يوجب على الطائفين طهارة ولا اجتناب نجاسة بل قال مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم والطواف ليس كذلك والطواف لا يجب فيه ما يجب في الصلاة ولا يحرم فيه ما يحرم في الصلاة فبطل أن يكون مثلها وقد ذكروا من القياس أنها عبادة متعلقة بالبيت ولم يذكروا دليلا على ذلك والقياس الصحيح ما بين فيه أن المشترك بين الأصل والفرع هو علة الحكم أو دليل العلة وأيضا فالطهارة إنما وجبت لكونها صلاة سواء تعلقت بالبيت أو لم تتعلق أو لا ترى أنهم لما كانوا يصلون إلى الصخرة كانت الطهارة أيضا شرطا فيها ولم تكن متعلقة بالبيت وكذلك أيضا إذا صلى إلى غير القبلة كما يصلي المتطوع في السفر وكصلاة الخوف راكبا فإن الطهارة ليست متعلقة بالبيت وأيضا فالنظر إلى البيت عبادة متعلقة بالبيت ولا يشترط له الطهارة ولا غيرها ثم هناك عبادة من شرطها المسجد ولم تكن الطهارة شرطا فيها كالأعتكاف وقد قال تعالى وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود الحج 16 فليس إلحاق الطائف بالراكع الساجد بأولى من إلحاقه بالعاكف بل بالعاكف أشبه لأن المسجد شرط في الطواف والركع والسجود ليس شرطا في الصلاة فإن قيل الطائف لا بد أن يصلي الركعتين بعد الطواف والصلاة لا تكون إلا بطهارة قيل وجوب ركعتي الطواف فيه نزاع وإذا قدر وجوبهما لم تجب فيهما المواولة وليس اتصالهما بالطواف بأعظم من اتصال الصلاة بالخطبة يوم الجمعة ومعلوم أنه لو خطب محدثا ثم توضأ وصلى الجمعة جاز فلأن يجوز أن يطوف محدثا ثم يتوضأ ويصلي الركعتين بطريق الأولى وهذا كثير ما يبتلى به الإنسان إذا نسي الطهارة في الخطبة والطواف فإنه يجوز له أن يتطهر ويصلي وقد نص على أنه إذا خطب وهو جنب جاز وإذا تبين أن الطهارة ليست شرطا يبقى الأمر دائرا بين أن تكون واجبة وبين أن تكون سنة وهما قولان للسلف وهما قولان في مذهب أحمد وغيره وفي مذهب أبي حنيفة لكن من يقول هي سنة من أصحاب أبي حنيفة يقول مع ذلك عليها دم وأما أحمد فإنه يقول لا شيء عليها لا دم ولا غيره كما صرح به فيمن طاف جنباً وهو ناس فإذا طافت حائضا مع التعمد توجه القول بوجود الدم عليها وأما مع العجز فهنا غاية ما يقال إن عليها دما والأشبه أن لا يجب الدم لأن هذا واجب يؤمر به مع القدرة لا مع العجز فإن لزوم الدم إنما يجب بترك مأمور وهي لم تترك مأمورا في هذه الحالة ولم تفعل محظورا من محظورات الإحرام وهذا ليس من محظورات الإحرام فإن الطواف يفعله الحلال والحرام فصار الحظر هنا من جنس حظر اللبث في المسجد واعتكاف الحائض في المسجد أو مس المصحف أو قراءة القرآن وهذا يجوز للحاجة بلا دم وطواف الإفاضة إنما يجوز بعد التحلل الأول وهي حينئذ يباح لها المحظورات إلا الجماع فإن قيل فلو كان طوافها مع الحيض ممكنا أمرت بطواف القدم وطواف الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم أسقط طواف الوداع عن الحائض وأمر عائشة لما قدمت وهي متمتعة فحاضت أن تدع أفعال العمرة وتحرم بالحج فعلم أنه لا يمكنها الطواف قيل الطواف مع الحيض محظور لحرمة المسجد أو للطواف أولهما والمحظورات لا تباح إلا حال الضرورة ولا ضرورة بها إلى طواف الوداع فإن ذلك ليس من الحج ولهذا لا يودع المقيم بمكة وإنما يودع المسافر عنها فسيكون آخر عهده بالبيت وكذلك طواف القدم ليست مضطرة إليه بل لو قدم الحاج وقد ضاق الوقت عليه بدأ بعرفة ولم يطف للقدم فهو إن أمر بهما القادر عليهما إما أمر إيجاب فيهما أو في أحدهما أو استحباب فإن للعلماء في ذلك أقوالا وليس واحد منهما ركنا يجب

على كل حاج بالسنة الثابتة باتفاق العلماء بخلاف طواف الفرض فإنها مضطرة إليه لأنه لا حج إلا به وهذا كما يباح لها دخول المسجد للضرورة ولا تدخله لصلاة ولا اعتكاف وإن كان منذورا بل المعتكفة إذا حاضت خرجت من المسجد ونصبت لها قبة في فئانه وهذا أيضا يدل على أن منع الحائض كمنعها من الاعتكاف فيه لحرمة المسجد وإلا فالحيض لا يبطل اعتكافها لأنها مضطرة إليه بل إنما منع من المسجد لا للاعتكاف فإنها ليست مضطرة إلى أن تقيم في المسجد ولو أبيض لها ذلك مع دوام الحيض لكان في ذلك إباحة المسجد للحيض وأما الطواف فلا يمكن إلا في المسجد الحرام فإنه مختص ببقعة معينة ليس كالاعتكاف فإن المعتكف يخرج من المسجد لما لا بد منه كقضاء الحاجة والأكل والشرب وهو معتكف في حال خروجه من المسجد ليس له في تلك الحال أن يباشر النساء وهو كما قال تعالى {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} البقرة 187 وقوله { فِي الْمَسَاجِدِ } البقرة 187 يتعلق بقوله { عَاكِفُونَ } البقرة 187 لا بقوله {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ} البقرة 187 فإن المباشرة في المسجد لا تجوز للمعتكف ولا لغيره والمعتكف في المسجد ليس له أن يباشر إذا خرج منه لما لا بد منه فلما كان هذا يشبه الاعتكاف والحائض تخرج لما لا بد لها منه فلم يقطع الحيض اعتكافها وقد جمع سبحانه بين العكوف والطواف والصلاة في الأمر بتطهير بيته بقوله { طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 فمنعه من الحيض من تمام طهارته والطواف كالعكوف لا كالصلاة فإن الصلاة تباح في جميع الأرض لا تختص بمسجد ويجب لها ويحرم فيها ما لا يحرم في اعتكاف ولا طواف وحقيقة الأمر أن الطواف عبادة من العبادات التي يفعلها الحلال والحرام لا تختص بالإحرام ولهذا كان طواف الفرض إنما يجب بعد التحلل الأول فيطوف الحاج الطواف المذكور في قوله تعالى {ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} الحج 29 فيطوف الحجاج وهم حلال قد قضوا حجهم ولم يبق عليه محرم إلا النساء ولهذا لو جامع أحدهم في هذه الحال لم يفسد نسكه باتفاق الأئمة وإذا كانت عبادة من العبادات فهي عبادة مختصة بالمسجد الحرام كما أن الاعتكاف يختص بجميع المساجد والله تعالى قد أمر بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود وليس هو نوعا من الصلاة فإذا تركه من نسكه فعليه دم وإذا ترك الواجب الذي هو صفة في الطواف للعجز فهذا محل اجتهاد هل يلحق بمن ترك شيئا من نسكه أو يقال هذا فيمن ترك نسكا مستقلا أو تركه مع القدرة لا عذر أو ترك ما يختص بالحج والعمرة وأما القول بأن هذه العاجزة عن الطواف مع الطهر ترجع محرمة أو تكون كالمحصر أو يسقط عنها الحج أو أن يسقط عنها طواف الفرض فهذه أقوال كلها مخالفة لأصول الشرع مع أنني لم أعلم إماما من الأئمة صرح بشيء منها في هذه الصورة وإنما كلام من قال عليها دم أو ترجع محرمة ونحو ذلك من السلف والأئمة كلام مطلق يتناول من كان يفعل ذلك في عهدهم وكان زمنهم يمكنها أن تحتبس حتى تطهر وتطوف وكانوا يأمرهم الأمراء أن يحتدوا حتى تطهر الحيض وتطعن ولهذا ألزم مالك وغيره المكاري الذي لها أن يحتبس معها حتى تطهر وتطوف ثم إن أصحابه قالوا لا يجب على مكاريها في هذه الأزمان أن يحتبس معها لما عليه في ذلك من الضرر فعلم أن أجوبة الأئمة يكون الطهارة من الحيض شرطا أو واجبا كان مع القدرة على أن تطوف طاهرا لا مع العجز عن ذلك اللهم إلا أن يكون منهم من قال بالاشتراط أو الوجوب في الحاليين فيكون النزاع مع من قال ذلك والله تعالى أعلم آخر ما وجه في هذه المسألة الجليلة الجميلة العزيزة الفائدة والحمد¹

10- الهدى المسوق لا ينحر حتى يقضى التفث

وإذا كانت عمرة المتمتع جزءا من حجة فالهدى المسوق لا ينحر حتى يقضى التفث كما قال تعالى {ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} الحج 29 وذلك إشارة إلى الهدى المسوق فإنه نذر ولهذا لو عطب دون محله وجب نحره لأن نحره إنما يكون عند بلوغه محله وإنما يبلغ محله إذا بلغ صاحبه محله لأنه تبع له وإنما

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 522-540 و مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 215-219 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:

يبلغ صاحبه محله يوم النحر اذ قبل ذلك لا يحل مطلقا لانه يجب عليه ان يحج بخلاف من اعتمر عمرة مفردة فانه حل حلا مطلقا¹

11-محظورات الإحرام

قال تعالى **{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَنَّهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** الحج 29 محظورات الإحرام تسع حلق الشعر وقلم الظفر وجملة ذلك أن المحرم يحرم عليه أشياء ويكره له أشياء فمما يحرم عليه أن يزيل شيئا من شعره بحلق أو نتف أو قطع أو تنور أو إحراق أو غير ذلك سواء في ذلك شعر الرأس والبدن والفخذ الذي يسن ازالته لغير الحرام كشعر العانة والابط والذبيح والذبح والحلق والتقصير أن يزيل شيئا من ظفره لأن الله سبحانه قال **{وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ}** البقرة 196 وأيضا قوله سبحانه **{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَنَّهُمْ}** الحج 29 فروى عطاء عن ابن عباس قال التفت الدماء والذبح والحلق والتقصير والأخذ من الشارب والأظفار واللحية وعن عطاء قال الحلق وتقليم الأظفار ومناسك الحج وعن محمد بن كعب قال الشعر والأظفار رواه أبو سعيد الأشج وعن أبي طلحة عن ابن عباس يعني بالتفت وضع احرامهم من حلق الرأس وليس الثياب وقص الأظفار ونحو ذلك وعن مجاهد قال التفت حلق الرأس وتقليم الأظفار وفي رواية حلق الرأس وقص الشارب وقلم الأظفار ونتف الابط وحلق العانة وقص اللحية والشارب والأظفار ورمى الجمار فعلم أنه كان ممنوعا من ذلك قبل الاحرام ولأن ذلك اجماع سابق قال أحمد في في رواية حبيش بن سندی شعر الرأس واللحية والابط سواء لا أعلم أحدا فرق بينهما ولأن ازالة ذلك ترفه وتنعم²

فيما يحصل به التحلل الأولى وفي روايتان منصوصتان إحداهما يحصل بمجرد الرمي فلو لبس قبل الحلق أو تطيب أو قتل الصيد لم يكن عليه شيء قال في رواية عبد الله وأبي الحارث حجه فاسد إذا وطئ قبل أن يرمي وإن كان قد وقف بعرفة لأن الاحرام قائم عليه فإذا رمي الجمرة انتقض بعض إحرامه وحل له كل شيء إلا النساء وقال في رواية ابن منصور وقد سئل عن المحرم يغسل رأسه قبل أن يحلق فقال إذا رمي الجمرة فقد انتقض إحرامه إن شاء غسله لأن في حديث ابن عباس إذا رميت الجمرة فقد حل لكم كل شيء وكذلك في حديث عائشة من رواية أبي داود والثانية بالرمي والحلاق قال القاضي وهو أصح الروايتين قال في رواية المروزي إبدأ بشق رأسك الأيمن وأنت متوجه إلى الكعبة وقل اللهم هذه ناصيتي بيدك اجعل لي بكل شعرة نورا يوم القيامة اللهم بارك لي في نفسي وتقبل عملي وخذ من شاربك وأظفارك ثم قد حل من كل شيء إلا النساء والمرأة تقصر من شعرها وتقول مثل ذلك وقد نص في مواضع كثيرة على أن المعتمر ما لم يحلق أو يقصر فهو محرم لأن في حديث عائشة إذا رميت وحلقتم وهذه زيادة واختلف أصحابنا في مأخذ هذا الاختلاف على طرق فقال القاضي في المجرى وأبو الخطاب وجماعات من أصحابنا هذا مبنى على أن الحلق هل هو نسك أو طلاق من محظور وخرجوا في ذلك روايتين إحداهما أنه اطلاق من محظور بمنزلة تقليم الأظفار وأخذ الشارب وليس الثياب والطيب لأنه محظور في حال الاحرام فكان في وقته اطلاق محظور كسائر المحظورات من اللبس والطيب ولأنه لو كان نسكا من أعمال الحج لم يجب بفعله حال الاحرام دم كسائر المناسك من الطوافين والوقوفين والرمى وسبب هذا أن الحلق هو من جملة لقاء التفت وازالة الشعث والغبار ونوع من الترفه وذلك بالمباحات أشبه منه بالعبادات وأصحاب هذا القول ربما استحَبوا الحلاق من حيث هو نظافة للطواف كما يستحب الحلق والتقليم والاعتسال لا لأمر يختص بالنسك وعلى هذا القول لا فرق بين حلق الرأس وحلق العانة واعلم أن هذا القول غلط على المذهب ليس عن

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 167

²شرح العمدة ج: 3 ص: 7-5

أحمد ما يدل على هذا بل كلامه كله دليل على أن الحلق من المناسك وإنما توهم ذلك من توهمه حيث لم يوقف التحلل عليه أو حيث لم يقيد النسك بالوطء قبله وهذه الأحكام لها مأخذ آخر ثم هو خطأ في الشريعة كما سيذكره الطريقة الثانية أن الحلق أو التقصير نسك يثاب على فعله ويعاقب على تركه من غير تردد لكن هل يتوقف التحلل الأول عليه على روايتين فإن قيل يتوقف التحلل عليه فهو كالرمي والسلام في الصلاة وإن لم يتوقف التحلل عليه فهو كالمبيت بمنى وكرمى الجمار أيام منى وكسجود السهو بعد الصلاة وهذه طريقة القاضي في خلافه وطريقة وهذه الطريقة أجود من التي قبلها لأن الرواية إنما اختلفت عن أحمد في وجوب الدم على من وطئ في العمرة قبل الحلاق ولم يختلف عنه أنه مسيء بذلك واختلف عنه الطريقة الثالثة أنه نسك مؤكد وتاركة مسيء بغير تردد لكن هل هو واجب بحيث إذا فات بفساد العبادة يجب عليه دم أو يعاقب على تركه على روايتين وإذا قلنا هو واجب فهل يتحلل بدونه على روايتين وهذه الطريقة أجود الطرق وهي مقتضى ما سلكه المتقدمون من أصحابنا ولا يختلف أصحابنا في اختيار كونه نسكا وذلك لأن الله سبحانه قال **{ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ} الحج 29** وهذه اللام لام الأمر على قراءة **{ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ} الحج 29** وأيضا فإنه سبحانه قال **{لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} الفتح 27** فجعل الحلق والتقصير شعار النسك وعلامته وعبر عن النسك بالحلق والتقصير وذلك يقتضي كونه جزء منه وبعضه له لوجوه أحدها أن العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها كقوله **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} الإسراء 78** وقوله **{فَمِ اللَّيْلِ} المزملة 2** و **{وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} الحجر 98** **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} الطور 48** ويقال صليت ركعتين وسجدتين وكذلك في الأعيان يعبر عن الشيء ببعض أجزائه كما قال **{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} النساء 92** ويقال عنده عشرة رؤوس وعشر رقاب الثاني أن الحلق والتقصير إذا كان من لوازم النسك وهو أمر ظاهر باق أثره في المناسك كان وجود النسك وجودا له فجاز أن يقصد النسك بلفظه للزومه إياه أما إذا وجد معه تارة وفارقه أخرى بحسب اختيار الإنسان كان بمنزلة الركوب والمشى لا يحسن التعبير به عنه ولا يفهم منه الثالث ويشبهه والله أعلم إنما ذكر الحلاق والتقصير دون الطواف والسعي لأنهما صفتان لبدن الإنسان ينتقلان بانتقاله والمراد بالدخول الكون فكأنه قال لتكونن بالمسجد الحرام ولتمكثن به حالفين ومقصرين وفيه أيضا تنبيه على تمام النسك لأن الحلق والتقصير إنما يكون بعد التمام لئلا يخافوا أن يصدوا عن إتمام العمرة كما صدوا عن إتمامها عام أول وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم حلق هو وجميع أصحابه وهو من الأعمال التي تناقلتها الأمة خلفا عن سلف قولاً وفعلًا فلو لم يكن ذلك عبادة ونسكا لله وطاعة لم يحافظوا عليه هذه المحافظة وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا وأيضا فإن الحلق أمر لا يشرع لغير الحج بل هو أما مكروهة أو مباح وكل أمر شرع في الحج ولم يشرع في غيره فإنه يكون نسكا كالرمي والسعي والوقوف وعكسه التقليل وبتف الأبط ولبس الثياب فإنه مشروع قبل الإحرام ففعله عودا إلى الحال الأولى أما حلق الرأس فإنه لا يشرع قبل الإحرام بحال وأيضا فحلق الرأس ليس من النظافة المأمور بها كالنقلية وأخذ الشارب ولا الزينة المندوب إليها كلبس الثياب فلو لم يكن نسكا لكان عبثا محضا إذ لا فائدة فيه أصلا وأيضا فإنه لو كان المقصود إزالة وسخ لما اكتفى بمجرد التقصير فالإكفاء به دليل على أن المقصود وضع شيء من شعره لله تعالى وأيضا فإن الحلق يجمع صفات منها أنه تحلل من الإحرام لأنه كان محظورا قبل هذا والتحلل من العبادة عبادة كالسلام ومنها أن وضع النواصي نوع من الذل والخضوع ولهذا كانت العرب إذا أرادت المن على الأسير جرت ناصيته وأرسلته وأعمال الحج مبناها على الخضوع والذل ومنها أنه قد يكون فيه ترف بالقاء وسخ الرأس وشعثه وقمله لكن هذا القدر يمكن إزالته بالترجل فلو فرض أنه من أنواع المباحات ببعض صفاته لم يمنع أن يكون من نوع العبادات بباقي الصفات فصل فإن كان معه هدى وقلنا يتحلل بالرمي فلا كلام وإن قلنا لا يتحلل إلا بالحلق قال القاضي وأصحابه مثل أبي الخطاب وابن عقيل يحصل التحلل الأول بالرمي والحلق أو بالرمي والطواف أو بالطواف والحلق على قولنا بأن التحلل نسك واجب وعلى قولنا يحصل التحلل بدونه يحصل إما بالرمي أو بالطواف¹

12- على الحاج أن يطوف بالبيت جميعه فلا يطوف في شيء منه

على الحاج أن يطوف بالبيت جميعه فلا يطوف في شيء منه لأن الله قال **{ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ }** الحج 29 فإن اخترق الحجر في طوافه أو الشاذروان لم يصح قال أحمد في رواية الأثرم فيمن طاف في الحجر فاخرقه لا يجزؤه لأن الحجر من البيت فإن كان شوطا واحدا أعاد ذلك الشوط وإن كان كل الطواف أعاده وكذلك نقل حنبل فيمن طاف واخرق الحجر لا يجزؤه ويعيد ونقل حرب كذلك لأن الله أمر بالطواف بالبيت ومن سلك شيئا من البيت في طوافه لم يطف به كله وإنما طاف فيه قال ابن عباس من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر فإن الله يقول **{ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ }** الحج 29 وقد طاف النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجر رواه الأثرم وعن عمر قال لو أن الحجر لم يكن من البيت لما طيف به وعن عائشة قالت الحجر من البيت وعن الزهري قال سمعت بعض علمائنا يقول إنما حجر الحجر فطاف الناس من ورائه إرادة أن يستوعب الناس الطواف بالبيت رواه أحمد والأصل في ذلك ما روى سالم بن عبد الله أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم فقلت يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم قال لولا حدثان قومك بالكفر لعلت قال عبد الله لأن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم وفي رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها من الحجر وعن عروة عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حدثا قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشا حين بنت استقصرت ولجعلت لها خلفا وفي رواية يعني بابا وعن الأسود عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجدر أمن البيت هو قال نعم قلت فما لهم لم يدخلوه في البيت قال إن قومك قصرت بهم النفقة قلت فما شأن بابها مرتفعا قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديث عهد بجاهلية فأخاف أن تتكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وألصق بابها بالأرض وفي رواية الحجر مكان الجدر متفق عليهم وعن يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه والزقته بالأرض ولجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم فذلك الذي حمل ابن الزبير على هدمه قال يزيد وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كاسنمة البخت قال جرير ابن حازم فقلت له يعني يزيد أين موضعه فقال أريكه الآن فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال ها هنا قال جرير فحزرت من الحجر ست أذرع أو نحوها رواه البخاري وعن سعيد بن ميناء عن عبد الله بن الزبير قال حدثتني خالتي يعني عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بشرك لهدمت الكعبة فألقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حين بنت الكعبة رواه مسلم وعن عطاء عن ابن الزبير قال إني سمعت عائشة تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الناس حديث عهد بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع ولجعلت له بابا يدخل الناس منه وبابا يخرج الناس منه رواه مسلم وعن الحارث بن عبد الله بن ربيعة أنه سمع عائشة تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حدثان عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنيه فهلمني لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع رواه مسلم وأن يطوف في المسجد الحرام فإن طاف خارج المسجد لم يصح وإن طاف فيه جاز سواء كان بينه وبين البيت حائل مثل زمزم وقبة السفاية أو طاف في الأروقة التي في جوانب المسجد أو طاف قريبا منه هذا قول وعلى هذا القول فالمصحح للطواف الكون في المسجد ولا فرق بين ما كان مسجدا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما زيد فيه على عهد عمر وبني أمية وبني العباس وقال القاضي في المجرى يجوز الطواف في المسجد وإن حال بينه وبين البيت قبة زمزم وسفايته لأن الحائل في المسجد كلا حائل وإن طاف خارج المسجد لم يجزه لأن الحائل خارج المسجد يقطع حكم المسجد كما لو ائتم بالإمام في المسجد وبينهما سورته وعلى هذا فالمنع وجود الحائل فلو فرض زوال جدار المسجد صحت الصلاة خارجه وقال ابن عقيل إن تباعد عن البيت من غير عذر لم يمنع الاجزاء لأن هذه عبادة تتعلق بالبيت فلا يؤثر في إبطالها البعد مع مسامتته ومحاذاته كالصلاة وإن

طاف حول المسجد أو حول البيت وبينه وبين البيت جدار آخر احتمل أن لا يجزئه لأنه لا يسمى طائفاً بالبيت بل بالمسجد أو الجدار الذي هو حائل ولأن البقعة التي هي محال الطواف معتبرة لقوله صلى الله عليه وسلم خذوا عني مناسككم فلا يجوز أن يجعل غير المطاف مطافاً ولأنه لو سعى في مسامته المسعى وترك السعي بين الصفا والمروة لم يجزه كذلك ها هنا ووجه الأول قوله تعالى { أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 فإنه يقتضي أن بيته معد للطائفين والعاكفين والمصلين وذلك يقتضي أن له أثر في

اختصاصه¹

13- من فاته الحج فإنه يهل بعمرة وليس عليه الحج

عن الأسود عن عمر وزيد قالاً في رجل يفوته الحج يهل بعمرة عليه الحج من قابل وعن ابن عمر كان يقول من لم يقف بعرفة إلا بعد طلوع الفجر فقد فاته الحج وليجعلها عمرة وليحج قابلاً وليهد إن وجد هدياً وإلا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع وعن عطاء عن ابن عباس من فاته الحج فإنه يهل بعمرة وليس عليه الحج رواه النجاشي وقد اتفق أصحابنا على أنه يطوف ويسعى ثم يحل واختلفت عباراتهم في هذا العمل فقال أكثرهم يتحلل بعمرة ويخرج من إحرام الحج إلى إحرام العمرة بمنزلة الذي يفسخ الحج إلى العمرة صرح بذلك أبو بكر والقاضي وأصحابه وغيرهم وهو المفهوم من كلام أحمد والخراقي قالاً إذا فاته الحج تحلل بعمرة بل هو المنصوص صريحاً عن أحمد لأنه نص على أن من فاته الحج بعد أن طاف وسعى أنه يتحلل بعمرة ولو كان إنما يفعل طواف الحج وسعيه لم يحتج إلى سعي ثانٍ ثم اختلفت عبارة هؤلاء فقال القاضي وأصحابه يتحول إحرامه بالحج إحراماً بعمرة فعلى هذا لا يحتاج إلى قصد وإرادة لأن أحمد قال يكتفيه الإهلال الأول وقال أبو بكر إذا فاته الحج جعله عمرة وعليه دم قال أحمد إذا فاته الحج جعلها عمرة وقال ابن حامد إحرام الحج باق ويتحلل منه بعمل عمرة وهو ظاهر كلام المصنف وذكر القاضي أن قول أحمد في رواية ابن القاسم في الذي يفوته الحج يفرغ من عمله إيماء إلى هذا القول وذلك لأن الإحرام بالحج أوجب عليه أفعالها كلها فتعذر الوقوف وما يتبعه لا يوجب تعذر الطواف وما يتبعه فوجب أن يكون هذا الطواف هو الطواف الذي أوجبه إحرام الحج ونحن وإن قلنا إنه يجوز له فسخ الحج إلى العمرة فإنما ذلك أن يفسخ باختياره ويأتي بعد ذلك بالحج وهنا الانتقال إلى العمرة يصير واجباً ولا حج معه فكيف يقاس هذا على فسخ الحج إلى العمرة والأول أصح لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحج عرفة وبين أن من لم يدركها لم يدرك الحج فلو كان قد بقي بعض أعمال الحج لكان إنما فاته بعض الحج ولكن قد أدرك بعض الحج ولم يكن فرق بين قوله الحج عرفة والحج الطواف بالبيت لو كان كل منهما يمكن فعله مع فوت الآخر فلما قال الحج عرفة علم أن سائر أفعال الحج معلقة به فإذا وجد أمكن أن يوجد غيره وإذا انتفى امتنع أن يوجد غيره وأيضاً فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم صرحوا بأنه يجعلها عمرة ومنهم من قال يهل بعمرة وهذا كله دليل بين في أنه يجعل إحرامه بالحج عمرة ويهل بها كما قد يجعل الرجل صلاة الفرض نفلاً نعم قد روى في بعض الطرق أن عمر قال لأبي أيوب اصنع كما يصنع المعتمر وقد حلت فإذا أدركت قابل فاحجج واهد ما تيسر من الهدى رواه النجاشي وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة لما حاضت اصنعي ما يصنع الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت وأيضاً فإن طواف الحج الواجب بعد التعريف كما أن الوقوف بمزدلفة لا يصح إلا بعده لأن الله قال {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} الحج 29 فمن لم يعرف كيف يطوف للحج ولم يقض تفتته ولم يوف نذره وأيضاً فإن العبادة المؤقتة التي يشترط الوقت لصحتها إذا فاتت زالت جميعها كالجمعة ولا يجوز أن يتم شيء منها على أنه منها بعد خروج وقتها فكيف يجوز أن يقال قد فاته الحج وبمضي فيما بقي من أفعال الحج نعم لما كان الإحرام يوجب عليه إتمامه وإتمامه إنما يكون في حج أو عمرة وقد تعذر إتمامه لحجة أتمه لعمرة لأنه لا يجوز أن يخرج من الإحرام إلا بالتحلل ولا يتحلل من قدر على البيت إلا بعمرة أو حج فكان إنتقاله إلى ما هو جنسه العبادة التي تضمنته العبادة أشبه وهذا كمن أحرم بالفرض قبل وقته فإنه

¹ شرح العمدة ج: 3 ص: 594-599

يصير نفلا لأن الصلاة اشتملت على شيئين فإذا امتنع أحدهما الآخر كذلك الحج الأصغر هو بعض الأكبر فإذا تعذر الأكبر بقى الأصغر وأيضاً فإن كونه يجوز فسخ الحج إلى العمرة فإنما ذلك إذا أمكن إتمامه كما أمر الله فأما إذا لم يمكن إتمامه صار إنتقاله إلى العمرة ضرورة و غيره فائدة هذا أنه إذا قلنا يجعل إحرامه عمرة وأن يحج كان بمنزلة من أدخل عمرة على إحرامه بالحج قبل أشهر الحج وأما أحرم بعمرة لم يصح على القولين ولو أراد أن يبقى محرماً إلى عام قابل فيحج به لم يكن له ذلك ولو بقى إلى عام قابل وطاف وسعى في أشهر متمتعاً ولو كان قارناً فإنه يفعل عمرة الفوات وعمرة القران للحج وليس عليه إلا دم واحد ابن أبي موسى ومن أهل بح الحج اجزأه دم واحد فصل وعليه القضاء من العام المقبل في عند أصحابنا مع اختيارهم أن المحصر لا قضاء عليه والروا يلزمه الهدى ولا يلزمه القضاء لأنه امتنع إتمام حجه من جهته فلم يلزمه القضاء كالمحصر وذلك لأن المفوت قد العمرة ما بقى عليه من أعمال الحج كما مقام أفعال هذه الرواية يجب عليه الهدى لم يجد الرواية يجب عليه الهدى لم يجد الأول أن الله سبحانه قال { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } البقرة 196 فأوجب الأتمام على كل أحد غير المحصر وحجة الفوت لا تتم إلا بالقضاء فوجب أن يلزمه ذلك وأيضاً ما تقدم من الحديث المرسل وأقوال الصحابة مثل عمر وزيد وان عمر وإفთاهم بذلك مثل أبي أيوب وهبار بن الأسود وغيرهم من الصحابة ولم ينكره منكر في ذلك الوقت فصار إجماعاً وإنما خالف فيه ابن عباس ولم يكن ذلك الوقت من أهل الفتيا ولأنه أخر العبادة الواجبة عليه عن وقتها فلزمه قضاؤها كما لو فوت الصلاة والعبادات المنذورة عن أوقات معينة وذلك لأنه لما أحرم بالحج فقد وجب عليه شرعاً أن يفعله في عامه كما تجب الصلوات والصيام في مواقيتها المحدودة بخلاف المحصر فإنه لم يجب عليه إتمام الحج والعمرة بل جاز له الخروج من الإحرام قبل الوقت فهو نظير من جاز له ترك الجمعة والجماعة أو ترك بعض الصلاة لعذر وقد علله بعض أصحابنا بأنه لم يكمل أفعال الحج فوجب عليه القضاء كالمفسد للحج وهذا ضعيف لأن المريض ونحوه لا تفرط من جهته ولكن أحسن من هذا ترك لعام للحج مع وصوله إلى المشاعر فلزمه القضاء سد بالحج وهذا لأن الحج في الأصل هو قصد المشاعر وإتيانها بوقت مثل الشرط لهذا المقصود والتكلمة له كأوقات فإذا تمكن من إتيان المشاعر ولم يتم الحج وجب عليه القضاء ل رمضان فلم يصم أو دخل وقت الصلاة فلم يصل وإذا إلى المشاعر فقد تعذر أصل الحج في حقه فصار بمنزلة إليه سبيلاً أو بمنزلة من لم يدرك شهر رمضان ولا وقت هذا لأن الاستطاعة في وجوب الحج والوقت شرط إذا لم يستطع الوصول إليه فقد فات شرط الوجوب وإذا وقت فقد الصحة مع إلا انعقاد بسبب الوجوب¹

14- " لا يصلى في الحجر الحجر من البيت "

قال تعالى { تَمَّ لِيَفْضُوا تَفَنَّهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } الحج 29 والمشهور نصاً ومذهباً ان الفرض لا يصح في الكعبة لأن الله سبحانه قال { فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } البقرة 144 أي نحوه و تلقاه باجماع اهل العلم لأن الشطر له معنيان هذا احدهما و الآخر بمعنى النصف و ذلك المعنى ليس مراداً فتعين الاول و إذا كان الله قد فرض تولية الوجه نحو الكعبة و ذلك هو الصلاة إليها فالمصلي فيها ليس بمصل إليها لانه لا يقال لمن صلى في دار أو حانوت أنه مصل إليه و كذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما إنما امر الناس ان يصلوا إلى الكعبة و لم يؤمروا ان يصلوا فيها و لأن التوجه إليها إنما يكون باستقبالها كلها أي استقبال جميع ما يحاذيه منها فاذا استقبل بعضها فليس بموول وجهه إلى الكعبة بل إلى بعض ما يسمى كعبة و لانه إذا استقبل البعض و استدبر البعض فليس وصفه باستقبالها باولى من وصفه باستدبارها بل استدبار بعضها ينافي الاستقبال المطلق و لهذا قال ابن عباس لا تجعل شيئاً من البيت خلفك ذكره احمد يبين هذا ان الله سبحانه امر بالطواف به كما امر بالصلاة اليه و إخراجها مخرجا واحدا في قوله تعالى { أَنْ طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } البقرة 125 و قال

¹ شرح العمدة ج: 3 ص: 661-669

تعالى { **وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } الحج 29 كما قال تعالى { **قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } البقرة 149 ثم الطواف فيه لا يجوز فكذلك الصلاة فيه و لما وجب على الطائف ان يطوف به كله وجب على المصلي ان يستقبله كله و استقبال جميعه يحصل بان تكون القبلة كلها امامه و ان خرج بعضها عن مسامحة بدنه و محاذاته فان المطابقة ليس من معنى الاستقبال في شيء اذ لو كانت من معناه ما صح ان يستقبل الجسم الكبير للصغير و لا الصغير للكبير نعم لو خرج هو على مسامتتها ببعضه لم يكن مستقبلا لها فعلى هذا لا يصلي الفرض في الحجر نص عليه فقال لا يصلي في الحجر الحجر من البيت¹

15- حكم الترتيب بين الذبح والحلق

قال تعالى { **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } الحج 29 إذا أخل بالترتيب بين الذبح والحلق فإن الجاهل يعذر بلا خلاف في المذهب وأما العالم المتعمد فعن احمد روايتان

والسنة إنما جاءت عن النبي كان يسأل عن ذلك فيقول افعل ولا حرج لأنهم قدموا وأخروا بلا علم لم يتعمدوا المخالفة للسنة وإلا فالقرآن قد جاء بالترتيب لقوله { **وَلَا تَحْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ** } البقرة 196 وقال النبي إني قلدت هديي ولبدت رأسي فلا أحل وأحلق حتى أنحر وقوله { **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** } الحج 29 أدل على الترتيب من قوله { **إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ** } البقرة 158 وقد يكون الترتيب شرطا لا يسقط بجهل ولا نسيان كما في الحديث الصحيح من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم فالذبح للأضحية مشروط بالصلاة قبله وأبو بردة بن نيار رضي الله عنه كان جاهلا فلم يعذره بالجهل بل أمره بإعادة الذبح بخلاف الذين قدموا في الحج الذبح على الرمي أو الحلق على ما قبله فإنه قال افعل ولا حرج فهاتان سنتان سنة في الأضحية إذا ذبحت قبل الصلاة أنها لا تجزئ وسنة في الهدي إذا ذبح قبل الرمي جهلا أجزأ والفرق بينهما والله أعلم أن الهدي صار نسكا بسوقه إلى الحرم وتقليده وإشعاره فقد بلغ محله في المكان والزمان فإذا قدم جهلا لم يخرج عن كونه هديا وأما الأضحية فإنها قبل الصلاة لا تتميز عن شاة اللحم كما قال النبي من ذبح قبل الصلاة فإنما هي شاة لحم قدمها لأهلها وإنما هي نسك بعد الصلاة كما قال تعالى { **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ** } الكوثر 2 وقال { **إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي** } الأنعام 162 فصار فعله قبل هذا الوقت كالصلاة قبل وقتها فهذا وقت الأضحية ووقته بعد فعل الصلاة كما بين الرسول ذلك في الأحاديث الصحيحة وهو قول الجمهور من العلماء مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم وإنما قدر وقتها بمقدار الصلاة الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد كالخرفي وفي الأضحية يشترط في أحد القولين أن يذبح بعد الإمام وهو قول مالك وأحد القولين في مذهب أحمد ذكره أبو بكر والحجة فيه حديث جابر في الصحيح وقد قيل إن قوله { **لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** } الحجرات 1 نزلت في ذلك²

16- الامر بوفاء النذر مقيد بطاعة الله

قال تعالى { **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } الحج 29 ان الامر بوفاء النذر مقيد بطاعة الله ولهذا نقل مالك في موطنه الحديث الذي أخرجه البخارى بعده عن عائشة أن رسول الله قال من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصي الله فلا يعصه مع أن القرآن ليس فيه أمر بالوفاء بالنذر بلفظ النذر

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 498- 501

² مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 419-420

مطلقا اذ قوله {يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَرِ} للإنسان 7 خبر وثناء وقوله ثم {وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ} {الحج 29} خاص لكن الله أمر بالوفاء بالعهود والعقود والنذر من ذلك¹

المضاف إلى الله نوعان

قال تعالى { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } {الحج 26} المضاف الى الله سبحانه في الكتاب والسنة سواء كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم لا يخلو من ثلاثة أقسام أحدها اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} البقرة 255 وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ} الذاريات 58 وفي حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وفي الحديث الاخر اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق فهذا فى الاضافة الاسمية واما بصيغة الفعل فكقوله {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ} البقرة 187 وقوله {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} المزملة 20 واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة 282 {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 284 وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة 282 او فعلية كقوله {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ} المزملة 20 اما المفرد فلا بد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله {بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} البقرة 255 وقوله {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} فصلت 15 او اضافة الموصوف كقوله {ذُو الْقُوَّةِ} الذاريات 58 و القسم الثانى اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} الشمس 13 وقوله {وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ} الحج 26 وقوله {رَسُولَ اللَّهِ} النساء 157 و {عِبَادَ اللَّهِ} الصافات 40 وقوله {ذُو الْعَرْشِ} غافر 15 وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} البقرة 255 فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق كما ان القسم الاول لم يختلف اهل السنة والجماعة فى انه قديم وغير مخلوق وقد خالفهم بعض اهل الكلام فى ثبوت الصفات لا فى أحكامها وخالفهم بعضهم فى قدم العلم واثبت بعضهم حدوثة وليس الغرض هنا تفصيل ذلك الثالث ما فيه معنى الصفة والفعل مثل قوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} النساء 164 وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82²

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} البقرة 255 فالمضاف فى الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بانته عنه والمضاف فى الثانى مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التى اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق والثانى إضافة عين كقوله تعالى {وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} {الحج 26}³

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 344

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 144

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 156

والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة كان صفة له وإن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة لغيره كالبيت والناقة والعبد والروح كان مخلوقاً مملوكاً مضافاً إلى خالقه ومالكة ولكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة كما اختلفت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم بيت الله وناقة الله وعباد الله كذلك اختلفت الروح المصطفاة بأن يقال لها روح الله بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنها مخلوقة لله ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف الكعبة ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته كما قال تعالى {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} {هود: 64} {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} {مريم: 17} {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} {الحجر: 29} {وَطَهَّرَ} {بَيْتِي} {الحج: 26} {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} {الشمس: 13} {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} {الحشر: 17}

إن الله فرض الحج على لسان إبراهيم عليه السلام

فإن الله فرض الحج على لسان إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} {الحج: 27} وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم²

حج البيت له صفة معلومة في الشرع

قال تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} {27} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَائِسَ الْفَقِيرِ} {28} ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ وَلِيُؤْتُوا نَدْوَاهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} {29} {الحج: 27-29} جماع معنى الحج في أصل اللغة قصد الشيء وإتيانه ومنه سمي الطريق محجة لأنه موضع الذهاب والمجيء ويسمى ما يقصد الخصم حجة لأنه يأتيه ويتحبه ومنه في الاشتقاق الأكبر الحاجة وهو ما يقصد ويطلب للمنفعة به سواء قصده القاصد لمصلحته أو لمصلحة غيره ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه وقول في حاجة الله وحاجة رسوله ومعلوم أنه إنما يقصد ويؤتى ما يعظم ويعتقد الانتفاع به وإذا كان كذلك فلا بد أن يكثر اختلاف الناس إليه فكذلك يقول بعض أهل اللغة الحج القصد ويقول بعضهم هو القصد إلى من يعظم ويقول بعضهم كثرة القصد إلى من يعظمه ورجل محجوج ومكا محجوج أي مقصود مأتي ومنه قوله وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا قال ابن السكيت يقول يكثر من الاختلاف إليه وقوله قالت تغيرتم تم بعدي فقلت لها لا والذي بيته يا سلم محجوج ثم غلب في الاستعمال الشرعي والعرفي على حج بيت الله سبحانه وتعالى وإتيانه فلا يفهم عند الإطلاق إلا هذا النوع الخاص من القصد لأنه هو المشروع الموجود كثيرا وذلك كقوله تعالى {وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} {البقرة: 196} وقال تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} {الحج: 27} وقال سبحانه {فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} {البقرة: 196} وقد بين المحجوج في قوله تعالى {وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ} {آل عمران: 97} وقوله تعالى {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا} {البقرة: 158} فإن اللام في قوله البيت لتعريف الذي تقدم ذكره في أحد الموضعين وعلمه المخاطبون في الموضع الآخر وفيه لغتان قد قرئ بهما الحج والحج والحجة بفتح الحاء وكسرهما ثم

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 151 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 249

²شرح العمدة ج: 2 ص: 200

حج البيت له صفة معلومة في الشرع من الوقوف بعرفة والطواف بالبيت وما يتبع ذلك فإن ذلك كله من تمام قصد البيت فإذا أطلق الاسم في الشرع انصرف إلى الأفعال المشروعة إما في الحج الأكبر أو الأصغر وأن الحج واجب في الجملة وهو أحد مباني الإسلام الخمس وهو من العلم المستفيض الذي توارثته الأمة وتناقلته خلفا عن سلف والأصل فيه قوله تعالى { وَنَبِّئْ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وحرف على للإيجاب لاسيما إذا ذكر المستحق فليلان على فلان وقد أتبعه بقوله { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } آل عمران 97 ليبين أن من لم يعتقد وجوبه فهو كافر وأنه إنما وضع البيت وأوجب حجة ليشهدوا منافع لهم لا حاجة إلى الحجاج كما يحتاج المخلوق إلى من يقصده ويعظمه لأن الله غني عن العالمين وكذلك قوله { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة 196 على أحد التاويلين وقوله { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا } الحج 27 فأذن فيهم إن لربكم بيتا فحجوه وأما السنة فما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت متفق عليه وفي حديث جبريل في رواية عمر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما الإسلام قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا رواه مسلم وليس الحج في حديث أبي هريرة المتفق عليه وسيأتي إن شاء الله تعالى قوله إن الله فرض عليكم الحج فحجوا رواه مسلم وغيره وأحاديث كثيرة في هذا المعنى¹

أن العمرة أيضا واجبة نص عليه أحمد في مواضع فقال في رواية الأثرم وبكر بن محمد وإسحق بن إبراهيم وأبي طالب وحرب والفضل العمرة واجبة والعمرة فريضة وذكر بعض أصحابنا عنه رواية أخرى أنها سنة لأن الله سبحانه وتعالى قال { وَنَبِّئْ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 ولم يذكر العمرة ولو كانت واجبة لذكرها كما ذكرنا لما أمر بإتمامها وبالسعي فيها في قوله { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة 196 وقوله سبحانه { فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا } البقرة 158 وكذلك أمر خليله عليه السلام بدعاء الناس إلى الحج بقوله تعالى { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } 27 { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا النَّبِيَّ الْعَقِيبَ } الحج 27-28 والاختصاص بأيام معلومات هو للحج فقط دون العمرة فعلم أنه لم يأمرهم بالعمرة وإن كانت حسنة مستحبة لأنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر معاني الإسلام قال { حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقال في حديث جبريل الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ولم يذكر العمرة وسأله ضمام بن ثعلبة عن فرائض الإسلام إلى أن قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال صدق ثم ولى ثم قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن صدق ليدخلن الجنة ولو كانت العمرة واجبة لانكر قوله لا أزيد عليهن ولم يضمن له الجنة مع ترك أحد فرائض الإسلام ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حج حجة الوداع كان معه من المسلمين مالا يحصيهم إلا الله تعالى وكل قد جاء يؤدى

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حج حجة الوداع كان معه من المسلمين مالا يحصيهم إلا الله تعالى وكل قد جاء يؤدى فرض الله تعالى عليه فلما قضى أيام منى بات بالمحصب بعد النفر وخرج من الغد قافلا إلى المدينة ولم يعتمر بعد ذلك ولم يأمر من معه بالعمرة ولا بأن يسافروا لها سفرة أخرى وقد كان فيهم المفرد والقارن وهم لا يرون أنه قد بقي عليهم فريضة أخرى بل قد سمعوا منه أن الحج لا يجب إلا في عام واحد وقد فعلوه فلو كانت العمرة واجبة كالحج لبين لهم ذلك أو لأقام ريثما أن يعتمر من لم يكن إعتمر وعن الحجاج بن ارطاة ع محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال أخبرني عن العمرة أواجبة هي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وإن تعتمر خير لك رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن

¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 75-78

صحيح ورواه الدارقطني من غير طريق الحجاج (ملاحظة هامة تبقى مثبتة في اخر هذا التفسير) باقي الادلة بالنسبة هل العمرة سنة ام فرض موجود في تفسير البقرة 196 او البقرة 158 نفس المرجع هذا¹

سبب التلبية ومعناها

وسبب التلبية ومعناها على ما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل **{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}** **{الحج 27}** قال لما أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج قال يا أيها الناس إن ربكم اتخذ بيوتا وأمركم أن تحجوه فاستحباب له ما سمعه من حجر أو شجر أو أكمة أو

تراب أو شيء فقالوا لبيك اللهم لبيك رواه آدم عن ورقاء عن عطاء ابن السائب عنه وعن مجاهد في قوله **{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوْكُ رَجَالاً}** **{الحج 27}** قال نادى إبراهيم يا أيها الناس أجيئوا ربكم وفي رواية عنه أن إبراهيم حين أمر أن يؤذن بالحج قام على المقام فقال يا أيها الناس أجيئوا ربكم قالوا لبيك لبيك فمن حج اليوم فقد أجاب إبراهيم يومئذ في أصلاب آبائهم رواهما أبو يعلى الموصلي باسناد صحيح وعنه أيضا قال أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج فقام على

المقام فتطاول حتى صار كطول الجبل فنادى يا أيها الناس أجيئوا ربكم مرتين فأجابوه من تحت التخوم السبع لبيك أجبنا لبيك أطعنا فمن يحج إلى يوم القيامة فهو ممن استجاب له فوقرت في قلب كل مسلم رواه سفيان الثوري عن منصور وسلمه بن كهيل عنه وعنه أيضا قال لما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج قام فقال يا أيها الناس أجيئوا ربكم فأجابوه اللهم لبيك وفي رواية لما أذن إبراهيم بالحج قال يا أيها الناس أجيئوا ربكم قال فلبى كل رطب ويابس وقيل لعطاء **{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوْكُ رَجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}** **{الحج 27}** إبراهيم أو محمد قال إبراهيم وفي رواية عنه قال لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس على المقام فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب فقال يا أيها الناس أجيئوا ربكم قال فأجابوه من أصلاب الرجال لبيك اللهم لبيك وإنما يحج اليوم من أجاب يومئذ رواه أبو سعيد الأشج وأما اشتقاقها فقد قال قوم إنه من قولهم ألب بالمكان إذا أقام به ولزمه ولب أيضا لغة فيه حكاها الخليل والمعنى وأنا مقيم على طاعتك ولازمها لا أبرح عنها ولا أفارقها أو أنا لازم لك ومتعلق بك لزوم الملب بالمكان وهو منصوب على المصدر بالفعل الازم إضماره كما قالوا حنانيك وسعديك ودواليك والياء فيه للتثنية وأصل المعنى لبيت مرة بعد مرة لبا بعد لب ثم صيغ بلفظ التثنية الذي يقصد به التكرار والمداومة كقوله **{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}** **{الملك 4}** وكقول حذيفة وجعل يقول بين السجدين رب اغفر لي رب اغفر لي ويقول في الاعتدال لربي الحمد لربي الحمد يريد بذلك أنه يكرر هذا اللفظ هذا قول الخليل وأكثر النحاة وزعم يونس أنها كلمة واحدة ليست مثناة وأن الياء فيها أصلية بدليل قولهم لبي يربي والأجود في اشتقاقها أن جماع هذه المادة هو العطف على الشيء والإقبال إليه والتوجه نحوه ومنه اللباب وهو نبت يلتوي على الشجر واللبلابة الرقة على الولد ولبلبت الشاة على ولدها إذا لحسته وأسلبت عليه حين تضعه ومنه لب بالمكان وألب به إذا لزمه لإقباله عليه ورجل لب ولبيب أي لازم للأمر ويقال رجل لب طب قال لبابا بإعجاز المطي لاحقا قال فقلت لها فيئي إليك فإنني حرام وإني بعد ذلك لبيب

2

الأيام المعلومات قيل هي أيام العشر

¹شرح العمدة ج: 2 ص: 90

²شرح العمدة ج: 2 ص: 582-578

قال تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} {27} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا النَّبِيسَ الْفَقِيرَ} {28} ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَوِّغُوا نُورَهُمْ وَيَلْبَسُوا بِالنَّبِيِّ الْعَمِيقِ} {29} {الحج 27-29} وقد قال الله تعالى في الحج {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} {الحج 28} فقيل الأيام المعلومات هي أيام الذبح وذكر اسم الله التسمية على الأضحية والهدى وهو قول مالك في رواية وقيل هي أيام العشر وهو المشهور عن أحمد وقول الشافعي وغيره ثم ذكر اسم الله فيها هو ذكره في العشر بالتكبير عندنا وقيل هو ذكره عند رؤية الهدى واطنه ماثورا عن الشافعي وفي صحيح البخاري أن ابن عمر وابن عباس كانا يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما وفي الصحيح عن أنس أنهم كانوا غداة عرفة وهم ذاهبون من منى إلى عرفة يكبر منهم المكبر فلا ينكر عليه ويلبى الملبى فلا ينكر عليه وفي أمثلة الأحاديث المرفوعة مثل قوله فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد وعلى قول أصحابنا يكون ذكر اسم الله على ما رزقهم كقوله {عَلَى مَا هَدَاكُمْ} البقرة 185 وكقوله {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ} البقرة 198 وكقوله {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} البقرة 151 إلى قوله {فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} البقرة 152 وعلى القول الآخر يكون مثل قوله {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} {المائدة 4} وقوله {فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} {الحج 36} ويدل عليه قوله {مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} {الحج 28} فيدل على أن ما موصولة لا مصدرية بمعنى على الذي رزقهم من بهيمة الأنعام وكذلك قوله {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} {الحج 34} وعلى قولنا يكون ذكر اسم الله عليها وقت الذبح ووقت السوق بالتلبية عندها وبالتكبير يدل عليه أنه لو أراد مجرد التسمية لم يكن للأضحية بذلك اختصاص فان اسمه مذكور عند كل ذبح لا فرق في ذلك بين الأضحية وغيرها فما وجب فيها وجب في غيرها وما لم يجب لم يجب أيضا فإنه لا يكون لقوله {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ} {الحج 27} إلى قوله {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ} {الحج 28} فجعل اتيانهم إلى المشاعر ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ولو أراد الأضحية فقط لم يكن للمشاعر بهذا اختصاص فإن الأضحية مشروعة في جميع الأرض إلا أن هذا الوجه يرد على قولنا بذكر اسم الله في جميع العشر في الأمصار فيقال لم خص ذلك بالأتين إلى المشاعر وقد يحتج به من يرى ذكر الله عند رؤية الهلال لأن الهدى يساق إلى مكة لكن عنده يجوز ذبح الهدى متى وصل فاي فائدة لتوقيته بالأيام المعلومات ويجاب عن هذا بوجهين أحدهما أن الذبح بالمشاعر أصل وبقية الأمصار تبع لمكة ولهذا كان عيد النحر العيد الأكبر ويوم النحر يوم الحج الأكبر لأنه يجتمع فيه عيد المكان والزمان الثاني أن ذكر الله هناك على ما رزقهم من الأضحية والهدى جميعا بخلاف غير مكة فإنه ليس فيها إلا الأضحية وهي مختصة بالأيام المعلومات فإن الهدى عندنا مؤقت فإذا ساق الهدى لم ينحره إلا عند الإحلال ولا يجوز له أن يحل حتى ينحر هديه كما قال تعالى {حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ} البقرة 196 وأمر النبي أصحابه في حجة الوداع أن يحلوا إلا من ساق الهدى فلا يحل حتى ينحره وهذا إذا قدم به في العشر بلا نزاع واما إذا قدم به قبل العشر ففيه روايتان فإن قيل فإذا كان الكتاب والسنة قد أمرا بذكره في الأيام المعلومات فهلا شرع التكبير فيها في أدبار الصلوات كما شرع في أيام العيد قيل كما شرع التكبير في ليلة الفطر إلى حين انقضاء العيد ولم يشرع عقب الصلاة لأن التكبير عقب الصلاة أوكد فاخص به العيد الكبير وأيام العيد خمسة هي أيام الاجتماع كما قال النبي يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الاسلام وهي أيام أكل وشرب وقد قال تعالى {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} البقرة 203 وهي أيام التشريق في المشهور عندنا وقول الشافعي وغيره وفيه قول آخر أنها أيام الذبح فعلى الأول يكون من ذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات والتكبير عند رمي الجمار كما قال النبي إنما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله فالذكر في هذه الآيات مطلق وإن كانت السنة قد جاءت بالتكبير في عيد النحر في صلاته وخطبته ودبر صلواته ورمي جمراته والذكر في آية الصيام يعني بالتكبير على الهداية فهذا ذكر الله وتكبير له على الهداية وهناك على الرزق وقد ثبت عن النبي أنه لما أشرف على خيبر قال الله أكبر خرجت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وكان يكبر على الأشراف مثل التكبير إذا ركب دابة وإذا علا نشزا من الأرض وإذا صعد على الصفا والمروة وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك رواه أبو داود وجاء التكبير مكررا في الأذان في أوله وفي آخره والأذان هو الذكر الرفيع وفي أثناء الصلاة وهو حال الرفع والخفض والقيام إليها كما قال تحريمها التكبير وروى أن التكبير يطفىء الحريق فالتكبير شرعا أيضا لدفع لعدو من شياطين الانس

والجن والنار التي هي عدو لنا وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار لكثرة الجمع أو لعظمة الفعل أو لقوة الحال أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة ليبين أن الله أكبر وتستولى كبرياؤه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار فيكون الدين كله لله ويكون العباد له مكبرون فيحصل لهم مقصودان مقصود العباد بتكبير قلوبهم لله ومقصود الإستعانة بانقياد سائر المطالب لكبريائه ولهذا شرع التكبير على الهداية والرزق والنصر لأن هذه الثلاث أكبر ما يطلبه العبد وهي جماع مصالحه والهدى أعظم من الرزق والنصر لأن الرزق والنصر قد لا ينتفع بهما إلا في الدنيا وأما الهدى فمنفعته في الآخرة قطعا وهو المقصود بالرزق والنصر فحصر بصريح التكبير لأنه أكبر نعمة الحق وذاتك دونه فوسع الأمر فيهما بعموم ذكر إسم الله¹

السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب

قال تعالى { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } الحج 28 قوله يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فإستطعموني أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فإستكسونى أكسكم فيقتضى أصليين عظيمين أحدهما وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } البقرة 233 وقال { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } النساء 5 فالمأمور به هو المقذور للعباد وكذلك قوله { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعِيَةٍ } 14 { يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ } 15 { أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ } 16 { الْبَلَدِ } 14- 16 وقوله { وَأَطِعمُوا الْفَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } الحج 36 وقوله { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } الحج 28 وقال { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعمِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطِعمَهُ } يس 47 فذم من يترك المأمور به إكتفاء بما يجرى به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجوب السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترب الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الإستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال على رضى الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فاطر 2 وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } يونس 107 وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } الزمر 38 وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله بترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقال { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 وقال شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 وقال { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } الشورى 10 وقال { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنُوبْنَا } الممتحنة 4 فليس من فعل شيئا أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع إشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي قضى بين رجلين فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبي إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي

أنه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز أمر بالتسبب بالمأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الإستعانة بالله فمن إكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذى هو ضد الكيس كما قال فى الحديث الآخر إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما فى الحديث الشامى الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز فى الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألو الناس فقال الله تعالى { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى } البقرة 197 فمن فعل ما أمر به من التزود فإستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله فى هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى ازواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون فى تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود بالمأمور به وفى هذه النصوص بيان غلط طوائف طائفة تضعف أمر السبب بالمأمور به فتعده نقصا او قدحا فى التوحيد والتوكل وإن تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم فى ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط إتباع الهوى فى إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فأما إن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو فى التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك كمن يصرف همته فى توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعى فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعى اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه فى عمل صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبنته لهذا الأمر اليسير الذى قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وإنقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرغ منه فى القدر هو حال الخاصة وقد قال فى الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفى الطبراني أو غيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يبسر له لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمر على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه يبسر له لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال فى حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمير عن الجواب حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزيمة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم فى أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكيفية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم فى الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها¹

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 426-430 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 179-185

ان نفس اسمائه عز وجل مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى

قال تعالى { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا النَّبِيَّ الْأَبِيَّ الْفَقِيرَ } الحج 28 ومعلوم ان نفس اسمائه عز وجل مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى ولهذا فرقت الشريعة بين ما يذكر اسم الله عليه وما لا يذكر اسم الله عليه في مثل قوله { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 118 وقوله { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 119 وقوله { وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } المائدة 4 وقول النبي لعدى بن حاتم وان خالط كلبك كلاب أخرى فلا تأكل فانك انما سميت على كلبك ولم تسم على غيره¹

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء 110 والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { وَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } الأحزاب 41 { وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ } الأعراف 205 وهذا كثير وقال { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ إِلَيْهِ تَبَيُّنًا } المزمّل 8 كما قال { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 118 { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 121 { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } المائدة 4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذي هو ألف سين ميم واما في قوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ } المزمّل 8 فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله في الذبيحة { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 118 كقوله { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } العلق 1 وقوله { بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } هود 41 فقوله { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } العلق 1 هو قراءة بسم الله في أول السور وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها وهنا يقول { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } النمل 30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم في قوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ } الإنسان 25 فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } العلق 1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ } الإنسان 25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله { وَادْكُرْ رَبَّكَ } آل عمران 41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } العلق 1 هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله²

من ساق الهدي فيه ثلاث روايات

(ناقص ن م) قال تعالى { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا النَّبِيَّ الْأَبِيَّ الْفَقِيرَ } الحج 28 وعن صدقة بن سيار قال كنت عند ابن عمر فجاهه رجل كأنه بدوي في العشر فعليك نسيكة قال وما هي قال شاة رواه سعيد ولأن الله قال { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا النَّبِيَّ الْأَبِيَّ الْفَقِيرَ } الحج 28 ووفاء النذور هو فعل ما وجب عليهم من هدى وقد جعل الله ذلك مع قضاء التفت ولأن الله قال { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } الحج 33 وهذا يقتضى أن الإنتفاع بها له وقت محدود وأيضا فإن هدي المتعة نسك فلم يجز

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 193-194

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 409-212

ذبحه إلى يوم النحر كالهدي المنذور والأضحية الواجبة ولأنه أحد أسباب التحلل فلم يجز تقديمه على يوم النحر كالحلق والرمي والطواف¹

وأما من ساق الهدي ففيه ثلاث روايات إحداهن لا ينحر هديه ولا يحل من إحرامه بتقصير ولا غيره إلى يوم النحر سواء قدم من مكة في العشر أو قبله قال في رواية حنبل إذا قدم في أشهر الحج وقد ساق الهدي لا يحل حتى ينحره والعشر أوكد إذا قدم في العشر لم يحل لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم في العشر ولم يحل وهذه الرواية هي المشهورة عند أصحابنا فيمنع من الإحلال والنحر سواء كان مفردا للحج أو متمتعا أو قارنا وهذا مما استفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم ذكر ذلك في حديث ابن عمر وعائشة تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج وتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدي ومنهم من لم يهد فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله وذكر الحديث إلى أن قال ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر متفق عليه وعن عائشة قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ومنا من أهل بحج فقدمنا مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى وسلم من أهدى بعمرة ولم يهد فليحل ومن أهدى بعمرة فأهدى فلا يحل حتى يحل نحر هدية ومن أهل بالحج فليتم حجه متفق عليه وقد تقدمت الأحاديث عن ابن عباس وجابر والبراء وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر جميع أصحابه أن يحلوا إلا من ساق الهدي وعن عائشة قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ومنا من أهل بحج فقدمنا مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى وسلم من أهدى بعمرة ولم يهد فليحل ومن أهدى بعمرة فأهدى فلا يحل حتى يحل نحر هدية ومن أهل بالحج فليتم حجه متفق عليه وقد تقدمت الأحاديث عن ابن عباس وجابر والبراء وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر جميع أصحابه أن يحلوا إلا من ساق الهدي وفي رواية لابن عباس أهل النبي صلى الله عليه وسلم بعمرة وأهل أصحابه بحج فلم يحل النبي صلى الله عليه وسلم ولا من ساق الهدي من أصحابه وحل بقيةهم وكان طلحة بن عبيد الله فيمن ساق الهدي فلم يحل رواه مسلم وعن أسماء قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان معه هدي فليقم على إحرامه ومن لم يكن معه هدي فليحل ولم يكن معي هدي فحللت وكان مع الزبير هدي فلم يحل رواه مسلم وعن أبي موسى أنه أهل بإهلال النبي صلى الله عليه وسلم قال فقدمت عليه فقال هل سقت من هدي قلت لا قال فطف بالبيت وبالصفا والمروة وكان علي قد أهل بإهلال النبي صلى الله عليه وسلم وساق الهدي فلم يحل وقد تقدم ذلك فهذه الأحاديث نصوص في أن من ساق الهدي لا يحل إلى يوم النحر سواء كان متمتعا أو مفردا أو قارنا لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع كل من ساق الهدي من الإحلال وقد كان فيهم المتمتع والمفرد والقارن ولم يستثن المتمتع ولو جاز الحل للمتمتع لوجب استثنائه وبيان ذلك لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ولأنه جعل سوق الهدي هو المانع من الإحلال ولم يعلق المنع بغيره فعلم أنه مانع في حق المتمتع كما أنه مانع من الفسخ في حق المفرد والقارن إذ لو كان هناك مانع آخر لبينه ولأن كل من جاز له الفسخ سواء كان خاصا في حق الصحابة أو عاما للمسلمين إلى يوم القيامة بمنزلة المتمتع في جواز الإحلال فلما منع أصحاب الهدي من الإحلال علم أن سوق الهدي مانع من الإحلال حيث يجوز الحل لغير السائق ولأن حديث عائشة نص خاص في المتمتع إذا ساق الهدي لا يحل حتى ينحر هديه ويقضي حجه وأيضا فإن الله سبحانه قال { وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ } البقرة 196 والحلق هو أول التحلل بمنزلة السلام من الصلاة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إنني لبدت رأسي وقلدت هدي فلا أحل حتى أنحر وقال لأصحابه من ساق الهدي فلا يحل إلى يوم النحر فعلم أن الإحلال والنحر لا يكون إلى يوم النحر فعلم أنه لا يجوز الإحلال حتى يحل نحر الهدي ولا يحل نحر الهدي إلى

¹ شرح العمدة ج: 3 ص: 334

يوم النحر كما بينه النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لأن نحر الهدى من أسباب التحلل وتقليده له وسوقه بمنزلة الاحرام للرجل ونحره بمنزلة الاحلال للرجل ولهذا قال تعالى { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى النَّبِيِّ الْعَتِيقِ } الحج 33 { وَالْهَدْيُ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ } الفتح 25 { حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ } البقرة 196 والمحل مشتق من الحل وذلك بآزاء الحرم فعلم أنه ذو حرم وإنما ينقضى الاحرام يوم النحر لأن المتمتع إنما يتم نسكه بالحج والرواية الثانية أن سائق الهدى يحل ليقصر من شعر رأسه إن شاء فأما غير ذلك من محظورات الاحرام فلا قال في رواية أبي طالب في الذي يعتمر قارنا أو متمتعا ومعه الهدى قصر من شعرك ولا تمس شاربك ولا أظفارك ولا لحيتك كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فإن شاء لم يفعل وإن شاء أخذ من شعر رأسه وهو حرام فقد بين أنه يحل من التقصير فقط ولا يحل من جميع المحظورات كما يحل الحاج إذا رمى من بعض المحظورات وذلك لما روى ابن عباس عن معاوية بن أبي سفيان قال قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص رواه البخاري ورواه مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال قال لي معاوية أني قصرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المروة بمشقص فقلت له لا أعلم هذه إلا حجة عليك وعن ابن عباس أيضا قل تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات وأبو بكر حتى مات وعمر حتى مات وعثمان حتى مات وكان أول من نهى عنها معاوية قال ابن عباس فعجبت منه وقد حدثني أنه قصر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن وفيه ليث بن سليم وعن قيس بن سعد عن عطاء عن معاوية قال أخذت من أطراف شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص كان معي بعدما طاف بالبيت وبالصفا والمروة في أيام العشر قال قيس والناس ينكرون هذا على معاوية رواه النسائي وروى أحمد نحوه وأيضا فإن قضاء العمرة يقتضى الاحلال وسوق الهدى يقتضى بقاء الاحرام فحل بالتقصير خاصة توفيه لحق العمرة ولتتميز عن الحج وبقي على إحرامه من سائر المحظورات لأجل سوق الهدى لا سيما والتقصير متردد بين النسك المحض وبين استباحة المحظورات والرواية الثالثة إن قدم في العشر لم ينحر ولم يحل وإن قدم قبل العشر نحر وحل إن شاء ثم هل يحل في العشر بالتقصير مبني على ما سبق لكن المنصوص عنه أنه يحل به قال في رواية يوسف بن موسى وحرب فيمن قدم متمتعا وساق الهدى فإن قدم في شوال نحر الهدى وحل وعليه هدي آخر وإذا قدم في العشر أقام على إحرامه ولم يحل فقيل له معاوية يقول قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص فقال إنما حل بمقدار التقصير ويرجع حراما مكانه وقال في رواية أبي طالب إذا كان قبل العشر نحر ولا يضيع لا يموت لا يسرق وهذا هو الذي ذكره القاضي في المجرى من غير خلاف قال لأن له قبل العشر أن ينحر الهدى ويبقى بلا هدي وفي العشر ليس له أن ينحر الهدى فلا يتحلل وعمامة أصحابنا على أنه ممنوع من الاحلال إذا قدم في العشر رواية واحدة وقال القاضي في خلافه هذه الرواية تقتضى أن سوق الهدى لا يمنع التحلل عنده وإنما استحباب له المقام على إحرامه إذا دخل في العشر لأنه لا يطول تلبسه بالاحرام وإذا دخل قبل العشر طال تلبسه فلا يأمن مواقعه المحظور والطريقة المشهورة هي الصواب ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنما قدموا في العشر ومنعهم من الاحلال لأجل سوق الهدى فثبت الحكم في مثل ذلك ومن قدم قبل العشر لا يشبه ذلك لأن المدة تطول فيخاف أن يموت الهدى أو يضل أو يسرق ولأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى المضحى إذا دخل العشر أن يأخذ من شعره أو بشره فالتمتع الذي معه الهدى أولى أن لا يأخذ من شعره وبشره وما قبل العشر ليس بوقت لمنع المضحى فجاز أن لا يكون وقتا لمنع المهدي ولأن العشر من أول أوقات النسك وفيها تضاعف الأعمال الصالحة وشرع التكبير الذي هو شعار العيد وهي الأيام المعلومات التي يذكر الله فيها على ما رزق من بهيمة الأنعام ولها خصائص كثيرة فجاز أن يؤخر النحر والحل فيها إلى يوم النحر بخلاف ما قبلها وعلى هذه الرواية ينحر الهدى قبل العشر وعليه هدى آخر نص عليه لأن دم المتعة لا ينحر إلا يوم النحر وإنما فائدة النحر جواز إحلاله من العمرة ومن أصحابنا من يحكى رواية أنه يجزؤه ذلك عن هدى المتعة وعلى هذه الرواية لو كان مفردا أو قارنا فهل ينحر الهدى قبل العشر وهل له أن يتحلل والرواية الأولى اختيار أصحابنا لما ذكرنا من الأحاديث الصريحة بذلك وهم وإن قدموا في العشر لكن النبي صلى الله عليه وسلم علل بعلامة عامة فقال ولأنه قال لأصحابه من كان أهدي فلا يحل من شيء حرم منه حتى يقضى حجه وهذا نهى عن التحلل بالتقصير وغيره فإنه نكرة في سياق النفي فكيف يجوز وأمر الذين لم يسوقوا الهدى أن يتحللوا بالتقصير فكيف يجوز أن يسوق الهدى بينهم في التقصير بعد إذنه فيه لمن لم يسوق الهدى دون من ساق وقال عن نفسه لا يحل منى حرام حتى يبلغ الهدى محله وهذا نص في اجتنابه كل المحرمات من التقصير وغيره ثم هم إنما أنكروا أنه أمرهم بالتقصير ولم يقصر فلو كان قد قصر زال هذا ثم هو صلى الله عليه وسلم قد خطبهم بهذا وأمرهم به وهو على المروة والناس حوله فلو كان قد قصر من شعر رأسه لم يخف ذلك على

أصحابه في مثل ذلك المشهد العظيم وكيف يقصر ولم يأمر غيره ممن ساق الهدى بالتقصير ومن تأمل أحاديث حجة الوداع وأحوالها كان كالجازم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل بشيء من الأشياء فأما حديث معاوية فحديث شاذ وقد طعن الناس فيه قديما وحديثا كما أخبر قيس فإنهم أنكروا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قصر ويشبهه والله أعلم أن يكون أصله أن معاوية قصر من رأس النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة الجعرانة فإنه في عمرة القضية لم يكن أسلم بعد والرواية الصحيحة المتصلة إنما فيها أنه قصر من رأس النبي صلى الله عليه وسلم على المروة بمشقص وكانت عمرة الجعرانة ليلا فانفرد معاوية بعلم هذا أما حجة الوداع فكان وقوفه على المروة ضحى والناس كلهم حوله ومثل هذا لا يجوز أن ينفرد بروايته الواحد وكانت الجعرانة في ذي القعدة وأما الرواية التي فيها أنه قصر من رأسه في العشر فرواية منقطعة لأن عطاء لم يسمع من معاوية ومراسيله ضعاف ويشبه أن يكون الراوي لما سمع عن معاوية أنه قصر من رأس النبي صلى الله عليه وسلم بمشقص اعتقد أنه في حجته وقد علم أن دخوله مكة كان في العشر فحمل هذا على هذا يوضح هذا ان ابن عباس احتج على معاوية بروايته هذه في جواز العمرة في أشهر الحج وهم قد كانوا يسمون كل معتمر في أشهر الحج متمتعا وإن لم يحج من عامه ولهذا سئل سعد عن المتعة قال فعلناها وهذا كان كافرا بالعرش يعني معاوية ومعاوية قد كان مسلما قبل حجة الوداع وإنما أراد فعلنا العمرة في أشهر الحج قبل أن يسلم معاوية يعني عمرة القضية فكيف ينهى عن العمرة في أشهر الحج¹

" عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله "

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُمْ لَكُمْ الْإِنْعَامَ إِلَّا مَا نَبَأَ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 وهؤلاء المشركون يضمنون إلى الشرك الكذب فإن الكذب مقرون بالشرك وقد قال تعالى { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } {30} حَقَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ {31} الحج 30-31 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } الأعراف 152²

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله مرتين ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ } {74} وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {75} القصص 74-75 وهذا الحق لله كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قال الله ورسوله أعلم قال حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا يا معاذ أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن لا يعذبهم وقال تعالى { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } {هود 50} ومثل هذا في القرآن متعدد يصف أهل الشرك بالفرية ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان كما في قوله { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } المؤمنون 117³

¹ شرح العمدة ج: 3 ص: 469-477

² مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 82 وزيارة القبور ج: 1 ص: 36

³ مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 162

والشرك أعظم من الكذب وغاية الكذب أن يشبه بالشرك كما في الحديث الصحيح عن النبي أنه قال عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله قالها مرتين أو ثلاثاً وقرأ قوله تعالى { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } {30} حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {31} الحج 30-31¹

وقد ذم من يقول الزور وإن لم يضر غيره بقوله في المتظاهرين فقال { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } المجادلة 2 وقال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 ففاعل الزور كذلك²

لفظ الرجس

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 لفظ الرجس أصله القذر و يراد به الشرك كقوله { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } الحج 30 و يراد به الخبائث المحرمة كالمطعمات والمشروبات كقوله { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا } الأنعام 145 وقوله { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ } المائدة 90³

وقال عن المنافقين { فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ } التوبة 95 وقال عن قوم لوط { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ } الأنبياء 74 وقال اللوطية عن لوط وأهله { أَخْرَجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ } الأعراف 82 قال مجاهد عن ادبار الرجال ويقال في دخول الغائط أعوذ بك من الخبث والخبائث ومن الرجس النجس الخبيث المخبث وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها وهي لا تزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن إغتسل بالماء من الجنابة فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه فإن تلك نجاسة لا يرفعها الإغتسال بالماء وإنما يرفعها الإغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات⁴

أساس الطريق الى الله هو الصدق والاخلاص

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 350

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 183

³منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 81

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 384-385

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 أن الصدق مقرون بالاخلاص الذي هو أصل الدين في الكتاب
وكلام العلماء والمشايخ قال الله تعالى { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } 30 { حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } 31 { الحج 30-31
ولهذا قال عدلت شهادة الزور الاشرار بالله مرتين وقرأ هذه الآية وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشرار بالله
وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته
سكت¹

ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دال على ذلك في مواضع كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة 119 وقوله تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } 32 { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } 33 { الزمر 32-33 } وقال تعالى لما بين
الفرق بين النبي والكاهن والساحر { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 192 { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } 193 { عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } 194 { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } 195 { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ } 196 { الشعراء 192-196 } الى قوله
{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينَ } 221 { نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } 222 { يُفُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُ هُمُ
كَاذِبُونَ } 223 { الشعراء 221-223 } وقال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ
شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } الأنعام 93 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ
تَعْدِلُوا } النساء 135²

أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك و يقوله
و يذكره و إن لم يكن معلما به لغيره و لا مخبرا به لسواه فهذه أول مراتب الشهادة ثم قد يخبره و يعلمه بذلك
فتكون الشهادة إعلاما لغيره و إخبارا له و من أخير غيره بشيء فقد شهد به سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن كما
في قوله تعالى { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِئِنَّا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } الزخرف 19
وقوله تعالى { وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا } يوسف 81 الآية ففي كلا الموضوعين إنما أخبروا خبرا مجردا و قد قال
{ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } 30 { حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } 31 { الحج 30-31 } و في الصحيحين عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال عدلت شهادة الزور الاشرار بالله قالها مرتين أو ثلاثا ثم تلى هذه الآية و إنما في الآية
{ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان و على أبي صفة و جد فلا يقوله العبد و لا
يحضره و لا يسمعه من قول غيره و الزور هو الباطل الذي قد ازور عن الحق و الاستقامة أي تحول و قد
سماه النبي صلى الله عليه وسلم شهادة الزور و قد قال في المظاهرين من نسائهم { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا } المجادلة 2 و في الصحيحين عن ابن عباس قال شهد عندي رجال مرضيون و أرضاهم عندي عمر
أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس و بعد العصر حتى تغرب الشمس و
هؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك و لم يقولوا تشهد عندك فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ في التحديث و ان
كان أحدهم قد ينطق به و منه قولهم في ما عز فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبي صلى الله عليه وسلم و

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 76 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 390

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 78

لفظه كان إقرارا و لم يقل أشهد ومنه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ } النساء 135 و شهادة المرء على نفسه هي إقراره و هذه لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء¹

{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }

قال تعالى { حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } الحج 31 في الصحيحين والسنن وقال الامام أحمد في المسند حدثنا أبو معاوية ثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال خرجنا مع رسول الله في جنازة رجل من الانصار فانتبهنا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله و جلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال استعيزوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل عليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسون منه مد بصره ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السماء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها ريح كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها على ملا من الملائكة بين السماء والارض الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهوا به الى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتابي في عليلين وأعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول له الله ربي فيقولان له وما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال فيأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول ابشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير فيقول أنا عمالك الصالح فيقول رب أقم الساعة حتى ارجع الى اهلى ومالى وقال وان العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل عليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول ايتها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حين يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى بها الى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله { لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } الأعراف 40 فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } الحج 31 فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار والبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذى يسؤوك هذا يومك

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 169

الذي كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول أنا عمك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة قلت هذا قد رواه عن البراء بن عازب غير واحد غير زاذان منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد ففي هذا الحديث أنواع من العلم منها أن الروح تبقى بعد مفارقة البدن خلافا لضلالات المتكلمين وأنها تصعد وتنزل خلافا لضلالات الفلاسفة وأنها تعاد الى البدن وأن الميت يسأل فينعم أو يعذب كما سأل عنه أهل السؤال وفيه أن عمله الصالح أو السيئ يأتيه في صورة حسنة أو قبيحة¹

ما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك

قال تعالى { حُنْفَاءُ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } الحج 31 الله هو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته وهو الله لا إله إلا هو فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره فهو المشرك فإنه كما قال الله تعالى { حُنْفَاءُ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } الحج 31 فان قوام الشيء بطبيعته الخاصة به فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحرركته الارادية وقوامها بالمراد لذاته فاذا لم تكن حركتها لارادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى ولهذا يهوي في الهاوية وهو ذنب لا يغفر لأنه فسد الأصل كالمريض الذي فسد قلبه لا ينفع مع ذلك إصلاح أعضائه²

قال النبي صلى الله عليه وسلم غيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم عليه واعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خلقك وتجعل معه الها اخر والشرك منه جليل ومنه دقيق فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه ولا شيء احب الى الله من التوحيد ولا شيء ابغض اليه من الشرك ولهذا كان الشرك غير مغفور بل هو اعظم الظلم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تغبها الرياح تارة تميلها وتعديلها اخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة³

قال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } 173 { فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } 174 { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } 175 { آل عمران 173-175 } فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء فلماذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخافن عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 439-442 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 290-292

²النبوات ج: 1 ص: 82
³الاستقامة ج: 2 ص: 60

{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } { يونس 107 } { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } { فاطر 2 } والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضررة والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { المائدة 23 } وقال { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } { إبراهيم 12 } وقال تعالى { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { آل عمران 160 } وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } { التوبة 59 } وقال تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } { الانفال 173 } { 173 } فهؤلاء قالوا حسبنا الله أى كافينا الله فى دفع البلاء وأولئك أمروا أن يقولوا حسبنا فى جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده فى إزالة الشر وفى إنالة الخير أليس الله بكاف عبده ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرّم { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } { العنكبوت 41 } { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } { 81 } { كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } { 82 } { مريم 81-82 } { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { الحج 31 } { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } { الإسراء 22 } وقال الخليل { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } { العنكبوت 17 } فمن عمل لغير الله رجاه أن ينتفع بما عمل له كانت صفتته خاسرة قال الله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِغًا وَوَجَدَ عِنْدَهُ قَوًّا هَاسِبًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } { النور 39 } وقال تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } { إبراهيم 18 }¹

شهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر

قال تعالى { حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { الحج 31 } أن الضر لا يكشفه إلا الله كما قال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } { يونس 107 } والذنوب سبب للضر والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } { الأنفال 33 } فأخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفرا وفى الحديث من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } { الشورى 30 }

فقوله { إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } { الأنبياء 87 } اعتراف بالذنوب وهو استغفار فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة وقوله { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ } { الأنبياء 87 } تحقيق لتوحيد الالهية فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى لكن جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا ب الله ولا يخاف من الله أن يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وفى الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغى أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 165

ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} { وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7 - 8 فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال { وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {المائدة:23} فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا **خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** } {الحج:31} وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } آل عمران 151 والخالص من الشرك يحصل له الأمن قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } {الأنعام:82} وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح { إِنْ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } {165} { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } {166} وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } {167} { البقرة 165-167} وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} { الإسراء 56-57} ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجي إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126 وقال { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160¹

العبادات مبناها على الشرع والإتباع لا على الهوى والابتداع

قال تعالى { **حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** } {الحج:31} العبادات مبناها على الشرع والإتباع لا على الهوى والابتداع فإن الإسلام مبنى على أصليين أحدهما أن نعبد الله وحده لا شريك له والثاني أن نعبد ما شرعه على لسان رسوله لا نعبده بالأهواء والبدع قال الله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {18} { إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } {19} { الجاثية 18-19} الآية وقال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } {الشورى:21} فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم من واجب ومستحب لا نعبده بالأموار المبتدعة كما ثبت في السنن من حديث العرياض بن سارية قال الترمذي حديث حسن صحيح وفي مسلم أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده فلا يصلى إلا لله ولا يصوم إلا لله ولا يحج إلا بيت الله ولا يتوكل إلا على الله ولا يخاف إلا الله ولا يندب إلا الله ولا يحلف إلا بالله وفي الصحيحين عن النبي صل الله عليه وسلم أنه قال إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وفي السنن من حلف بغير الله فقد أشرك وعن ابن مسعود لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا لأن الحلف بغير الله شرك والحلف بالله توحيد وتوحيد معه كذب خير من شرك معه صدق ولهذا كان غاية الكذب

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 315-316 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 255-257

أن يعدل بالشرك كما قال النبي عدلت شهادة الزور الإشراف بالله مرتين أو ثلاثا وقرأ قوله تعالى { **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ {30} حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ {31} الْحَجَّ 30-31** وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك فكيف الناذر لغير الله والناذر أعظم من الحلف ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به باتفاق المسلمين مثل أن يندر لغير الله صلاة أو صوما أو حجا أو عمرة أو صدقة ولو حلف ليفعلن شيئا لم يجب عليه أن يفعله قيل يجوز له أن يكفر عن اليمين ولا يفعل المحلوف عليه كما قال النبي من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل فإذا كان النذر لا يأتي بخير فكيف بالنذر للمخلوق ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء وإنما تنازعوا هل فيه بدل أو كفارة يمين أما لا لما رواه البخاري في صحيحه عن النبي انه قال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة فهو من الضالين كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة أو تدفع عنهم مضرة¹

{ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** }

قال تعالى { **ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** } الحج 32 قال أبو داود ثنا محمد بن منصور ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا أبي عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عمارة بن عمرو بن حزم عن أبي بن كعب قال بعثني النبي مصدقا فمررت برجل فلما جمع لي ماله لم أجد عليه فيه إلا بنت مخاض فقلت له أذ بنت مخاض فانها صدقتك فقال ذاك مالا لبن فيه ولا ظهر ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سمينة فخذها فقلت له ما أنا بأخذ ما لم أومر به وهذا رسول الله منك قريب فان أحببت أن تأتيه فتعرض عليه ما عرضت على فأفعل فإن قبله منك قبلته وإن رده عليك رددته قال فإني فاعل فخرج معي وخرج بالناقة التي عرض علي حتى قدمنا على رسول الله فقال يا نبي الله أتاني رسولك ليأخذ من صدقة مالي وأيم الله ما قام في مالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رسوله قط قبله فجمعت له مالي فزعم أن ما على الابنت مخاض وذلك ما لا لبن فيه ولا ظهر وقد عرضت عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى علي وها هي هذه قد جئتك بها يا رسول الله خذها فقال له رسول الله ذلك الذي عليك فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك قال فما هي ذه يا رسول الله قد جئتك بها فخذها قال فأمر رسول الله بقبضها ودعا له في ماله بالبركة وما في هذا الحديث من أجزاء سن أعلا من الواجب مذهب عامة أهل العلم الفقهاء المشهورين وغيرهم فقد ثبت أن إبدال الواجب بخير منه جائز بل يستحب فيما وجب بايجاب الشرع وبايجاب العبد ولا فرق بين الواجب في الذمة وما أوجبه معينا وإنما وجب في الذمة وإن كان مطلقا من وجه فانه مخصوص متميز عن غيره ولهذا لم يكن له إبدال بدونه بلا ريب وعلى هذا فلو نذر أن يقف شيئا فوقف خيرا منه كان أفضل فلو نذر أن يبني لله مسجدا وصفه أو يقف وقفا وصفه فبني مسجدا خيرا منه ووقف وقفا خيرا منه كان أفضل ولو عينه فقال الله على أن أبني هذه الدار مسجدا أو وقفها على الفقراء والمساكين فبني خيرا منها ووقف خيرا منها كان أفضل كالذي نذر الصلاة بالمسجد الأقصى وصلى في المسجد الحرام أو كانت عليه بنت مخاض فأدى خيرا منها وقد تنازع الفقهاء في الواجب المقدر إذا زاده كصدقة الفطر إذا أخرج أكثر من صاع فجوزوه أكثرهم وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم وروى عن مالك كراهة ذلك وأما الزيادة في الصفة فاتفقوا عليها والصحيح جواز الأمرين لقوله تعالى { **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } البقرة 184 وقد ثبت باتفاق أهل العلم وهو في كتب الحديث الصحاح وغيرها وكتب التفسير والفقهاء إن الله لما أوجب رمضان كان المقيم خيرا بين الصوم وبين أن يطعم كل يوم مسكينا فكان الواجب هو إطعام المسكين وندب سبحانه إلى إطعام أكثر من ذلك فقال تعالى { **أَوْ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ** } البقرة 184 ثم قال { **وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ** } البقرة 184 فلما كانوا مخيرين كانوا على ثلاث درجات أعلاها الصوم يليه أن يطعم في

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 81-82

كل يوم أكثر من مسكين وأدناها أن يقتصر على إطعام مسكين ثم إن الله حتم الصوم بعد ذلك وأسقط التخبير في الثلاثة فإن قيل ففي سنن أبي داود ثنا عبد الله بن محمد العقيلي ثنا محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم عن جهم بن الجارود عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال أهدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه نجبية فأعطى بها ثلاثمائة دينار فأتى النبي فقال يا رسول الله إنى أهديت نجبية فأعطيت بها ثلاثمائة دينار فأببيعها وأشتري بثمانها بدنا قال لا انحراها إياها فقد نهاه عن بيعها وإن يشتري بثمانها بدنا قيل هذه القضية بتقدير صحتها قضية معينة ليس فيها لفظ عام يقتضى النهى عن الأبدال مطلقا ونحن لم نجوز الأبدال مطلقا ولا يجوزه أحد من أهل العلم بدون الأصل وليس في هذا الحديث أن البديل كان خيرا من الأصل بل ظاهره أنها كانت أفضل فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الرقاب أفضل فقال أغلاها ثمننا وأنفسها عند أهلها وقد قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } الحج 32 وقد قيل من تعظيمها استحسانها واستسمانها والمغالاة في أثمانها وهذه النجبية كانت نفيسة ولهذا بذل فيها ثمن كثير فكان اهدؤها إلى الله أفضل من أن يهدى بثمانها عدد دونها والملك العظيم قد يهدى له فرس نفيسة فتكون أحب إليه من عدة أفراس بثمانها فالفضل ليس بكثرة العدد فقط بل قد قال الله تعالى { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } آل عمران 92 فما كان أحب إلى المرء إذا تقرب به إلى الله تعالى كان أفضل له من غيره وإن استويا فى القيمة فإن الهدية والأضحية عبادة بدنية ومالية ليست كالصدقة المحضه بل إذا ذبح النفيس من ماله لله تعالى كان أحب إلى الله تعالى قال بعض السلف لا يهدى أحدكم لله تعالى ما يستحى أن يهديه لكريمه وقد قال تعالى { وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ } البقرة 267 وقد قرب ابنى آدم قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر وقد ذكر أن سبب ذلك أن أحدهما قرب نفيس ماله والآخر قرب الدون من ماله والله أعلم¹

وتعظيم الشعائر واجب لقول الله قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } الحج 32 والتقوى واجبة على الخلق وقد أمر الله بها ووصى بها في غير موضع وذم من لا يتقي الله ومن استغنى عن تقواه²

عبادة القلوب هي الأصل

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } الحج 32 و حرم سبحانه ما ذبح على النصب و هو ما ذبح لغير الله و ما سمي عليه غير اسم الله و إن قصد به اللحم لا القربان و لعن النبي صلى الله عليه و آله و سلم من ذبح لغير الله و نهى عن ذبائح الجن و كانوا يذبحون للجن بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب و السنة فى غير موضع وقد قال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ } الكوثر 2 أي إنحر لربك كما قال الخليل { إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الأنعام 162 و قد قال هو و إسماعيل إذ برفعان القواعد من البيت { رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } { 127 } رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } { 128 } البقرة 128 فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ } الحج 67 و قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ } الحج 34 و قال { لَنْ يَنَالَهُ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ } الحج 37 كما قال تعالى { وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } الحج 32 فالمقصود تقوى القلوب لله و هو عبادتها له و حده دون ما سواه بغاية العبودية له و العبودية فيها غاية المحبة و غاية

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 248- 251

²شرح العمدة ج: 3 ص: 627

الذل و الإخلاص و هذه ملة إبراهيم الخليل و هذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبي صلى الله عليه و سلم إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب و النية و القصد هما عمل القلب فلا بد في المتابعة للرسول صلى الله عليه و سلم من إعتبار النية و القصد¹

الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

قال تعالى { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } الحج 33 وعتق المسجد مما يحمده ليه ولهذا قال { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } الحج 33 و قال { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ } آل عمران 96 فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضا وذلك يقتضي زيادة فضله²

تنوع الناس في العبادة والطاعة

قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهَيْكُمُ إِلَهُ وَابَشَرُ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 و أما تنوع الناس في العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال فإنهم متنوعون في ذلك أيضا وقد قال تعالى { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } المائدة 48 و قال تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } الجاثية 18 و قال تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ } الحج 67 و قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهَيْكُمُ إِلَهُ وَابَشَرُ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 و قال تعالى { وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُهَا } البقرة 148³

والاسلام دين جميع المرسلين قال نوح عليه السلام { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنِ اجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس 72 و قال الله عن ابراهيم وبنيه ما تقدم و قال يوسف الصديق { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 و قال موسى { إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 و قال في التوراة { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا } المائدة 44 قال شيخ الاسلام وقد قررت في غير هذا الموضوع الاسلام العام والخاص والايمان العام والخاص كقوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 و أما تنوع الشرائع وتعددتها فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله { قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } البقرة 144 الى قوله { وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } البقرة 148 فأخبر أن لكل أمة وجهة ولم يقل جعلنا لكل أمة وجهة بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصراني وجهة المشرق بخلاف ما ذكره في الشرع والمناهج فإنه قال { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا } المائدة 41 الى قوله { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة 50 وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم في الحدود والقصاص والديات أخبر أن التوراة { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا } المائدة 44 وهذا عام في النبيين جميعهم والربانيين والاحبار ثم لما ذكر

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 486

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 469

³قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 41

الانجيل قال {وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ} المائدة47 فامر هؤلاء بالحكم لأن الانجيل بعض ما في التوراة وافر الاكثر والحكم بما انزل الله فيه حكم بما في التوراة أيضا ثم قال {فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة48 فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجا أى سنة وسبيلا فالشرعة الشريعة وهى السنة والمنهاج الطريق والسبيل وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج الى ما جعل له ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله اليه فالأول نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته والثانى وان كان حكما غير الحكم الذى أنزل نهى له ان يترك شيئا مما انزل فيها اتباع محمد الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله وان لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه وقال تعالى فى الحج {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} الحج34 {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ} الحج67 وذكر فى أثناء السورة {لَهَدَمْتَ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} الحج40 فبين انه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر فى البقرة الوجهة التى يتوجهون اليها وقال فى سورة الجاثية بعد أن ذكر بنى اسرائيل {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} الجاثية18 الآية وقال فى النسخ ووجوب اتباعهم للرسول {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا} وأنا معكم من الشاهدين {أل عمران81} وقال {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} {156} الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون} {157} الأعراف156-157 وقد تقدم ما فى البقرة وآل عمران من أمرهم بالايمان بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك فى سورة النساء وهو كثير فى القرآن¹

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة ونهى عن الشرك عن الشرك والظلم والفواحش كما أمرت ونهت الرسل قبله والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التى اتفقت عليها الرسل التى لا بد منها وهى الإسلام العام الذى لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديننا غيره وأما السور لمدنية ففيها هذا وفيها ما يختص به محمد من الشرعة والمنهاج فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وأما الشرعة والمنهاج فقد قال عن أهل التوراة والانجيل والقرآن {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة48 وقال {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} الحج34 إلى قوله {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ} الحج67 وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة فلذلك قال {وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة148²

الأضحية الأظهر وجوبها فانها من أعظم شعائر الاسلام

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 113- 114

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 342- 343

قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا** وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 وأما الأضحية فالأظهر وجوبها أيضا فانها من أعظم شعائر الإسلام وهي النسك العام في جميع الأمصار والنسك مقرون بالصلاة في قوله { **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } الأنعام 162 وقد قال تعالى { **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ** } الكوثر 2 فأمر بالنحر كما أمر بالصلاة وقد قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } الحج 34 وقال { **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } 36 { **لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** } الحج 36-37 وهي من ملة إبراهيم الذي أمرنا بإتباع ملته وبها يذكر قصة الذبيح فكيف يجوز أن المسلمين كلهم يتركون هذا لا يفعله أحد منهم وترك المسلمين كلهم هذا أعظم من ترك الحج في بعض السنين وقد قالوا إن الحج كل عام فرض على الكفاية لأنه من شعائر الإسلام والضحايا في عيد النحر كذلك بل هذه تفعل في كل بلد هي والصلاة فيظهر بها عبادة الله وذكره والذبح له والنسك له ما لا يظهر بالحج كما يظهر ذكر الله بالتكبير في الأعياد وقد جاءت الأحاديث بالأمر بها وقد خرج وجوبها قولاً في مذهب أحمد وهو قول أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب مالك أو ظاهر مذهب مالك ونفاة الوجوب ليس معهم نص فإن عمدتهم قوله من أراد أن يضحي ودخل العشر فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره قالوا والواجب لا يعلق بالإرادة وهذا كلام مجمل فإن الواجب لا يوكل إلى إرادة العبد فيقال أن شئت فأفعله بل قد يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام كقوله { **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا** } المائدة 6 وقد قدروا فيه إذا أردتم القيام وقدروا إذا أردت القراءة فاستعد والطهارة واجبة والقراءة في الصلاة واجبة وقد قال { **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } 27 { **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** } 28 { **التكوير 27-28** } ومشية الاستقامة واجبة وأيضا فليس كل أحد يجب عليه أن يضحي وإنما تجب على القادر فهو الذي يريد أن يضحي كما قال من أراد الحج فليتعجل فإنه قد تضل الضلالة وتعرض الحاجة والحج فرض على المستطيع فقوله من أراد أن يضحي كقوله من أراد الحج فليتعجل ووجوبها حينئذ مشروط بأن يقدر عليها فاضلا عن حوائجها الأصلية كصدقة الفطر ويجوز أن يضحي بالشاة عن أهل البيت صاحب المنزل ونسائه وأولاده ومن معهم كما كان الصحابة يفعلون وما نقل عن بعض الصحابة من أنه لم يضح بل اشتري لحما فقد تكون مسألة نزاع كما تنازعوا في وجوب العمرة وقد يكون من لم يضح لم يكن له سعة في ذلك العام وأراد بذلك توبيخ أهل المباهاة الذين يفعلونها لغير الله أو أن يكون قصد بتركها ذلك العام توبيخهم فقد ترك الواجب لمصلحة راجحة كما قال لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم إنطلق معي برجال معهم حزم حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار لولا ما في البيوت من النساء والذرية فكان يدع الجمعة والجماعة الواجبة لأجل عقوبة المتخلفين فإن هذا من باب الجهاد الذي قد يضيق وقته فهو مقدم على الجمعة والجماعة ولو أن ولي الأمر كالمحتسب وغيره تخلف بعض الأيام عن الجمعة لينظر من لا يصلحها فيعاقبه جاز ذلك وكان هذا من الأعداء المبيحة لترك الجمعة فإن عقوبة أولئك واجب متعين لا يمكن إلا بهذا الطريق والنبى قد بين أنه لولا النساء والصبيان لحرق البيوت على من فيها لكن فيها من لا تجب عليه جمعة ولا جماعة من النساء والصبيان فلا تجوز عقوبته كما لا ترحم الحامل حتى تضع حملها لأن قتل الجنين لا يجوز كما في حديث الغامدية¹

الله سبحانه قد بين في القرآن أن الذبح والحج كلاهما منسك

قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا** وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 النسك في اللغة العبادة قال الجوهري النسك العبادة والناسك العابد وقد نسكك و تنسك أي تعبد و نسك بالضم أي صار ناسكا ثم خص الحج بإسم النسك لأنه أدخل في العبادة و الذل لله من غيره

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 162-165

ولهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله و العباداة له كالسعي و رمي الجمار قال النبي صلى الله عليه و سلم إنما جعل رمي الجمار و السعي بين الصفا و المروة لإقامة ذكر الله رواه الترمذي و خص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لأن إراقة الدم لله أبلغ في الخضوع و العباداة له و لهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتي نار من السماء فتأكله و لهذا قال تعالى {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا لَأَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّبِي فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} آل عمران 183 وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغرم و يكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم و أمة محمد صلى الله عليه و سلم و سع الله عليهم لكمال يقينهم و إخلصهم و أنهم يقاتلون لله و لو أكلوا المغرم و يذبحون لله و لو أكلوا القربان و لهذا كان عباد الشياطين و الأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله و لا أن يسمى غير الله على الذبائح¹

وقوله تعالى {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الأنعام 162 قد ذكروا في تفسيره الذبح لله و الحج إلى بيت الله و ذكروا أن لفظ النسك يتناول العبادة مطلقا والله سبحانه قد بين في القرآن أن الذبح و الحج كلاهما منسك قال تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} الحج 34 وقال النبي من ذبح بعد الصلاة فقد اصاب النسك و من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم عجلها لأهله وليس من النسك شيء وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {127} { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْبِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {128} البقرة 127-128 فأرى الله إبراهيم و ابنه إسماعيل المواضع التي تقصد في الحج و الأفعال التي تفعل هناك كالطواف و السعى و الوقوف و الرمي كما ذكر ذلك غير واحد من السلف²

المخبت المطمئن الخاضع لله

قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} {34} {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {35} الحج 34-35 فهم مخبتون و المخبت المطمئن الخاضع لله و الارض الخبت المطمئنة روى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي عن الثوري عن ابن أبي نجيح و بشر المخبتين قال المطمئنين و عن الضحاك المتواضعين فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم بقوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {الأنفال 2} بالتوكل عليه مع الوجل و كما قال في وصف القرآن { تَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} {الزمر 23} فذكر أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله فذكره بالذات يوجب الطمأنينة وإنما الاقشعرار و الوجل عارض بسبب ما في نفس الانسان من التقصير في حقه و التعدي لحده فهو كالزبد مع ما ينفع الناس الزبد يذهب جفاء و ما ينفع الناس يمكث في الارض فالخوف مطلوب لغيره ليدعو النفس الى فعل الواجب و ترك المحرم و أما الطمأنينة بذكره و فرح القلب به و محبته فمطلوب لذاته و لهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس³

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 484

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 369

³النبوات ج: 1 ص: 83

التوحيد يكون من الله لنفسه

قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلُمُوا** **وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } الحج 34 فان التوحيد يكون من الله لنفسه فانه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى { **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } آل عمران 18 والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه فقد وحد نفسه بنفسه كقوله { **فَالِهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } الحج 34¹

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبتها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَلْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { **فَالِهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلُمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } الحج 34²

الأعياد والمواسم لها منفعة عظيمة في دين الخلق وديناهم

قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلُمُوا** **وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } الحج 34 أن الأعياد والمواسم في الجملة لها منفعة عظيمة في دين الخلق وديناهم كانتفاعهم بالصلاة والزكاة والصيام والحج ولهذا جاءت بها كل شريعة كما قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ** } الحج 34 ثم إن الله شرع على لسان خاتم النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق على أتم الوجوه وهو الكمال المذكور في قوله تعالى { **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** } المائدة 3 ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان وهو عيد النحر ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامة المسلمين وقد نفى الله تعالى الكفر وأهله والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ويروى مرفوعا إن كل آدب يحب أن تؤتى مآدبته وإن مآدبة الله هي القرآن ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته استغنى عن طعام آخر حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكرة وتجشم وربما ضره أكله أو لم ينتفع به ولم يكن هو المغذي الذي يقيم بدنه فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 355

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

المشروعة بعض حاجته قلت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره بخلاف من صرف نهيمته وهيمته إلى المشروع فإنه تعظم محبته له ومنفعته به ويتم دينه به ويكمل إسلامه ولهذا تجد من أكثر من سماع القصاص لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن حتى ربما يكرهه ومن أكثر من السفر إلى زيارة المشاهد ونحوها لا يبقى لحج البيت المحرم في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذلك الموقع ومن أدمن على قصص الملوك وسيرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذلك الاهتمام ونظائر هذه كثيرة ولهذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع الله عنهم من السنة مثلها رواه الإمام أحمد وهذا أمر يجده من نفسه من نظر في حاله من العلماء والعباد والأمراء والعامة وغيرهم ولهذا عظمت الشريعة النكير على من أحدث البدع وحذرت منها لأن البدع لو خرج الرجل منها كفافاً لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفاً بل لا بد أن توجب له فساداً في قلبه ودينه ينشأ من نقص منفعة الشريعة في حقه إذا القلب لا يتسع للعوض والمعوض عنه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في العبيد الجاهليين إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما فيبقى اغتذاء قلبه من هذه الأعمال المبتدعة مانعاً من الاغتذاء أو من كمال الاغتذاء بتلك الأعمال النافعة الشرعية فيفسد عليه حاله من حيث لا يعلم كما يفسد جسد المغتذي بالأغذية الخبيثة من حيث لا يشعر وبهذا يتبين لك بعض ضرر البدع إذا تبين هذا فلا يخفى ما جعل الله في القلوب من التشوق إلى العيد والسرور به والاهتمام بأمره إنفاقاً واجتماعاً وراحة ولذة وسروراً وكل ذلك يوجب تعظيمه لتعلق الأغراض به فهذا جاءت الشريعة في العيد بإعلان ذكر الله فيه حتى جعل فيه من التكبير في صلاته وخطبته وغير ذلك مما ليس في سائر الصلوات فأقامت فيه من تعظيم الله وتنزيل الرحمة خصوصاً العيد الأكبر ما فيه صلاح الخلق كما دل على ذلك قوله تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} {27} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ {28} الحج 27-28 فصار ما وسع على النفوس فيه من العادات الطبيعية عونا على انتفاعها بما خص به من العبادات الشرعية فإذا أعطيت النفوس في غير ذلك اليوم حظها أو بعض الذي يكون في عيد الله ففترت عن الرغبة في عيد الله وزال ما كان له عندها من المحبة والتعظيم فنقص بسبب ذلك تأثير العمل الصالح فيه فخرست خسرانا مبينا وأقل الدرجات أنك لو فرضت رجلين أحدهما قد اجتمع اهتمامه بأمر العيد على المشروع والآخر مهتم بهذا وبهذا فإنك بالضرورة تجد المتجرد للمشروع أعظم اهتماماً به من المشترك بينه وبين غيره ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشرائع وأما الإحساس بفتور الرغبة فيجده كل أحد فإننا نجد الرجل إذا كسا أو ولاده أو وسع عليهم في بعض الأعياد المسخوطة فلا بد أن تنقص حرمة العيد المرضي من قلوبهم حتى لو قيل بل في القلوب ما يسع هذين قيل لو تجردت لأحدهما لكان أكمل¹

لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والإخلاص

قال تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} {الحج 34} ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {الزمر 29} فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {غافر 60} وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فليل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفمن الكبر ذلك قال لا

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 216

إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس از دراؤهم واحتقارهم¹

الله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه

قال تعالى { **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا** **وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } الحج 34 ومعلوم ان نفس اسمائه عز وجل مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى ولهذا فرقت الشريعة بين ما يذكر اسم الله عليه وما لا يذكر اسم الله عليه في مثل قوله { **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } الأنعام 118 وقوله { **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } الأنعام 119 وقوله { **وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** } المائدة 4 وقول النبي لعدى بن حاتم وان خالط كلبك كلاب أخرى فلا تأكل فانك انما سميت على كلبك ولم تسم على غيره²

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } الإسراء 110 والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { **ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** } الأحزاب 41 { **وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ** } الأعراف 205 وهذا كثير وقال { **وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ إِلَيْهِ تَبَيُّنًا** } المزمّل 8 كما قال { **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } الأنعام 118 { **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } الأنعام 121 { **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** } المائدة 4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذي هو ألف سين ميم واما في قوله { **وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ** } المزمّل 8 فيقال سبحانه الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله في الذبيحة { **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } الأنعام 118 كقوله { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** } العلق 1 وقوله { **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** } هود 41 فقوله { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } العلق 1 هو قراءة بسم الله في أول السور وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها وهنا يقول { **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } النمل 30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم في قوله { **وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ** } الإنسان 25 فانه يقول سبحانه الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } العلق 1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله { **وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ** } الإنسان 25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله { **وَادْكُرْ رَبَّكَ** } آل عمران 41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } العلق 1 هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

² مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 193-194

³ مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 210-212

فالاختلاف في قوله {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ} {الحج34} وقوله تعالى {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ} {الحج28} فإنه قد قيل المراد بذكر اسم الله عليها إذا كانت حاضرة وقيل بل يعم ذكره لأجلها في مغيبها وشهودها بمنزلة قوله تعالى {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ} {الحج37} أي لأجل ما هداكم كما قيل أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على زينب بخبز ولحم وأطعم فلان على ولده وذبح فلان على ولده ونحو ذلك¹

لسماع القرآن من الأدواق الكريمة ما لا يسعه خطاب

قال تعالى {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُؤِمِّي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {الحج35} وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى الأشعري يا ابا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويكون وكان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتي مزامرا من مزامير آل داود وقال مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً أي لحسنه لك تحسیناً وقال زينوا القرآن بأصواتكم وقال الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته أذناً أي استماعاً كقوله الانشقاق وأذنت لربها وحقت أي استمعت وقال صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به وقال ليس منا من لم يتغن بالقرآن ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأدواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يسعه خطاب ولا يحويه كتاب كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان²

وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته

قال تعالى {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُؤِمِّي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {الحج35} فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا { وَجِلَّتْ } {الأنفال2} بفرقت وفي قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل في اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} {المؤمنون60} قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدي في قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ} {الأنفال2} هو الرجل يريد أن يظلم او يهجم بمعصية فينزع عنه وهذا كقوله تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ} {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} {41} {النازعات40-41} وقوله {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} {الرحمن46} قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهجم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفاً من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور وترك المحذور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ولا طريق اليه اقرب من الافتقار واصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله تعالى {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ} {الأعراف154} فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 158

² أمراض القلوب ج: 1 ص: 74

ابن أبي الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما في قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} {الرحمن 46¹}

الأحوال المذكورة في القرآن هي وجل القلوب ودموع العين واقتعرات الجلود

قال تعالى {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} **الحج 35** وقد روى أبو الشيخ الاصبهاني باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال أن قوما يتخيرون الصوف يقولون أنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدى نبينا أحب إلينا وكان النبي يلبس القطن وغيره أو كلاما نحو من هذا ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشى عليه في سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة بن أوفى قاضى البصرة فانه قرأ في صلاة الفجر {فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ} {المدثر 8} فخر ميتا وكقصة ابى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المري فمات وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت ابى بكر وعبد الله بن الزبير ومحمد بن سيرين ونحوهم والمنكرون لهم مأخذان منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا يذكر عن محمد بن سيرين انه قال ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على احدهم وهو على حائط فان خر فهو صادق ومنهم من انكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدى الصحابة كما نقل عن اسماء وابنها عبد الله والذي عليه جمهور العلماء ان الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه وان كان حاله الثابت أكمل منه ولهذا لما سئل الامام أحمد عن هذا فقال قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ونحو هذا وقد نقل عن الشافعى أن اصابه ذلك وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستتراب فى صدقه لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن وهى وجل القلوب ودموع العين واقتعرات الجلود كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {الأنفال 2} وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} {الزمر 23} وقال تعالى {إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} {مريم 58} وقال {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} {المائدة 83} وقال {وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {الإسراء 109} وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرین عليها والجفاء عن الدين ما هو مدموم وقد فعلوا ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال واتمها واعلاها وكلا طرفى هذه الامور ذميم بل المراتب ثلاث احدها حال الظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب لا يلين للسمع والذكر وهؤلاء فيهم شبه من اليهود قال الله تعالى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ غَمًّا تَعْمَلُونَ} {البقرة 74} وقال تعالى {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمْدُ فَحَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} {الحديد 16} و الثانية حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشى فان ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله وقد يوجد مثل هذا فى من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب امورا دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله ومن عباد الصور من امرضه العشق أو قتله أو جنته وكذلك فى غيره ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه امر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الاسباب التى تمرضه أو تقتله أو كان احدهم مغلوبا على ذلك فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما اصابه فلا وجه للريبة كمن سمع القرآن السماع الشرعى ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك وكذلك ما يرد على

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 9-30

القلوب مما يسمونه السكر والفنا ونحو ذلك من الامور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها فانه إذا لم يكن السبب محظورا لم يكن السكران مذموما بل معذورا فان السكران بلا تمييز وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فانه يحرم بلا نزاع بين المسلمين ومن استحل السكر من هذه الامور فهو كافر وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران وهذا مذموم لأن سببه محظور وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر وهذا أيضا مذموم فانه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله إذ إزالة العقل محرم ومتى افضى إليه سبب غير شرعى كان محرما وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ولو بأمر فيها نوع من الايمان فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ولم يأذن لنا الله ان نمتع قلوبنا ولا ارواحنا من لذات الايمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا بخلاف من زال عقله بسبب مشروع أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ويحرك ساكنه ونحو ذلك وهذا لاملام عليه فيه وما صدر عنه فى حال زوال عقله فهو فيه معذور لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالمغى عليه والمجنون ونحوهما ومن زال عقله بالخمر فهل هو مكلف حال زوال عقله فيه قولان مشهوران وفى طلاق من هذه حاله نزاع مشهور ومن زال عقله بالبنج يلحق به كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعى واحمد وقيل يفرق بينه وبين الخمر لأن هذا يشتهى وهذا لا يشتهى ولهذا أوجب الحد فى هذا دون هذا وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبى حنيفة ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنونا إما بسبب خلط يغلب عليه واما بغير ذلك ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون فى النساك وقد يسمون المولهيين قال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم اعطاهم الله عقولا واحوالا فسلب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب فهذه الاحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك إذا كانت اسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا على ما فعله من الخير وما ناله من الايمان معذورا فيما عجز عنه واصابه بغير اختياره وهم اكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله ولكن من لم يزل عقله مع انه قد حصل له من الايمان ما حصل لهم أو مثله أو اكمل منه فهو افضل منهم وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فانه اسرى به إلى السماء واره الله ما اراه واصبح كبائت لم يتغير عليه حاله فحاله أفضل من حال موسى الذى خر صعقا لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة عليّة فاضلة لكن حال محمد أكمل واعلا وأفضل والمقصود أن هذه الامور التي فيها زيادة فى العبادة والاحوال خرجت من البصرة وذلك لشدة الخوف فان الذى يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمى وامثالهما امر عظيم ولا ريب ان حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم ومن خاف الله خوفا مقتصدا يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رضى الله عنهم وقد روى ان عطاء السليمى رضى الله عنه روى بعد موته فقيل له ما فعل الله بك فقال قال لى يا عطاء اما استحييت منى أن تخافى كل هذا اما بلغك أنى غفور رحيم وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضى الله عنهم وعلى ما سنه الرسول أمور توجب ان يصير الناس طرفين قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما اسرفوا فى ذلك وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق واعلاها والتحقيق انهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والامارة ونحو ذلك وخرج فيهم الرأى الذى فيه من مخالفة السنة ما انكره جمهور الناس وخيار الناس من أهل الفقه والرأى فى أولئك الكوفيين على طرفين قوم يذمونهم ويسرفون فى ذمهم وقوم يغلون فى تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلهم على الصحابة كما أن الغلاة فى أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة وهذا باب يفترق فيه الناس والصواب للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وخير القرون القرن الذى بعث فيهم وان أفضل الطرق والسبل الى الله ما كان عليه هو وأصحابه ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ} {التغابن 16} وقال إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وقال {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا} {البقرة 286} وان كثيرا من المؤمنين المتقين اولياء الله قد لا يحصل لهم من كمال العلم والايمان ما حصل للصحابة فيتقى الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلا بد أن يصدر منه خطأ اما فى علومه وأقواله وأما فى اعماله واحواله ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فان الله تعالى قال {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ}

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {البقرة 285} إلى قوله { رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِن تَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 قال الله تعالى قد فعلت فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطيء ضال مبتدع ومن جعل كل مجتهد في طاعة اخطأ في بعض الأمور مذموما معيبا ممقوتا فهو مخطيء ضال مبتدع ثم الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضا مجتهدون يصيبون تارة ويخطئون تارة وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقا وأعرض عن سيئاته وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقا وأعرض عن حسناته محاط وحال من يقول بالتحافظ وهذا من اقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع وهو ان المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه وما يحمد عليه وما يذم عليه وما يحب منه وما يبغض منه فهذا هذا¹

الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } {الحج 35} وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في اسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز والنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} } العلق 9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} } العلق 9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قيل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسامه معلوم عندهم فلا إجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 15-7

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

من أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }¹ جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آية ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } البقرة 43 وقال { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } التوبة 11 وقال { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } البينة 5 وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبي عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذ الى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب

فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمي الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينمو إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } الشمس 9 { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } الأعلى 14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى¹

وجوب الاعتناء بالصلاة ما لا يجب من الاعتناء بغيرها

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }¹ وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالانسك تارة²

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 6-8

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }
 {الحج 35} وان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال
 تعالى في غير موضع { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن
 مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و
 سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي
 والنسائي وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم و عليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل
 والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم
 اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم اقلع
 ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر و اقرأ بما تيسر
 معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع
 حتى تستوي وتطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم اقلع ذلك في صلاتك كلها
 و في رواية له ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما و باقيه مثله و في رواية و إذا فعلت هذا فقد
 تمت صلاتك و ما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه أن رجلا
 دخل المسجد فذكر الحديث و قال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ
 فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر و يحمده عز و جل و يثني عليه و يقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم
 يركع حتى يطمئن راكعا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله
 أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعدا ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل
 ذلك فقد تمت صلاته و في رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز و جل فيغسل وجهه و
 يديه إلى المرفقين و يمسح برأسه و رجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله و يحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له و تيسر و
 ذكر نحو اللفظ الأول و قال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله و
 تسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مفعدته و يقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم
 صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الترمذي و قال حديث حسن و
 الروايتان لفظ أبي داود و في رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و بما شاء الله
 أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك و امدد ظهرك و قال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على
 فخذك اليسرى و في رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز و جل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن
 و قال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن و افترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ
 من صلاتك و في رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقرا به و إلا
 فاحمد الله عز و جل و كبره و هله و قال فيه و إن انتقصت منه شيئا انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه
 وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة و أمر الله و رسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب و أمره إذا
 قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع و السجود و أمره المطلق على الإيجاب و أيضا قال له فإنك لم
 تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة و العمل لا يكون منفيا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه
 الله عز و جل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة¹

الرزق يراد به شئان

¹ القواعد النورانية ج: 1 ص: 26

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَمِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } الحج 35 و لفظ الرزق فيه إجمال فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه أو ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 وقوله تعالى { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } البقرة 254 وقوله { وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا } النحل 75 وأمثال ذلك وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تملك فيدخل فيه الحرام كما في قوله تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 وقوله عليه السلام في الصحيح فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها إجمال منع الأئمة من إطلاق ذلك نفيًا أو إثباتًا كما تقدم عن الأوزاعي وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة¹

والرزق يراد به شيان أحدهما ما ينتفع به العبد و الثاني ما يملكه العبد فهذا الثاني هو المذكور في قوله { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه وأما الأول فهو المذكور في قوله { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 وقوله إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ونحو ذلك والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار لا بالإعتبار الثاني وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالإعتبار الثاني دون الأول فإن هذا في الحقيقة مال وارثه لاماله والله أعلم²

الرجل إذا قطع الطريق و سرق أو أكل الحرام و نحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا أفتونا ماجورين ؟

الحمد لله ليس هذا هو الرزق الذي أباحه الله له ولا يجب ذلك ولا يرضاه ولا أمره أن ينفق منه كقوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 وكقوله تعالى { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } البقرة 254 ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام بل من أنفق من الحرام فإن الله يذمه ويستحق بذلك العقاب في الدنيا والآخرة بحسب دينه وقد قال الله { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ } البقرة 188 وهذا أكل المال بالباطل ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد فكما أن الله كتب ما يعمل من خير و شر وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر فكذلك كتب ما يرزقه من حلال و حرام مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام ولهذا كل ما في الوجود واقع بمشيئة الله وقدره كما تقع سائر الأعمال لكن لا عذر لأحد بالقدر بل القدر يؤمن به وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر بل الله الحجة البالغة ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصي فحجته داحضة ومن اعتذر به فعذره غير مقبول كالذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا } الأنعام 148 و الذين قالوا { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ } الزخرف 20 كما قال تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ } 56 { أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } 57 { الزمر 56-57 } وأما الرزق الذي ضمنه الله لعباده فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب و أما من ليس من التقيين فضمن له ما يناسبه بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا ثم يعاقبه في الآخرة كما قال عن الخليل { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } البقرة 126 و إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته لم يبحه لمن يستعين به على معصيته بل هؤلاء وإن أكلوا ما ضمنه

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 132

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 542

لهم من الرزق فإنه يعاقبهم كما قال { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } البقرة 126 و قال تعالى { أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ } المائدة 1 فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد في الإحرام و قال تعالى { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 فكلما أن كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق فإنه يعاقب على أخذ ما لم يباح له سواء كان محرم الجنس أو كان مستعينا به على معصية الله و لهذا كانت أموال الكفار غير مغسوبة بل مباحة للمؤمنين و تسمى فينا إذا عادت إلى المؤمنين لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لا من يعصيه بها فالمؤمنون يأخذونها بحكم الإستحقاق و الكفار يعتدون في إنفاقها كما أنهم يعتدون في أعمالهم فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفى المال إلى مستحقه¹

" إن من أعظم النفقة نفقة العلم "

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُفِيئَةَ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } الحج 35 تأول العلماء قوله { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } البقرة 3 النفقة من المال و النفقة من العلم قال الحسن البصري في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } الحج 35 قال إن من أعظم النفقة نفقة العلم أو نحو هذا الكلام و عن كعب بن عجرة قال ألا أهدي لك هدية فذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وروى ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علما ثم يعلمه أخاه المسلم و قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فإن طلبه عبادة و تعلمه لله حسنة و بذله لأهله قربة و تعليمه لمن لا يعلمه صدقة و البحث عنه جهاد و مذاكرته تسبيح و قال أبو الدرداء مات صدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون و قد نفعهم الله بها أو كما قال و في الأثر نعمة العطفية و نعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له أو كما قال و هذه صدقة الأنبياء و ورتتهم العلماء و لهذا كان معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر و الله و ملائكته يصلون على معلم الناس الخير لما في ذلك من عموم النفع لكل شيء و عكسه كاتموا العلم فإنهم يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون قال طائفة من السلف إذا كتم الناس العلم فعمل بالمعاصي احتبس القطر فنقوم البهائم اللهم عصابة بني آدم فإننا منعنا القطر بسبب ذنوبهم و بسط هذا كثير في فضل بيان العلم و ذم ضده و الغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به فالبخيل به الذي منعه و المختال إما أن يختال فلا يطلبه و لا يقبله و اما ان يختال على بعض الناس فلا يبذله و هذا كثيرا ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم و يختال به و أنه يختال عن أن يتعدى من غيره و ضد ذلك التواضع في طلبه و بذله و التكرم بذلك و قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء و الفخر و بين البخل كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } {36} الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ } {37} النساء 36-37 { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } {23} الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ } {24} الحديد 23-24 في النساء و الحديد و ضد ذلك الاعطاء و التقوى المتضمنة للتواضع كما قال { فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى } الليل 5 و قال { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } النحل 128 و هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله و الرحمة لعباد الله فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع و التواضع و ذلك اصل التقوى و الرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم و هذان هما حقيقة الصلاة و الزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله و العبودية له و التواضع له و الذل له و ذلك كله مصاد للخيلاء و الفخر و الكبر و الزكاة متضمنة لنفع الخلق و الاحسان إليهم و ذلك مصاد للبخل و لهذا و غيره كثر القرآن بين الصلاة و الزكاة في كتاب الله و قد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكرا لله أو دعاء له كما قال عبد الله بن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة و لو كنت في السوق و هذا المعنى و هو دعاء الله أي قصده و التوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع و الخضوع هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 542- 544

اسم الصلاة كصلاة القائم والقاعد والمضطجع والقارئ والأمي والناطق والأخرس وان تنوعت حرركاتها وألفاظها فإن إطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطئ المنافي للاشتراك والمجاز وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ومنهم من ادعى المجاز بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي أو مزيدة أو على غير ذلك وليس الأمر كذلك بل اسم الجنس العام المتواطئ المطلق إذا دل على نوع أو عين كقولك هذا الانسان وهذا الحيوان أو قولك هات الحيوان الذي عندك وهي غنم فهنا اللفظ قد دل على شيئين على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف على القدر المشترك وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلا أو غيرها دل على الخصوص والتعيين كما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود له في الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة فان الكلام انما يفيد بعد العقد والتركيب وذلك تقييد وتخصيص كقولك اكرم الانسان أو الانسان خير من الفرس ومثله قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ} هود:114 ونحو ذلك ومن هنا غلط كثير من الناس في المعاني الكلية حيث ظنوا وجودها في الخارج مجردة عن القيود وفي اللفظ المتواطئ حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود والتحقيق أنه لا يوجد المعنى الكلي المطلق في الخارج إلا معينا مقيدا ولا يوجد اللفظ الدال عليه في الاستعمال إلا مقيدا مخصصا وإذا قدر المعنى مجردا كان محله الذهن وحينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود في الاستعمال مجردا والمقصود هنا أن اسم الصلاة فيه عموم وإطلاق ولكن لا يستعمل إلا مقرونا بقيد وإنما يختص ببعض موارده كصلواتنا وصلاة الملائكة والصلاة من الله سبحانه وتعالى وإنما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا مع علمهم بان هذا ليس مثل هذا فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته وان كان بينهما قدر متشابه كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم ومن هذا الباب اسماء الله وصفاته التي يسمى ويوصف العباد بما يشبهها كالحى والعليم والتقدير ونحو ذلك وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل مسلم صدقة وأما الزكاة المالية المفروضة فانما تجب على بعض المسلمين في بعض الأوقات والزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم قالوا فان لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا فان لم يستطع قال يعين صانعا او يصنع لأخرق قالوا فان لم يستطع قال يكف نفسه على الشر واما قوله في الحديث الصحيح حديث ابي ذر وغيره على كل سلامى من احدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليل صدقة و امر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة فهذا إن شاء الله كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق فانه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى فيكون ذلك من الصدقة على الخلق ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة و جنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة و صدقة وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا و كل الله به ملكا كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به آمين و لك بمثل¹

" أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف "

قال تعالى { وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {36} لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } {37} الحج 36-37 قال جابر بن عبد الله كنا مع رسول الله إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك رواه أبو داود وغيره وفي الصحيحين عن ابن عمر قال كان رسول الله إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدفد كبر ثلاثا ثم قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 212-218

عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وفي صحيح البخاري عن أنس قال صلى رسول الله ونحن معه بالمدينة الظهر أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين ثم بات بها حتى أصبح ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء حمد الله وسبح وكبر ثم أهل بعمره وحج وذكر الحديث وعن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف فلما أن ولى الرجل قال اللهم اطو له البعد وهون عليه السفر رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وروى ابن ماجه منه أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي قال كان النبي وجيوشه إذا علوا شرفاً كبروا وإذا هبطوا سبحوا وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم عيد الفطر وعيد النحر في الصلاة والخطبة وفي ذهابهم إلى الصلاة وفي أيام منى الحجاج وسائر أهل الأمصار يكبرون عقيب الصلوات فإمام الصلاة يسن له الجهر بالتكبير وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب أنه كان يكبر بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون حتى ترتج منى تكبيراً وكان ابن عمر وابن عباس يخرجان إلى السوق أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما ويكبرون على قرايبهم وهديهم وضحاياهم كما كان نبيهم يقول عند الذبح بسم الله والله أكبر ويكبرون إذا رموا الجمار ويكبرون على الصفا والمروة ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه قال تعالى لما ذكر الهدي الذي يقرب في عيد النحر وهو يوم الحج الأكبر قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {36} لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } {37} الحج 36-37¹

المسئول مأمور بإجابة السائل

المسئول مأمور بإجابة السائل قال تعالى { وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } الحج 36²

الوجوب في الأصل هو الثبوت والاستقرار

قال الله تعالى { فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا } الحج 36 والوجوب في الأصل هو الثبوت والاستقرار³

ليس في اللفظ ما يدل على التسوية بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة

قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {36} لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } {37} الحج 36-37 وقد قال الله تعالى في آية الخمس { فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } الأنفال 41 ومثل ذلك في آية الفداء { مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } الحشر 7 وقال في آية الصدقات { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 232

الجواب الصحيح ج: 5 ص: 232

³مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 549

الرَّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ {التوبة 60 الآية فاطلق الله ذكر الاصناف وليس في اللفظ ما يدل على التسوية بل على خلافها فمن أوجب باللفظ التسوية فقد قال ما يخالف الكتاب والسنة إلا ترى أن الله لما قال {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ {البقرة 177 وقال تعالى {وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ {الإسراء 26 وقال تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ {النساء 8 وقال تعالى { وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ {24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {25} {المعارج 24-25 وقال تعالى { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ {الحج 36} وأمثال ذلك لم تكن التسوية في شيء من هذه المواضع واجبة بل ولا مستحبة في أكثر هذه المواضع سواء كان الاعطاء واجبا أو مستحبا بل بحسب المصلحة ونحن اذا قلنا في الهدى والاضحية يستحب ان يأكل ثلثا ويتصدق بثلث فانما ذلك إذا لم يكن هناك سبب يوجب التفضيل والا فلو قدر كثرة الفقراء لاستحبنا الصدقة الصدقة بأكثر من الثلث وكذلك إذا قدر كثرة من يهدى ا على الفقراء وكذلك الأكل فحيث كان الأخذ بالحاجة أو المنفعة كان الاعتبار بالحاجة والمنفعة بحسب ما يقع بخلاف المواريث فانها قسمت بالأنساب التي لا يختلف فيها أهلها فان إسم الإبن يتناول الكبير والصغير والقوى والضعيف ولم يكن الأخذ لا لحاجته ولا لمنفعته بل لمجرد نسبه فلهذا سوى فيها بين الجنس الواحد وأما هذه المواضع فالأخذ فيها بالحاجة والمنفعة فلا يجوز أن تكون التسوية بين الاصناف لا واجبة ولا مستحبة بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة كما كان أصل الاستحقاق معلقا بذلك والواو تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم المذكور والمذكور أنه لا يستحق الصدقة إلا هؤلاء فيشتركون في أنها حلال لهم وليس إذا اشتركوا في الحكم المذكور وهو مطلق الحل يشتركون في التسوية فان اللفظ لا يدل على هذا بحال ومثله يقال في كلام الواقف والموصي وكان بعض الواقفين قد وقف على المدرس والمعيد والقيم والفقهاء والمتفقهة وجرى الكلام في ذلك فقلنا يعطى بحسب المصلحة فطلب المدرس الخمس بناء على هذا الظن فقبل له فاعطى القيم أيضا الخمس لأنه نظير المدرس فظهر بطلان حجته آخره والحمد لله رب العالمين¹

في تسخيرها حكما ومنافع غير التكبير

قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {36} لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ {37} {الحج 36-37} ومعلوم أن في تسخيرها حكما ومنافع غير التكبير وذلك لا يقتضي أنه لهذا بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسباته وهذا كالمناسبة في قوله {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} {6} سورة يس الآية 6 فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم²

الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 257-259

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 428

قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {36} لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } {37} الحج 36-37 وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء 125 فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا¹

والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير²

{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ}

قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {36} لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } {37} الحج 36-37 فالمأمور به نوعان نوع ظاهر على الجوارح ونوع باطن في القلب النوع الثاني ما يكون باطنا في القلب كالإخلاص وحب الله ورسوله والتوكل عليه والخوف منه وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محله وهذا النوع هو أصل النوع الأول وهو أبلغ في الخير والشر من الأول فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من المأمور به ظاهرا إلا بها وإلا فلو عمل أعمالا ظاهرة بدون هذه كان منافقا وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالا ظاهرة توافقها وهي أشرف من فروعها كما قال تعالى { لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ } الحج 37 وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعتة أعظم إثما من أعمال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل والزنا والشرب والسرقة وما كان كفرا من الأعمال الظاهرة كالسجود للأوثان وسب الرسول ونحو ذلك فانما ذلك لكونه مستلزما لكفر الباطن وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفرا وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه ولم يظهر منافرتهم في أول الأمر وهنا أصول تنازع الناس فيها منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح وإنما يظهر نقيضه من غير خوف فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح فمن قال أنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئا من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمنا في الباطن وإنما هو كافر³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 139-140

فالإنسان إذا كان مقيماً على طاعة الله باطنياً وظاهراً كان في نعيم الإيمان والعلم وارد عليه من جهاته وهو في جنة الدنيا كما في الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال مجالس الذكر وقال ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة فإنه كان يكون هنا في رياض العلم والإيمان وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا يزال في علو ما دام كذلك فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل فلا يزال في هبوط مادام كذلك وقعت بينه وبين أمثاله عداوة فإن أراد الله به خيراً ثاب وعمل في حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه قال تعالى **{لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ النَّفْسَ مِنْكُمْ}** {الحج 37} فنقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}** {فاطر 10} فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فإنها لا تنال الله¹

الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب

قال تعالى **{وَالْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** {36} **{لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ النَّفْسَ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَشِرَ الْمُحْسِنِينَ}** {الحج 36-37} العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين والناس لهم في هذه الآية وهي قوله تعالى **{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}** {المائدة 27} ثلاثة أقوال طرفان ووسط فالخوارج والمعتزلة يقولون لا يتقبل الله إلا ممن اتقى الكبائر وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال والمرجئة يقولون من اتقى الشرك والسلف والأئمة يقولون لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ففعله كما أمر به خالصاً لوجه الله تعالى قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى **{لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** {هود 7} قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمل لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملاً آخر وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به ففي السنن عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها حتى قال إلا عشرها وقال ابن عباس ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها وفي الحديث رب صائم حظه من صيامه العطش ورب قائم حظه من قيامه السهر وكذلك الحج والجهاد وغيرهما وفي حديث معاذ موقوفاً ومرفوعاً وهو في السنن الغزو غزوان فغزو يبتغى به وجه الله ويطاع فيه الأمير وتنفق فيه كرائم الأموال وبياسر فيه الشريك ويجتنب فيه الفساد ويتقى فيه الغلول فذلك الذي لا يعدله شيء وغزو لا يبتغى به وجه الله ولا يطاع فيه الأمير ولا تنفق فيه كرائم الأموال ولا يبياسر فيه الشريك ولا يجتنب فيه الفساد ولا يتقى فيه الغلول فذاك حسب صاحبه أن يرجع كافاً وقيل لبعض السلف الحاج كثير فقال الداج كثير والحاج قليل ومثل هذا كثير فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم فالسعيد منهم من يكتب له نصفها وهم يفعلون السيئات كثيراً فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء وبما يقبل من الجمعة شيء وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر وكذلك سائر الأعمال وليس كل حسنة تحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقال هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يا رب فيقول لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله فيقول أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات فتوضع هذه البطاقة في كفيه والسجلات في كفة فتقلت

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 161

البطاقة وطاشت السجلات فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكباير الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة وكذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملاً خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له وفي لفظ في الصحيحين إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغيا من بغايا بني إسرائيل وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخذه فشكر الله له فغفر له وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل ما بغى سقت كلبا يغفر لها وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له قال الله تعالى **{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ}** {الحج 37} فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا والله لا يناله الدم المهرق ولا اللحم المأكول والتصديق به لكن يناله تقوى القلوب وفي الأثر أن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض وقد قال تعالى **{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}** {المؤمنون 60} وفي الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنه الصديق بل هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقله أهله وكثرة الصوارف عنه وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحدا أن يحصل له مثله ممن بعدهم وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة وهذا مما يعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد قال أبو بكر بن عياش ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى **{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدْفَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}** {الحج 25} قال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }** {التوبة 34} يصدون يستعمل لازما يقال صد صدودا أعرض كقوله **{ رَأَيْتَ الْمُتَأَفِّفِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا }** {النساء 61} ويقال صد غيره يصد²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 216- 224

² مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 61

2- قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } الحج 25 و التسوية جعل الشينين سواء¹

3- قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } الحج 25 قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } التوبة 34 يستعمل لازما يقال صد صدودا اى اعرض كما قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا } النساء 61 ويقال صد غيره يصده والوصفان يجتمعان فيهم²

4- قال تعالى { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } الحج 28 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِن تَحْفَوْهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } البقرة 271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ } المائدة 89 والثاني كقوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } التوبة 60 وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق والمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر والتقوى ولفظ الفقير و المسكين فأبها أطلق تناول ما يتناولها الآخر³

5- قال تعالى { ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 لفظ الرجس أصله القذر و يراد به الشرك كقوله { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } الحج 30 و يراد به الخبائث المحرمة كالمطعمات والمشروبات كقوله { قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا } الأنعام 145 وقوله { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ } المائدة 90⁴

6- قال تعالى { ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } الحج 30 ومن تكون لبيان الجنس فلا يقتضي أن يكون قد بقى من

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 133

²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁴منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 81

المجرور بها شيء خارج عن ذلك الجنس كما في قوله تعالى { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } الحج 30 فإنه لا يقتضى أن يكون من الأوثان ما ليس برجس وإذا قلت ثوب من حرير فهو كقولك ثوب حرير وكذلك قولك باب من حديد كقولك باب حديد وذلك لا يقتضى أن يكون هناك حرير وحديد غير المضاف إليه وإن كان الذي يتصوره كليا فإن الجنس الكلي هو ما لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه وإن لم يكن مشتركا فيه في الوجود ولما قال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم { وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا } الأحزاب 31 لم يمنع أن يكون كل منهن تقنت لله ورسوله وتعمل صالحا ولما قال تعالى { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الأنعام 54 لم يمنع هذا أن يكون كل منهم متصفا بهذه الصفة و يجوز أن يقال إنهم لو عملوا سوءا بجهالة ثم تابوا من بعده وأصلحوا لم يغفر إلا لبعضهم ولهذا تدخل من هذه في النفي لتحقيق نفي الجنس كما في قوله تعالى { وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } الطور 21 وقوله { وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 62 وقوله { فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } الحاقة 47 ولهذا إذا دخلت في النفي تحقيقا أو تقديرا أفادت نفي الجنس قطعاً لتحقيق ما ذكره والتقدير كقوله تعالى لا إله إلا الله سورة آل عمران 62 وقوله { لَا رَبِّبَ فِيهِ } البقرة 2 ونحو ذلك¹

7- قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 أن الإسلام دين و الدين مصدر دان يدين دينا إذا خضع وذل و دين الإسلام الذى إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والإسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح²

8- قال تعالى { كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } الحج 37 أي لأجل ما هداكم كما قيل أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على زينب بخبز ولحم وأطعم فلان على ولده وذبح فلان على ولده ونحو ذلك³

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 38-40

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

³ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 158

الحج 38-51

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} {38} {أُنذِرَ لِلَّذِينَ يُفَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} {39} {الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنَ دْيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {40} {الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} {41} {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ} {42} {وقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ} {43} {وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} {44} {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبَنِيَّ مَعْظَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ} {45} {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} {46} {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} {47} {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ} {48} {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَدِئْتُ الْبَشَرِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَبُتَّلٌ} {49} {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {50} {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} {51}

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا }

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} الحج 38 الذي ينفع الناس طاعة الله ورسوله وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك كما ثبت عنه في الحديث الصحيح أنه قال يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً قال إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين وقال إن أوليائي المتقون حيث كانوا ومن كانوا وقد قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} الحج 38 فهو تبارك وتعالى يدافع عن المؤمنين حيث كانوا فانه هو الدافع والسبب هو الإيمان وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئاً قال تعالى {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} النساء 69¹

وهو سبحانه بيده الخير وذلك الذي وجوده شر من عدمه فإنه سبحانه يدفعه ويمنعه أن يكون مع القيام المقتضي له كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} الحج 38 فدفعه الشر الذي تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ولو مكن تلك النفوس لفعلته فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادت مع أنها لو خليت لفعلته فهو تارة بمنع الشر بإزالة سببه ومقتضيه وتارة يخلق ما يضاده وينافيه²

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 435

²رسالة في معنى كون الرب عادلاً ج: 1 ص: 132

جميع المهاجرين والأنصار كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور } {41} الحج 39-41 الذين آمنوا بحمده واتبعوه أولا من المهاجرين كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال وصبروا على أنواع المكاره والأذى طائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له حتى يرجعوا عن دينه وطائفة كانوا بمكة يعذبون هذا يقتل وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة في الحر وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر وهذا يمنع رزقه ويترك جائعا عريانا ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم وأفضلها عندهم مكة أم القرى إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها وتركوا أموالهم بمكة قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور } {41} الحج 39-41 وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعا واختيارا قبل أن يؤمر أحد بقتال فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة لا يقاتل أحدا ولم يؤمر بقتال بل كان لا يكره أحد على الدين كما قال تعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي } البقرة 256 وكانوا خلقا كثيرا ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصا قد جاء بدين لا يوافق عليه أحد وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ويفارقوا دين آبائهم ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن وهو مع ذلك لم يعط أحدا منهم مالا ولا كان له مال يعطيهم إياه ولا ولي أحد ولاية ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها ولا أكره أحدا ولا بقرصة في جلده فضلا عن سوط أو عصا أو سيف ذلك لم يعط أحدا منهم مالا ولا كان له مال يعطيهم إياه ولا ولي أحد ولاية ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها ولا أكره أحدا ولا بقرصة في جلده فضلا عن سوط أو عصا أو سيف¹

المسلمون اخرجوا من ديارهم واموالهم بغير حق

ان الله سبحانه وتعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور } {41} الحج 39-41 وقال { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون } الحشر 8 وقال { وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام } البقرة 217 وقال { إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم } الممتحنة 9 فبين سبحانه ان المسلمين اخرجوا من ديارهم واموالهم بغير حق حتى صاروا فقراء بعد ان كانوا اغنياء²

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 391-393

²الصارم المسلول ج: 2 ص: 312

فإن الكفار أخرجوا المهاجرين كلهم كما قال تعالى { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } {40} {الحج 39-40} وذلك أنهم منعوهم أن يقيموا بمكة مع الإيمان وهم لا يمكنهم ترك الإيمان فقد أخرجوهم إذا كانوا مؤمنين¹

اول اية نزلت في القتال

قال تعالى { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } {41} {الحج 39-41} أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال بل إنما أمره بالقتال بالمدينة وأول آية نزلت في القتال قوله { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } {الحج 39} أذن الله لهم أولا فيه ثم كتب عليهم ثانيا فقال { **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** } البقرة 216²

فآية الأذن نزلت في أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئا من السرايا وقد جادل بعد هذا الكفار³

فإباح للمؤمنين القتال دفعا عن نفوسهم وعقوبة لمن أخرجهم من ديارهم ومنعهم من توحيد الله وعبادته ثم انه كتب عليهم القتال مطلقا وفسره بقوله { **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** } البقرة 190 الآية فمن ليس من اهل القتال لم يؤذن في قتاله والنساء لسن من اهل القتال ان المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي اوائل الهجرة من الابتداء بالقتال وكان قتل الكفار حينئذ محرما وهو من قتل النفس بغير حق كما قال تعالى { **أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ السِّبْطِ وَاللَّهُ لَبِظٌ عَلَىٰ مَا تُكْمِلُونَ** } البقرة 61 { **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ** } النساء 77 ولهذا اول ما انزل من القرآن فيه نزل بالاباحة بقوله { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ** } {الحج 39} وهذا من العلم العام بين اهل المعرفة بسيرة رسول الله لا يخفى على احد منهم انه كان قبل الهجرة وبعيدها ممنوعا عن ابتداء القتال والقتال ولهذا قال للانصار الذين بايعوه ليلة العقبة لما استاذنوه في ان يميلوا على اهل منى انه لم يؤذن لي في القتال وكان في ذلك حينئذ بمنزلة الانبياء الذين لم يؤمروا بالقتال كنوح وهود وصالح وابراهيم وعيسى بل كالكثير الانبياء غير انبياء بني اسرائيل ثم انه لما هاجر لم يقاتل احدا من اهل المدينة ولم يامر بقتل احد من رؤوسهم الذين كانوا يجمعونهم على الكفر ولا من غيرهم والايات التي نزلت اذ ذلك انما تامر بقتال الذين اخرجوهم وقتلوهم ونحو ذلك وظاهر هذا انه لم يؤذن لهم اذ ذلك في ابتداء قتل الكافرين من اهل المدينة فان دوام امساکهم عنهم يدل على استحبابه او وجوبه وهو في الوجوب اظهر لما ذكرنا لان الامساک كان واجبا والمغير لحاله لم يشمل اهل المدينة فبقوا على الوجوب المتقدم مع فعله قال موسى بن عقبة عن الزهري كانت سيرة رسول الله في

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 478

² الصفدية ج: 2 ص: 317

³ الجواب الصحيح ج: 1 ص: 235

عدوه قبل ان تنزل براءة يقاتل من قاتله ومن كف يده وعاهده كف عنه قال الله تعالى { فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا } النساء 90 وكان القران ينسخ بعضه بعضا فاذا نزلت اية نسخت التي قبلها وعمل بالتي انزلت وبلغت الاولى منتهى العمل بها وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة¹

اكاد الايجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدينة

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبه الأمور } {41} الحج 39-41 فكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له فانه يجب قتاله { حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله } الأنفال 39 ولأن الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق الى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر الى المدينة فاذن له وللمسلمين بقوله تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الحج 39-40 ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى { كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون } البقرة 216 واكاد الايجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدينة ودم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى { قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين } التوبة 24 وهذا كثير في القرآن وكذلك تعظيمه وتعظيم وأهله في سورة الصف التي يقول فيها { يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم } {10} تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } {11} يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم } {12} وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين } {13} الصف 10-13 وقوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم } المائدة 54 والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ولهذا كان أفضل ما تطوع به الانسان وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد وقال ان في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والارض أعدها الله للمجاهدين في سبيله متفق عليه وقال من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار رواه البخاري وقال صلى الله عليه وسلم رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان رواه مسلم وفي السنن رباط يوم في سبيل الله خير من الف يوم فيما سواه من المنازل وقال عيان لاتمساها النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله قال الترمذي حديث حسن وفي مسند الامام احمد حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلا ويصام نهارها وفي الصحيحين ان رجلا قال يارسول الله أخبرني بشئ يعدل الجهاد في سبيل الله قال لا تستطيع قال أخبرني به قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تطفر وتقوم لا تفتر قال لا قال فذلك الذي يعدل الجهاد وفي السنن انه

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 206-210

قال إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه وهو ظاهر عند الاعتبار فان نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة فانه مشتمل من محبة الله تعالى والاخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله سائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسينيين دائما إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة فان الخلق لا بد لهم من محيا وممات ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما فان من الناس من يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قلة منفعتها فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت فموت الشهيد أيسر من كل ميتة وهي أفضل الميتات وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصودة هو ان يكون الدين كله لله وان تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين واما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا ان يقاتل بقوله أو فعله وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين والأول هو الصواب لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال الله تعالى {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} البقرة 190 وفي السنن عنه أنه مر على امرأة مقتولة في بعض مغازيه قد وقف عليها الناس فقال ماكانت هذه لتقاتل وقال لأحدهم إحق خالدا فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا وفيهما أيضا عنه أنه كان يقول لا تقتلوا شيئا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة وذلك ان الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج اليه في صلاح الخلق كما قال تعالى {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} البقرة 217 أى ان القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ولهذا قال الفقهاء إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساكت وجاء في الحديث أن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة ولهذا أوجبت الشريعة قتال الكفار ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم بل إذا أسر الرجل منهم في القتال أو غير القتال مثل ان تلقية السفينة إلينا أو يضل الطريق أو يؤخذ بحيلة فانه يفعل فيه الامام الأصلاح من قتله أو استعباده أو المن عليه أو مفادته بمال أو نفس عند أكثر الفقهاء كما دل عليه الكتاب والسنة وإن كان من الفقهاء من يرى المن عليه ومفادته منسوخا¹

ما كان من ظلم الغير فلا بد ان يشرع من عقوبته ما يدفع به ظلم الظالم عن الدين والدنيا

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } 39 { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } 40 { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } 41 { الحج 39-41 أن الذنوب كلها ظلم فاما ظلم العبد لنفسه فقط أو ظلمه مع ذلك لغيره فما كان من ظلم الغير فلا بد ان يشرع من عقوبته ما يدفع به ظلم الظالم عن الدين والدنيا كما قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } الحج 39 فجعل السبب المبيح لعقوبة الغير التي هي قتاله انهم ظلموا وقال { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } البقرة 193 فبين أن الظالم يعتدي عليه أي بتجاوز الحد المطلق في حقه وهو العقوبة وهذا عدوان جائز كما قال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 وقول بعضهم إن هذا ليس بعدوان في الحقيقة وانما سماه عدوانا على سبيل المقابلة كما قالوا مثل ذلك في قوله { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } الشورى 40 لا يحتاج اليه فان العدوان المطلق هو مجاوزة الحد المطلق وهذا لا

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 349

يجوز في حقه الا اذا اعتدى فيتجاوز الحد في حقه بقدر تجاوزه والسيئة اسم لما يسوء الانسان فان المصائب والعقوبات تسمى سيئة في غير موضع من كتاب الله تعالى¹

أن المهاجرين لم يكن فيهم منافق أصلا

وما ذكره أحمد وغيره ولا أعلم بين العلماء فيه نزاعا أن المهاجرين لم يكن فيهم منافق أصلا وذلك لأن المهاجرين إنما هاجروا باختيارهم لما آذاهم الكفار على الإيمان وهم بمكة لم يكن يؤمن أحدهم إلا باختياره بل مع احتمال الأذى فلم يكن أحد يحتاج أن يظهر الإيمان وبيطن الكفر لا سيما إذا هاجر إلى دار يكون فيها سلطان الرسول عليه ولكن لما ظهر الإسلام في قبائل الأنصار صار بعض من لم يؤمن بقلبه يحتاج إلى أن يظهر موافقة قومه لأن المؤمنين صار لهم سلطان وعز ومنعة وصار معهم السيف يقتلون من كفر²

عقاب الطائفة الممتعة كالتى لا يقدر عليها إلا بقتال فاصل هذا هو جهاد الكفار

عقاب الطائفة الممتعة كالتى لا يقدر عليها إلا بقتال فاصل هذا هو جهاد الكفار أعداء الله ورسوله فكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبه الأمور } {41} الحج 39-41 ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون³

الجهاد شرع على مراتب فأول ما أنزل الله تعالى فيه الأذن بقوله { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} سورة الحج الآية 39 فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت في الجهاد ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله { كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون } {216} سورة البقرة الآية 216 ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال { ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكفروا سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا } {89} إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يفاتلوكم أو يفاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا } {90} سورة النساء الآيتان 89 90 وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله وإن كانت الهدنة عقدا جائزا غير لازم ثم أنزل في براءة الأمر بنبيذ العهود

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 182-183

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 476

³السياسة الشرعية ج: 1 ص: 100

وأمرهم بقتال المشركين كافة وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ولم يبيح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهدانوهم هدنة مطلقاً مع إمكان جهادهم¹

كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع أقرب

قال تعالى { أَدْرَأَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } {41} الحج 39-41 والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء ولهذا فإن كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء وأعظمهم شركاً فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم ولا أبعد عن التوحيد حتى إنهم يخربون مساجد الله التي يذكر فيها اسمه فيعطونها عن الجماعات والجماعات ويعمرون المشاهد التي أقيمت على القبور التي نهى الله ورسوله عن اتخاذها والله سبحانه في كتابه إنما أمر بعمارة المساجد لا المشاهد فقال تعالى { وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } {الحج 40} وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة بقوله في الحديث الصحيح من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة ولم يقل مشهداً وقال أيضاً في الحديث صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلواته في بيته وسوقه بخمس وعشرين صلاة وقال أيضاً في الحديث الصحيح من تطهر في بيته فأحسن الطهور ثم خرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة كانت خطواته إحداها ترفع درجة والأخرى تحط خطيئة فإذا جلس ينتظر الصلاة فالعبد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يحدث وهذا مما علم بالتواتر والضرورة من دين الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه أمر بعمارة المساجد والصلاة فيها ولم يأمرنا ببناء مشهد لا على قبر نبي ولا على غير قبر نبي ولا على مقام نبي ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم في بلاد الإسلام لا الحجاز ولا الشام ولا اليمن ولا العراق ولا خراسان ولا مصر ولا المغرب مسجد مبني على قبر ولا مشهد يقصد للزيارة أصلاً ولم يكن أحد من السلف يأتي قبر نبي أو غير نبي لأجل الدعاء عنده ولا كان الصحابة يقصدون الدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند قبر غيره من الأنبياء وإنما كانوا يصلون ويسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه واتفق الأئمة على أنه إذا دعا بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم لا يستقبل قبره وتنازعوا عند السلام عليه فقال مالك وأحمد وغيرهما يستقبل قبره ويسلم عليه وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي وأظنه منصوصاً عنه وقال أبو حنيفة بل يستقبل القبلة ويسلم عليه وهكذا في كتاب أصحابه²

صلاة الجماعة من أعظم شعائر الإسلام

قال تعالى { أَدْرَأَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } {41} الحج 39-41 اتفق العلماء على أن صلاة الجماعة من أوكد العبادات وأجل الطاعات وأعظم شعائر الإسلام وعلى ما ثبت في فضلها النبي صلى الله عليه وسلم حيث

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 233

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 394

قال تفضل صلاة الرجل في الجماعة على صلاته وحده بخمس وعشرين درجة هكذا في حديث أبي هريرة وأبي سعيد بخمس وعشرين ومن حديث ابن عمر بسبع وعشرين والثلاثة في الصحيح وقد جمع بينهما بأن حديث الخمس والعشرين ذكر فيه الفضل الذي بين صلاة المنفرد والصلاة في الجماعة والفضل خمس وعشرون وحديث السبعة والعشرين ذكر فيه صلاته منفردا وصلاته في الجماعة والفضل بينهما فصار المجموع سبعا وعشرين ومن ظن من المنتسكة أن صلاته وحده أفضل إما في خلوته وإما في غير خلوته فهو مخطئ ضال وأضل منه من لم ير الجماعة إلا خلف الإمام المعصوم فعطل المساجد عن الجمع والجماعات التي أمر الله بها ورسوله وعمر المشاهد بالبدع والضلالات التي نهى الله عنها ورسوله وصار مشابها لمن نهى عن عبادة الرحمن وأمر بعبادة الأوثان فإن الله سبحانه شرع الصلاة وغيرها في المساجد كما قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَّعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا } البقرة 114 وقال تعالى { وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } البقرة 187 وقال تعالى { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } الأعراف 29 وقال تعالى { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ } التوبة 17 إلى قوله { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } التوبة 18 وقال تعالى { فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } {36} { رَجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } {37} {النور 36- 37} وقال تعالى { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } الجن 18 وقال تعالى { وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } {الحج 40} وأما مشاهد القبور ونحوها فقد اتفق أئمة المسلمين على أنه ليس من دين الإسلام أن تخصص بصلاة أو دعاء أو غير ذلك ومن ظن أن الصلاة والدعاء والذكر فيها أفضل منه في المساجد فقد كفر بل تواترت السنن بالنهي عن اتخاذها لذلك كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا قالت عائشة ولولا ذلك ذلك لابرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا وفي الصحيحين أيضا أنه ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وما فيها من الحسن والتصاوير فقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة وثبت عنه في صحيح مسلم من حديث جندب أنه قال قبل أن يموت بخمس أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وفي المسند عنه أنه قال أن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي موطأ مالك عنه أنه قال اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي السنن عنه أنه قال لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني والمقصود هنا أن أئمة المسلمين متفقون على أن إقامة الصلوات الخمس في المساجد هي من أعظم العبادات وأجل القربات ومن فضل تركها عليها إيثارا للخلوة والانفراد على الصلوات الخمس في الجماعات أو جعل الدعاء والصلاة في المشاهد أفضل من ذلك في المساجد فقد انخلع من ربة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115 ولكن تنازع العلماء بعد ذلك في كونها واجبة على الأعيان أو على الكفاية أو سنة مؤكدة على ثلاثة أقوال فقيل هي سنة مؤكدة فقط وهذا هو المعروف عن أصحاب أبي حنيفة وأكثر أصحاب مالك وكثير من أصحاب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد وقيل هي واجبة على الكفاية وهذا هو المرجح في مذهب الشافعي وقول بعض أصحاب مالك وقول في مذهب أحمد وقيل هي واجبة على الأعيان وهذا هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السلف وفقهاء الحديث وغيرهم وهؤلاء تنازعوا فيما إذا صلى منفردا لغير عذر هل تصح صلاته على قولين أحدهما لا تصح وهو قول طائفة من قدماء أصحاب أحمد ذكره القاضي أبو يعلى في شرح المذهب عنهم وبعض متأخريهم كابن عقيل وهو قول طائفة من السلف واختاره ابن حزم وغيره والثاني تصح مع إثمه بالترك وهذا هو المأثور عن أحمد وقول أكثر أصحابه والذين نفوا الوجوب احتجوا بتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده قالوا ولو كانت واجبة لم تصح صلاة المنفرد ولم يكن هناك تفضيل وحملوا ما جاء من هم النبي صلى الله عليه وسلم بالتحريق على من ترك الجمعة أو على المنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة مع النفاق وأن تحريقهم كان لأجل النفاق لا لأجل ترك الجماعة مع الصلاة في البيوت وأما الموجبون فاحتجوا بالكتاب والسنة والآثار أما الكتاب فقوله تعالى { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } النساء 102 الآية وفيها دليلان أحدهما أنه أمرهم بصلاة الجماعة معه في حال الخوف وذلك دليل على وجوبها حال الخوف وهو يدل بطريق الأولى على وجوبها حال الأمن الثاني أنه سن

صلاة الخوف جماعة وسوغ فيها ما لا يجوز لغير عذر كاستدبار القبلة والعمل الكثير فإنه لا يجوز لغير عذر بالاتفاق وكذلك مفارقة الإمام قبل السلام عند الجمهور وكذلك التخلف عن متابعة الإمام كما يتخلف الصف المؤخر بعد ركوعه مع الإمام إذا كان العدو أمامهم قالوا وهذه الأمور تبطل الصلاة لو فعلت لغير عذر فلو لم تكن الجماعة واجبة بل مستحبة لكان قد التزم فعل محذور مبطل للصلاة وتركت المتابعة الواجبة في الصلاة لأجل فعل مستحب مع أنه قد كان من الممكن أن يصلوا وحدانا صلاة تامة فعلم أنها واجبة وأيضا فقول تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكْعِينَ} البقرة 43 إما أن يراد به المقارنة بالفعل وهي الصلاة جماعة وإما أن يراد به ما يراد بقوله {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} التوبة 119 فإن أريد الثاني لم يكن فرق بين قوله صلوا مع المصلين وصوموا مع الصائمين واركعوا مع الراكعين والسياق يدل على اختصاص الركوع بذلك فإن قيل فالصلاة كلها تفعل في الجماعة قيل خص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة فأمر بما يدرك به الركعة كما قال لمريم {أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّكْعِينَ} آل عمران 43 فإنه لو قيل اقنيتي مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام ولو قيل اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع بخلاف قوله {وَارْكَعِي مَعَ الرَّكْعِينَ} آل عمران 43 فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله وهو المطلوب وأما السنة فالأحاديث المستفيضة في هذا الباب مثل حديث أبي هريرة المتفق عليه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار فهم بتحريق من لم يشهد الصلاة وفي لفظ قال أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام الحديث وفي المسند وغيره لولا ما في البيوت من النساء والذرية لأمرت أن تقام الصلاة الحديث فبين أنه هم بتحريق البيوت على من لم يشهد الصلاة وبين أنه إنما منعه من ذلك من فيها من النساء والذرية فإنهم لا يجب عليهم شهود الصلاة وفي تحريق البيوت قتل من لا يجوز قتله وكان ذلك بمنزلة إقامة الحد على الحبلى وقد قال سبحانه وتعالى {وَلَوْلَا رَجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَنْ تَطَّوُّوهُمُ فَتُصَيِّبُكُمْ مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِمَ لِيُذْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} الفتح 25 ومن حمل ذلك على ترك شهود الجمعة فسياق الحديث يبين ضعف قوله حيث ذكر صلاة العشاء والفجر ثم أتبع ذلك بهمه بتحريق من لم يشهد الصلاة وأما من حمل العقوبة على النفاق لا على ترك الصلاة فقوله ضعيف لأوجه أحدها أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يقتل المنافقين إلا على الأمور الباطنة وإنما يعاقبهم على ما يظهر منهم من ترك واجب أو فعل محرم فلولا أن في ذلك ترك واجب لما حرقهم الثاني أنه رتب العقوبة على ترك شهود الصلاة فيجب ربط الحكم بالسبب الذي ذكره الثالث أنه سيأتي إن شاء الله حديث ابن أم مكتوم حيث استأذنه أن يصلي في بيته فلم يأذن له وابن أم مكتوم رجل مؤمن من خيار المؤمنين أثنى عليه القرآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة وكان يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم الرابع إن ذلك حجة على وجوبها أيضا كما قد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال من سره أن يلقي الله غدا مسلما فليصل هذه الصلوات الخمس في المساجد التي ينادى بهن فإن الله شرع سنة من سنن الهدى وإن هذه الصلوات الخمس في المساجد التي ينادى إليها بعض من سنة الهدى وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما صلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف الإيجاب للجماعة مع كون الرجل مؤمنا وأما احتجاجهم بتفضيل صلاة الرجل في الجماعة على صلاته وحده فعنه جوابان مبنيان على صحة صلاة المنفرد لغير عذر فمن صحح صلاته قال الجماعة واجبة وليست شرطا في الصحة كالوقت فإنه لو أخر العصر إلى وقت الاصفار كان أثما مع كون الصلاة صحيحة بل وكذلك لو أخرها إلى أن يبقى مقدار ركعة كما ثبت في الصحيح من أدرك ركعة من العصر فقد أدرك العصر قال والتفضيل لا يدل على أن المفضل جائز فقد قال تعالى {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ} الجمعة 9 فجعل السعي إلى الجمعة خيرا من البيع والسعي واجب والبيع حرام وقال تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} النور 30 ومن قال لا تصح صلاة المنفرد إلا لعذر احتج بأدلة الوجوب قال وما ثبت وجوبه في الصلاة كان شرطا في الصحة كسائر الواجبات وأما الوقت فإنه لا يمكن تلافيه فإذا فات لم يكن فعل الصلاة فيه فنظير ذلك فوت الجمعة وفوت الجماعة التي لا يمكن استدارتها فإذا فوت الجمعة الواجبة كان أثما وعليه الظاهر إذ لا يمكن سوى ذلك وكذلك من فوت الجماعة الواجبة التي يجب عليه شهودها وليس هناك جماعة أخرى فإنه يصلي منفردا لغير عذر وتصح صلاته هنا لعدم إمكان صلاته جماعة كما يصح الظهر ممن

تفوته الجمعة وليس وبالجمعة وإنما الكلام فيمن صلى في بيته منفردا لغير عذر ثم أقيمت الجماعة فهذا عندهم عليه أن يشهد الجماعة كمن صلى الظهر قبل الجمعة عليه أن يشهد الجمعة واستدلوا على ذلك بحديث أبي هريرة الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له ويؤيد ذلك قوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فإن هذا معروف من كلام علي وعائشة وأبي هريرة وابن عمر وقد رواه الدارقطني وغيره مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقوى ذلك بعض الحفاظ قالوا ولا يعرف في كلام الله ورسوله حرف النفي دخل على فعل شرعي إلا لترك واجب فيه كقوله لا صلاة إلا بأمر القرآن ولا إيمان لمن لا أمانة له ونحو ذلك وأجاب هؤلاء عن حديث التفضيل بأن قالوا هو محمول على المعذور كالمرضى ونحوه فإن هذا بمنزلة قوله صلى الله عليه وسلم صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم وصلاة القائم على النصف من صلاة القاعد وأن تفضيله صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده كتفضيله صلاة القائم على صلاة القاعد ومعلوم أن القيام واجب في صلاة الفرض دون النفل كما أن الجماعة واجبة في صلاة الفرض دون النفل وتام الكلام في ذلك أن العلماء تنازعوا في هذا الحديث هل المراد بهما المعذور أو غيره على قولين فقالت طائفة المراد بهما غير المعذور قالوا لأن المعذور أجره تام بدليل ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم قالوا فإذا كان المريض والمسافر يكتب لهما ما كانا يعملان في الصحة والإقامة فكيف تكون صلاة المعذور قاعدا أو منفردا دون صلاته في الجماعة قائما وحمل هؤلاء تفضيل صلاة القائم على النفل دون الفرض لأن القيام في الفرض واجب ومن قال هذا القول لزمه أن يجوز تطوع الصحيح مضطجعا لأنه قد ثبت أنه قال ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم وقد طرد هذا الدليل طائفة من متأخري أصحاب الشافعي وأحمد وجوزوا أن يتطوع الرجل مضطجعا لغير عذر لأجل هذا الحديث ولتعذر حمله على المريض كما تقدم ولكن أكثر العلماء أنكروا ذلك وعدوه بدعة وحدثا في الإسلام وقالوا لا يعرف أن أحدا قط صلى في الإسلام على جنبه وهو صحيح ولو كان هذا مشروعا لفعله المسلمون على عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم أو بعده وفعله النبي صلى الله عليه وسلم ولو مرة لتبيين الجواز فقد كان يتطوع قاعدا ويصلي على راحلته قبل أي وجه توجهت به ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة فلو كان هذا سائغا لفعله ولو مرة أو لفعله أصحابه وهؤلاء الذين أنكروا هذا مع ظهور حجتهم قد تناقض من لم يوجب الجماعة منهم حيث حملوا قوله تفضل صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين درجة على أنه أراد غير المعذور فيقال لهم لم كان التفضيل هنا في حق غير المعذور والتفضيل هناك في حق المعذور وهل هذا إلا تناقض وأما من أوجب الجماعة وحمل التفضيل على المعذور فطرد دليله وحينئذ فلا يكون في الحديث حجة على صحة صلاة المنفرد لغير عذر وأما ما احتج به منازعهم من قوله إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم فجوابهم عنه أن هذا الحديث دليل على أنه يكتب له مثل الثواب الذي كان يكتب له في حال الصحة والإقامة لأجل نيته له وعجزه عنه بالعذر وهذه قاعدة الشريعة أن من كان عازما على الفعل عزمًا جازما وفعل ما يقدر عليه منه كان بمنزلة الفاعل فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه فكان بمنزلة الفاعل كما جاء في السنن فيمن تطهر في بيته ثم ذهب إلى المسجد ليدرك الجماعة فوجدها قد فاتت أنه يكتب له أجر صلاة الجماعة وكما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وقد قال تعالى {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} النساء 95 الآية فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح إذا كانت نيته أن يفعل وقد عمل ما يقدر عليه وذلك لا يقتضي أن يكون نفس عمله مثل عمل الصحيح فليس في الحديث أن صلاة المريض نفسها في الأجر مثل صلاة الصحيح ولا أن صلاة المنفرد المعذور في نفسها مثل صلاة الرجل في الجماعة وإنما فيه أن يكتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم كما يكتب له أجر صلاة الجماعة إذا فاتته مع قصده لها وأيضا فليس كل معذور يكتب له مثل عمل الصحيح وإنما يكتب له إذا كان يقصد عمل الصحيح ولكن عجز عنه فالحديث يدل على أنه من كان عادته الصلاة في جماعة والصلاة قائما ثم ترك ذلك لمرضه فإنه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وكذلك من تطوع على الراحلة في السفر وقد كان يتطوع في الحضر قائما يكتب له ما كان يعمل في الإقامة فأما من لم تكن عادته الصلاة في جماعة ولا الصلاة قائما إذا مرض فصلى وحده أو صلى قاعدا فهذا لا يكتب له مثل صلاة المقيم الصحيح ومن حمل الحديث على غير المعذور يلزمه أن يجعل صلاة هذا قاعدا مثل صلاة القائم وصلاته منفردا مثل الصلاة في جماعة

وهذا قول باطل لم يدل عليه نص ولا قياس ولا قاله أحد وأيضا فيقال تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الجماعة على صلاة المنفرد ولصلاة القائم على القاعد والقاعد على المضطجع إنما دل على فضل هذه الصلاة على هذه الصلاة حيث يكون كل من الصلاتين صحيحة أما كون هذه الصلاة المفضولة تصح حيث تصح تلك أو لا تصح فالحديث لم يدل عليه بنفي ولا إثبات ولا سيق الحديث لأجل بيان صحة الصلاة وفسادها بل وجوب القيام والقعود وسقوط ذلك وجوب الجماعة وسقوطها يتلقى من أدلة أخرى وكذلك أيضا كون هذا المعذور يكتب له تمام عمله أو لا يكتب له لم يتعرض

له هذا الحديث بل يتلقى من أحاديث أخرى وقد بينت سائر النصوص أن تكميل الثواب هو لمن كان يعمل العمل الفاضل وهو صحيح مقيم لا لكل أحد وبينت نصوص أخر وجوب القيام في الفرض كقوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وبين جواز التطوع قاعدا لما رآهم وهم يصلون قعودا فأقرهم على ذلك وكان يصلي قاعدا مع كونه كان يتطوع على الراحلة في السفر كذلك تثبت نصوص أخر وجوب الجماعة فيعطي كل حديث بينت حقه فليس بينها تعارض ولا تناف وإنما يظن التعارض والتنافي من حملها ما لا تدل عليه ولم يعطها حقا بسوء نظره وتأويله والله أعلم¹

" ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم "

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور } {41} الحج 39-41 وولى الأمر إن عرف ما جاء به الكتاب والسنة حكم بين الناس به وإن لم يعرفه وأمكنه أن يعلم ما يقول هذا وما يقول هذا حتى يعرف الحق حكم به وإن لم يمكنه لا هذا ولا هذا ترك المسلمين على ما هم عليه كل يعبد الله على حسب إجهاده وليس له أن يلزم أحدا بقبول قول غيره وإن كان حاكما وإذا خرج ولاية الأمور عن هذا فقد حكموا بغير ما أنزل الله ووقع بأسهم بينهم قال النبي ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول كما قد جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانته فإن الله يقول في كتابه { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {40} الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور } {41} الحج 40-41 فقد وعد الله بنصر من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم فإن الحاكم إذا كان دينا لكنه حكم بغير علم كان من أهل النار وإن كان عالما لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار وإذا حكم بلا عدل ولا علم كان أولى أن يكون من أهل النار وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكما عاما في دين المسلمين فجعل الحق باطلا والباطل حقا والسنة بدعة والبدعة سنة والمعروف منكرا والمنكر معروف ونهى عما أمر الله به ورسوله وأمر بما نهى الله عنه ورسوله فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين وإله المرسلين مالك يوم الدين الذي له الحمد في الأولى وفي الآخرة وله الحكم وإليه ترجعون الذي أرسل رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم²

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 435-440 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 113 و مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 224

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 388

وبسبب البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلط الله أعداء الدين فإن الله يقول { **وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } {40} **الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } {41} {الحج 40- 41} وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسمائه وآياته¹

الجهاد تمام الايمان وسنام العمل

قال تعالى { **أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } {39} **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } {40} **الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } {41} {الحج 39- 41} والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } {الحجرات 15} وقال { **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** } آل عمران 110 الآية وقال { **أَجْعَلْنُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ** } {التوبة 19} الآية فذلك يكون هذا الجهاد في حق المجاهدين كما قال تعالى { **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** } {العنكبوت 69} فهذا في العلم والنور وقال { **وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** } {النساء 66} الى قوله { **وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** } {النساء 68} فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر أنهم اذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرا لهم واشد تنبيها ففى الآية أربعة امور الخير المطلق والتنبيات المتضمن للقوة والمكنة والاجر العظيم وهداية الصراط المستقيم وقال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** } {محمد 7} وقال { **وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** } {الحج 40} الى قوله { **وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } {الحج 41} وقال { **يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** } {المائدة 54}²

العاقبة للمتقين

قال تعالى { **أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } {39} **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } {40} **الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } {41} {الحج 39- 41} وأما الغلبة فان الله تعالى قد يدل الكافرين على المؤمنين تارة كما يدل المؤمنين على الكافرين كما كان يكون لأصحاب النبي مع عدوهم لكن العاقبة للمتقين فان الله يقول { **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** } {غافر 51} وإذا كان من المسلمين ضعفا وكان عدوهم مستظهرا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم إما لتفريطهم في اداء الواجبات باطنا وظاهرا و إما لعدوانهم بتعدى الحدود باطنا وظاهرا قال الله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْبُتَيْقِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** } آل عمران 155 وقال تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 وقال تعالى { **وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** }

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 302 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 520

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 400

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41} الحج 40-41¹

سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا

وقد أيد الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم تأييدا لا يؤيد به إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيد به كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره وكل من أيدته الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقا كما أيد نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان بل وأيد شعيبا وهودا وصالحا فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب علي تأييدا لا يمكن أحدا معارضته وهكذا أخبرت الانبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده فصار هذا معلوما من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم قال تعالى { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ سَمَاوَاتٍ وَبِلَادٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41} وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَتَمُودُ {42} وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ {43} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى لَأَكْفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَفَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {44} فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ {45} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُنَّ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {46} سورة الحج الآيات 40 46²

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر وإهلاك قوم صالح بالصيحة وإهلاك قوم شعيب بالظلة وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم ورجمهم بالحجارة وإهلاك قوم فرعون بالغرق وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } الشعراء 67 ثم ذكر قصة إبراهيم وقال في آخرها { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } الشعراء 103 وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح عليه السلام { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ {78} سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ {79} الصافات 78-79 ولهذا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49 فأخبر أن العاقبة للمتقين ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة كما قال عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {10} الملك 10 كما ذكر الله الطريقتين في قوله { وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41} الحج 40-41 ثم قال { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 645

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 412

وَتَمُودُ {42} وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ {43} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
كَبِيرٍ {44} فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُنُورُ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ {45} الْحَج
44-42 ثم قال { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {46} الْحَج 46¹

الإسلام مبني على أصليين

قال تعالى { أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ
إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41} الْحَج 39-41 وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي الهياج
الأسدي قال قال لي علي بن أبي طالب ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أدع قبراً
مشرفاً إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمسته فقرن بين طمس التماثيل وتسوية القبور المشرفة لأن كليهما ذريعة إلى
الشرك كما في الصحيحين أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا النبي صلى الله عليه وسلم كنيسة رأيتها بأرض الحبشة
وذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها فقال إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه
تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة والله أمر في كتابه بعمارة المساجد ولم يذكر المشاهد
فالرافضة بدلوا دين الله فعمروا المشاهد وعلوا المساجد مضاهاة للمشركين ومخالفة للمؤمنين قال تعالى { قُلْ
أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ {الأعراف 29} لم يقل عند كل مشهد وقال { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ
يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ {17} إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ {18} التوبة
17-18 ولم يقل إنما يعمر مشاهد الله بل عمار المشاهد يخشون بها غير الله ويرجون غير الله وقال تعالى
{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا {الجن 18} ولم يقل وأن المشاهد لله وقال { وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
{الحج 40} ولم يقل ومشاهد وقال { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ {36} الْحَج
رَجَالَ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ {37} النور 36-37 وأيضاً فقد علم
بالنقل المتواتر بل علم بالإضطرار من دين الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرع لأُمَّته عمارة المساجد
بالصلوات والاجتماع للصلوات الخمس ولصلاة الجمعة والعيدين وغير ذلك وأنه لم يشرع لأُمَّته أن يبنوا على قبر
نبي ولا رجل صالح لا من أهل البيت ولا غيرهم لا مسجداً ولا مشهداً ولم يكن على عهده صلى الله عليه وسلم في
الإسلام مشهد مبني على قبر وكذلك على عهد خلفائه الراشدين وأصحابه الثلاثة وعلي بن أبي طالب ومعوية لم
يكن على عهدهم مشهد مبني لا على قبر نبي ولا غيره لا على قبر إبراهيم الخليل ولا على غيره بل لما قدم
المسلمون إلى الشام غير مرة ومعهم عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم ثم لما قدم
عمر لفتح بيت المقدس ثم لما قدم لوضع الجزية على أهل الذمة ومشارطتهم ثم لما قدم إلى سرخ ففي جميع هذه
المرات لم يكن أحدهم يقصد السفر إلى قبر الخليل ولا كان هناك مشهد بل كان هناك البناء المبني على المغارة
وكان مسدوداً بلا باب له مثل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم لم يزل الأمر هكذا في خلافة بني أمية وبني
العباس إلى أن ملك النصارى تلك البلاد في أواخر المائة الخامسة فبنوا ذلك البناء واتخذوه كنيسة ونقبوا باب البناء
فلهذا تجد الباب منقوباً لا مبنياً ثم لما استنقذ المسلمون منهم تلك الأرض اتخذها من اتخذها مسجداً بل كان
الصحابية إذ رأوا أحداً بني مسجداً على قبر نهوه عن ذلك ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه ألى عمر رضي الله عنه فكتب إليه عمر أن تحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وتدفعه بالليل في واحد منها
لئلا يفتتن الناس به وكان عمر بن الخطاب إذا رأى يتناوبون مكاناً يصلون فيه لكونه موضع نبي ينهاهم عن

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 389-390

ذلك ويقول إنما هلك من كان قبلكم باتخاذ آثار أنبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فيه فليصل وإلا فليذهب فهذا وأمثاله مما كانوا يحققون به التوحيد الذي أرسل الله به الرسول إليهم ويتبعون في ذلك سنته صلى الله عليه وسلم والإسلام مبني على أصليين أن لا تعبد إلا الله وأن نعبد بما شرع لا نعبد بالبدع¹

الله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41} {الحج 39-41} والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له إذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } {الإسراء 110}

والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } {الأحزاب 41} {وَأذْكَرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ} {الأعراف 205} وهذا كثير وقال {وَأذْكَرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيَّنًا} {المزمل 8} كما قال {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام 118} {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام 121} {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} {المائدة 4} لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذي هو ألف سين ميم وأما في قوله {وَأذْكَرَ اسْمَ رَبِّكَ} {المزمل 8} فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله في الذبيحة {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام 118} كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {العلق 1} وقوله {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} {هود 41} فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} هو قراءة بسم الله في أول السور

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارئ مأثور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {النمل 30} كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم في قوله {وَأذْكَرَ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان 25} فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَأذْكَرَ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان 25} يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله {وَأذْكَرَ رَبِّكَ} {ال عمران 41} فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {الأحزاب 42} وقال {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى 1} وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} {الواقعة 74} وفي الدعاء {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} فقوله {أَيًّا مَا تَدْعُوا} {الإسراء 110} يقتضى تعدد المدعو لقوله ايا ما وقوله {قُلْ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} ولم يقل ادعوا باسم الله او باسم الرحمن يتضمن ان المدعو هو الرب الواحد بذلك الاسم فقد جعل الاسم تارة مدعوا وتارة مدعوا به في قوله {وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف 180} فهو مدعو به باعتبار ان المدعو هو المسمى وانما يدعى

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 477-481

باسمه وجعل الاسم مدعوا باعتبار ان المقصود به هو المسمى وان كان في اللفظ هو المدعو المنادى كما قال { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ } الإسراء 110 أى ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم والمراد اذا دعوته هو المسمى اى الاسمين دعوت ومرادك هو المسمى { فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء 110 فمن تدبر هذه المعانى اللطيفة تبين له بعض حكم القرآن واسراره ف { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } الفرقان 1 فانه كتاب مبارك تنزيل من حكيم حميد لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ومن تركه من جبار قصمه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو قرآن عجب يهدى الى الرشده انزله الله هدى ورحمة وشفاء وبيانا وبصائر وتذكرة فالحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله آخره والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹

المساجد هي بيوت الله فى الأرض

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } {40} الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور } {41} الحج 39-41 وأما قوله ويذكر فيها اسم الله كثيرا فإنما ذكره عقب ذكره المساجد والمساجد للمسلمين وليس المراد بها كنائس النصارى فإنها هي البيع ثم قوله تعالى يذكر فيها اسم الله كثيرا إما أن يكون مختصا بالمساجد فلا يكون فى ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرا فى البيع والصوامع وإما أن يكون ذكر اسم الله فى الجميع فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدا كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيرا وقد قيل إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرا وإن الله يحب أن يذكر اسمه قال الضحاك إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به يعنى أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحال وأهل الكتاب خير من المشركين وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ساء ذلك اصحاب رسول الله وكرهوا انتصار الفرس على النصارى لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس والرسول بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وتقديم خير الخيرين على أدناها حسب الإمكان ودفع شر الشرين بخيرهما فهدم صوامع النصارى وبيعههم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا فهذا خير وصلاح وهذه الآية ذكرت فى سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } {39} الحج 39 وهذه الآية أول آية نزلت فى الجهاد ولهذا قال { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله } الحج 40 ثم قال { ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض } الحج 40 فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم النصارى ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد وهذا كما قال تعالى فى سورة البقرة { فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لأفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين } البقرة 251 وأما التقديم فى اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى { قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والنهي عن الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } الأعراف 33 وأما التقديم فى اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى وكذلك فى قوله تعالى لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا فبين سبحانه أنه لولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هي الصوامع فإن الصومعة تكون لوحد أو لطائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد وختم بأسرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرا ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد وبعد

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 209- 212

النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم كالمجوس والمشركين وهدموا معابدهم كان ذلك فسادا وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد وأبدلوا مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا يشرك به ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله كان ذلك صلاحا لا فسادا ولهذا أمر النبي أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لتقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات التي قال الله فيها {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ} النجم 19 فأمر النبي أن يهدم ذلك المعبد ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه فإن المساجد هي فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض¹

وصلاح الدين رحمه الله وأهل بيته ما كانوا يوالون النصارى ولم يكونوا يستعملون منهم أحدا في شيء من أمور المسلمين أصلا ولهذا كانوا مؤيدين منصورين على الأعداء مع قلة المال والعدد وانما قويت شوكة النصارى والتتار بعد موت العادل أخي صلاح الدين حتى ان بعض الملوك اعطاهم بعض مدائن المسلمين وحدث حوادث بسبب التفريط فيما امر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم فان الله تعالى يقول {وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} الحج 40 وقال الله تعالى {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} الحج 41 فكان ولاية الامور الذين يهدمون كنائسهم وقيمون أمر الله فيهم كعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد ونحوهما مؤيدين منصورين وكان الذين هم بخلاف ذلك مغلوبين مقهورين وإنما كثرت الفتن بين المسلمين وتفرقوا على ملوكهم من حين دخل النصارى مع ولاية الامور بالديار المصرية في دولة المعز ووزارة الفائز وتفرق البحرية وغير ذلك والله تعالى يقول في كتابه {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} {173} الصافات 171-173 وقال تعالى في كتابه {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر 51 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} محمد 7 وقد صح عن النبي أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يقوم الساعة وكل من عرف سير الناس وملوكهم رأى كل من كان أنصر لدين الإسلام وأعظم جهادا لأعدائه وأقوم بطاعة الله ورسوله أعظم نصره وطاعة وحرمة من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإلى الآن وقد أخذ المسلمون منهم كنائس كثيرة من أرض العنوة بعد أن أقرروا عليها في خلافة عمر بن عبد العزيز وغيره من الخلفاء وليس في المسلمين من أنكر ذلك فعلم أن هدم كنائس العنوة جائز إذا لم يكن فيه ضرر على المسلمين فاعراض من أعرض عنهم كان لقلّة المسلمين ونحو ذلك من الأسباب كما أعرض النبي صلى الله عليه وسلم عن إجلاء اليهود حتى جلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه²

الحكم على المظلوم بترك حقه حكم بالظلم لا بالعدل

قال تعالى {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} {39} {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {40} {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} {41} الحج 39-41 وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه فالحاكم الذي يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه كان حاكما بالظلم لا بالعدل ولو أمرنا كل ولي مقتول أن لا يقتص من القاتل وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه بل يدعه على اختياره وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزرهم وظلم الأقوياء

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 214-217

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 639-640

الضعفاء وفسدت الأرض قال تعالى {وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} البقرة 251 فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ولا بد مع ذلك من نذب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل وهذه شريعة الإسلام كما تقدم ما ذكرنا من الآيات مثل قوله {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} المائدة 45¹

الاخلاق التي يحتاج اليها المؤمن في أوقات الفتن الشديدة

قال تعالى { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير } 39 { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } 40 { الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبه الأمور } 41 { الحج 39-41 } والله سبحانه حمد الشجاعة السماحة في سبيله كما في الصحيح عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأبي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال قال سبحانه { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتهوا فإن الله بما يعملون بصير } الأنفال 39 وذلك ان هذا هو المقصود الذي خلق الله الخلق له كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق له الخلق كان محمودا عند الله وهو الذي يبقى لصاحبه وينفعه الله به وهذه الاعمال هي الباقيات الصالحات ولهذا كان الناس اربعة اصناف من يعمل لله بشجاعة وبسماحة فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة ومن يعمل لغير الله بشجاعة ومن وسماحة فهذا ينتفع بذلك في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق ومن يعمل لله لكن بلا شجاعة ولا سماحة فهذا فيه من النفاق ونقص الايمان بقدر ذلك ومن لا يعمل لله ولا فيه شجاعة ولا سماحة فهذا ليس له دنيا ولا آخرة فهذه الاخلاق والأفعال يحتاج اليها المؤمن عموما وخصوصا في أوقات المحن والفتن الشديدة فانهم يحتاجون الى صلاح نفوسهم ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم ويحتاجون أيضا الى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه وان كان يسيرا على من يسره الله عليه وهذا لان الله أمر المؤمنين بالايمان والعمل الصالح وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الايمان والعمل الصالح كما قال الله تعالى { وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } 40 { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } 41 { الحج 40-41 } وكما قال { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 وكما قال { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } المجادلة 21 وكما قال { وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ } الصافات 173²

الدعوة الواجبة تحتاح إلى شروط يقام بها

قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 المعروف طاعة الله وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر والمنكر معصية الله ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور³

¹ الجواب الصحيح ج: 5 ص: 105

² الاستقامة ج: 2 ص: 286 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 165

³ الاستقامة ج: 2 ص: 311

وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة كالتصديق بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته والمعاد وتفصيل ذلك وما أخبر به عن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأمهم وأعدائهم وكاخلاص الدين لله وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواها وكالتوكل عليه والرجاء لرحمته وخشيته عذابه والصبر لحكمه وأمثال ذلك وكصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وحسن الجوار وكالجهاد في سبيله بالقلب واليد واللسان إذا تبين ذلك فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله وكذلك يتضمن أمرهم به ونهيهم عما ينهى عنه وأخبارهم بما أخبر به إذ الدعوة تتضمن الأمر وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وقد وصف أمته بذلك في غير موضع كما وصفه بذلك فقال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110 وقال تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 الآية كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين قال تعالى {وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} آل عمران 104 فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة فأتمته لا تجتمع على ضلالة وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطلب به وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا وقد تقسّطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى فقد يدعو هذا إلى إعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب وهذا إلى عمل باطن واجب فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقيم به غيره وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر طلب الفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس بل كوجوب الجهاد والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر {فَمَنْ قَانَدِرْ} {2} وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ} {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} {5} وَلَا تَمُنْ بِسُنْكَرٍ} {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} {7} المدثر 2-7 وقال تعالى {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} المزمّل 10¹

ازالة الشر بالخير و الكفر بالإيمان و البدعة بالسنة

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 165-168

قال تعالى { أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } {39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } {41} الحج 39-41 جميع الحوادث كائنة بقضاء الله و قدره و قد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان و نزيل الكفر بالإيمان و البدعة بالسنة و المعصية بالطاعة من أنفسنا و من عندنا فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب و إن كان ذلك بقدر الله و عليه أن يأمر غيره بالمعروف و ينهيه عن المنكر بحسب الإمكان و يجاهد في سبيل الله و إن كان ما يعمل من المنكر بحسب الإمكان و يجاهد في سبيل الله و إن كان ما يعمل من المنكر و الكفر و الفسوق و العصيان بقدر الله ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلا على القدر بل يفعل ما أمر الله و رسوله كما روى مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال المؤمن القوي خير و أحب الى الله من المؤمن الضعيف و في كل خير إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمر النبي صلى الله عليه و سلم أن يحرص على ما ينفعه و الذي ينفعه يحتاج الى منازعة شياطين الإنس و الجن و دفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير و عليه مع ذلك أن يستعين بالله فإنه لا حول و لا قوة إلا به و أن يكون عمله خالصا لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به و جهه و هذا حقيقة قولك { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } الفاتحة 5 و الذي قبله حقيقة { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور و ترك المحظور و أن يكون مستعينا بالله على ذلك و في عبادة الله و طاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير و دفع ما يريده الشيطان و يسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير قال الله تعالى { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ } البقرة 251 كما يدفع شر الكفار و الفجار الذي في نفوسهم و الذي سعوا فيه بالحق كإعداد القوة و رباط الخيل و كالدعاء و الصدقة الذين يدفعان البلاء كما جاء في الحديث أن الدعاء و البلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء و الأرض فالشر تارة يكون قد إنعقد سببه و خيف فيدفع و صوله فيدفع الكفار إذا قصدوا بلاد الإسلام و تارة يكون قد وجد فيزال و تبدل السيئات بالحسنات و كل هذا من باب دفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير و هذا واجب تارة و مستحب تارة و المقصود من ذلك أن كثيرا من أهل السلوك و الإرادة يشهدون ربوبية الرب و ما قدره من الأمور التي ينهى عنها فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية و يظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء و التسليم و هذا جهل و ضلال قد يؤدي الى الكفر و الإنسلاخ من الدين فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر و الفسوق و العصيان بل أمرنا أن نكره ذلك و ندفعه بحسب الإمكان كما قال النبي صلى الله عليه و سلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان و الله تعالى قد قال { وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } الزمر 7 و قال { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ } البقرة 205 فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا مالا يرضاه لنا و هو جعل ما يكون من الشر محنة لنا و ابتلاء كما قال تعالى { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ } الفرقان 20 و قال تعالى بعد أمره بالقتال { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } محمد 4 و في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال و الذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له فالمؤمن إذا كان صبورا شكورا يكون ما يقضى عليه من المصائب خيرا له و إذا كان أمرا بالمعروف و ناهيا عن المنكر مجاهدا في سبيله كان ما قدر له من كفر الكفار سبب للخير في حقه و كذلك إذا دعاه الشيطان و الهوى كان ذلك سببا لما حصل له من الخير فيكون ما يقدر من الشر إذا نازعه و دافعه كما أمره الله و رسوله سببا لما يحصل له من البر و التقوي و حصول الخير و الثواب و ارتفاع الدرجات¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 547-550

ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه في جبلة العبد وجعل فيه صلاحه

قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل والتكذيب به ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة فما كان حقا موجودا صدقت به الفطرة وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة فأحبته وإطمأنت إليه وذلك هو المعروف وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فانكرته قال تعالى { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } الأعراف 157¹

كل من عصى النهي فقد عصى الأمر لأن الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء والناهي مستدع من النهي فعلا اما بطريق القصد أو بطريق اللزوم فان كان نوعا منه فالأمر اعم والأعم أفضل وان لم يكن نوعا منه فهو أشرف القسمين ولهذا اتفق العلماء على تقديمه على النهي وبذلك جاء الكتاب والسنة قال تعالى { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } الأعراف 157 وقال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل 90 ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه ومقتضيه في جبلة العبد وجعله محتاجا اليه وفيه صلاحه وكماله فانه أمر بالايمان به وكل مولود يولد على الفطرة فالقلوب فيها اقوى الاسباب لمعرفة باريها والاقرار به وأمر بالعلم والصدق والعدل وصلة الارحام واداء الأمانة وغير ذلك من الامور التي في القلوب معرفتها ومحبتها ولهذا سميت معروفا ونهى عن الكفر الذي هو أصل الجهل والظلم وعن الكذب والظلم والبخل والجبن وغير ذلك من الامور التي تنكرها القلوب وانما يفعل الأدمي الشر المنهى عنه لجهله به أو لحاجته اليه بمعنى انه يشتهي ويلتذ بوجوده أو يستنصر بعدمه والجهل عدم العلم²

مناط الوجوب هو القدرة

وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهى فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر وهذا نعت النبي والمؤمنين كما قال تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره والقدرة هو السلطان والولاية فدوروا السلطان أقدر من غيرهم وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فان مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل انسان بحسب قدرته قال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16³

و يكون الكتاب أو السنة نهى عن معرفة المسائل التي تدخل فيما يستحق أن يكون من أصول دين الله فهذا لا يكون اللهم إلا أن ننهي عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عنه فهمه فيضل كقول عبد الله بن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثا لا يبلغه عقولهم إلا كان فتننة لبعضهم وكقول علي عليه السلام حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله أو مثل قول حق يستلزم فساد أعظم من تركه

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 32

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 120

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 66

فيدخل في قوله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان رواه مسلم¹

الاسم استعمل على وجه يختص بمراد الشارع

قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقولهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } 9 { عَبْدًا إِذَا صَلَّى } 10 { العلق 9-10 } وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتك يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } 9 { عَبْدًا إِذَا صَلَّى } 10 { العلق 9-10 } فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقبتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يوم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسامه معلوم عندهم فلا إجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد ومثل الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرا وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } النور 21 وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } 6 { الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } 7 { فصلت 6-7 } وهي عند المفسرين التوحيد وقد بين النبي مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد²

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف و المنكر اذا أطلق كما في قوله تعالى { وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 104 وقوله { يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } الأعراف 157 يدخل في المعروف كل خير وفي المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ }

{النَّاسُ} النساء 114 فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس وكذلك قوله تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت 45 غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله { وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل 90 جعل البغى هنا مغايرا لهما وقد دخل في المنكر في ذلك الموضوعين¹

قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارس العلم التسبيح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي

والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح والمنكر اسم جامع لكل ما كرهه الله ونهى عنه²

" من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه "

قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة³

وان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإنني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 1

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راعكا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم اعمل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر وقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راعكا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم اعمل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية له ثم اركع حتى تطمئن راعكا ثم ارفع حتى تستوي قائما وبقية مثله وفي رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثني عليه وقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راعكا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفي رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعدته وقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وامد ظهرك وقال إذا سجدت فمكّن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن وافترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتهم كبر فإن كان معك قرآن فاقراً به وإلا فاحمد الله عز وجل وكبره وهله وقال فيه وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منقياً إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة¹

صلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله

قال الله تعالى {الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} الحج 41 وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل إلى آخر الحديث وقال صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء والله المسؤول أن يعين السلطان فإنه أفقر خلق الله إلى معونة الله وتأييده قال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

¹ القواعد النورانية ج: 1 ص: 26

أَفَاسِقُونَ {النور 55} الآية صلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله ونبيه وحمل الناس على ذلك فانه سبحانه جعل صلاح أهل التمكين في أربعة أشياء إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاذا أقام الصلاة في مواقيتها جماعة هو وحاشيته وأهل طاعته وأمر بذلك جميع الرعية وعاقب من تهاون في ذلك العقوبة التي شرعها الله فقد تم هذا الأصل ثم إنه مضطر إلى الله تعالى فاذا ناجى ربه في السحر واستغاث به وقال يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك استغيث أعطاه الله من التمكين مالا يعلمه إلا الله قال الله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا} النساء 66 {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا} 66 { وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا} 67 {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} 68-66 النساء ثم كل نفع وخير يوصله الى الخلق هو من جنس الزكاة فمن اعظم العبادات سد الفاقات وقضاء الحاجات ونصر المظلوم واغاثة الملهوف والأمر بالمعروف وهو الأمر بما أمر الله به ورسوله من العدل والاحسان وأمر نوابه البلاد وولاية الأمور باتباع حكم الكتاب والسنة واجتنابهم حرمان الله والنهي عن المنكر وهو النهي عما نهى الله عنه ورسوله¹

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} **وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {الحج 41}** فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم واغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمره فليقل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أنقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة²

الصلاة مقرونة بكل عبادة من العبادات

قال تعالى {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} **وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {الحج 41}** أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} **الحج 41** وإذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} الكوثر 2 {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الأنعام 162 و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 242-243

²السياسة الشرعية ج: 1 ص: 112

إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ {البقرة 45} فإن الصبر الممدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه وسلم صوم شهر الصبر
و ثلاثة أيام من كل شهر¹

القرآن جاء بالدلائل اليقينية

قال تعالى { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ {42} وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ {43} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {44} فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُيْرٌ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ {45} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {46} } الحج 42- 46 ان هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول والقرآن مملوء من ذلك

والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل اليقينية وقد قال الله تعالى لرسوله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } النحل 125²

من الطريق الطرق الواضحة القاطعة المعلومة إلى قيام الساعة بالتواتر من أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم حال نوح وقومه وهود وقومه وصالح وقومه وحال إبراهيم وقومه وحال موسى وفرعون وحال محمد وقومه وهذا الطريق قد بينها الله في غير موضع من كتابه كقوله { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ { غافر 5 } إِلَى قَوْلِهِ { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ { غافر 5 } وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ {42} وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ {43} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {44} فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُيْرٌ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ {45} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {46} } الحج 42- 46 } وَقَوْلُهُ { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ {137} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {138} } الصافات 137- 138 } وَقَالَ { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ { الحجر 75 } فبين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم وقال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ { الإسراء 17 } فنذكر طريقتين يعلم بهما ذلك أحدهما ما يعاين ويعقل بالقلوب والثاني ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ومصداقهم ومكذبهم وعابوا من آثارهم ما دل على أنه سبحانه عاقب مكذبهم وانتقم منهم وأنهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه وأن من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب الله على أهله وإن طاعة الرسل طاعة الله ومعصيتهم معصية الله³

فإن الله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة وذلك أيضا معلوم بالتواتر كتواتر الطوفان وإغراق فرعون وجنوده⁴

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 89

² مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 163-164

³ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 214

⁴ العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 132-133

قال تعالى { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } {35} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ } {36} وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } {37} {الذاريات 35-37} وقال في سفينة نوح {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ } القمر 15 فأخبر أنه أبقى آيات و هي العلامات و الدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين و حسن عاقبتهم في الدنيا و أخبار الكفار و سوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات و الدلالات التي يستدل بها و يعتبر بها علما و و عطا فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل و يفيد الترغيب و الترهيب و يدل ذلك على أن الله يرضي عن أهل طاعته و يكرمهم و يغضب على أهل معصيته و يعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل و يستدل بأحكام الأفعال على علمه لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل و بالتخصيص على مشيئته لأن التخصيص مستلزم لإرادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة و يستدل بتخصيص الأنبياء و إتباعهم بالنصر و حسن العاقبة و تخصيص مكذبيهم بالخزي و سوء العاقبة على أنه يأمر و يحب و يرضي ما جاءت به الأنبياء و يكره و يسخط ما كان عليه مكذبوهم لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام و النجاة و الذكر الحسن و الدعاء و تخصيص الآخر بالعذاب و الهلاك و قبح الذكر و اللعنة يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول و بغض ما فعله الصنف الثاني¹

إقرار أمر النبوة بما وقع من قصص الانبياء

طريق معرفة الانبياء كطريق معرفة نوع من الأدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفهاء ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه و هود وقومه وصالح وقومه وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وأن قوما صدقوهم وقوما كذبوهم ويبين حال من صدقهم وحال من كذبهم فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الارض فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليس في الارض ولن يظن آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة يقول الله تعالى قال تعالى { وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ } {42} { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ } {43} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } {44} { فَكَايُنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِرَ مَشِيدِ } {45} { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُنَّ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {46} { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } {47} { وَكَايُنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } {48} { الحج 42-48} ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إندار قومه يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وقال النجاشي إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكان عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به ولولا ذلك لم يعلموا هذا²

سنة الله في عباده

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُنَّ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {الحج 46} فإنه قد عرف من سنة الله في عباده وإكرامه لأهل الخير وإهانته لأهل الشر ما فيه عبرة لأولى الأبصار فإن الناس قد عرفوا بالآثار الموجودة المعاينة في الأرض والأخبار المتواترة عاقبة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم وعاقبة من كذب هؤلاء وعلموا إكرام الله لهؤلاء ونصره لهم وعقوبته لهؤلاء وإهانته لهم وعلموا أيضا عاقبة أهل العدل والإحسان من الولاة والرعايا وعاقبة أهل الظلم

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 121

²النبوات ج: 1 ص: 26

والشر من هؤلاء وهؤلاء وهذا أمر موجود في جميع الأمم عربهم وعجمهم على اختلاف أصناف العجم من الفرس والروم والترك والهند والحيشة والبربر وغيرهم وقد قال تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } {137} ال عمران 137 وهذا باب واسع ولهذا دعا الله الخلق إلى الإعتبار بالعقل المستند إلى الحس وبيّن أن ذلك موافق لما جاءت به الرسل من السمع قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُمْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {الحج 46} ¹

" القلوب أوعية فخيرها أوعاها "

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُمْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {الحج 46} إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء كما خلق العين يرى بها الأشياء والأذن يسمع بها الأشياء وكما خلق سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق والفم للذوق والأنف للشم والجلد للمس وكذلك سائر الأعضاء الباطنة الظاهرة فإذا استعمل العضو فيما خلق له وأعد من أجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السموات والأرض وكان ذلك خيراً وصلاً لذلك العضو ولربه وللشيء الذي استعمل فيه وذلك الإنسان هو الصالح الذي استقام حاله وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالا فذلك خسران وصاحبه مغبون وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب كما سمي قلباً قال النبي صلى الله عليه وسلم إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب وقال صلى الله عليه وسلم إن في الإسلام علانية والإيمان في القلب ثم أشار بيده إلى صدره وقال ألا إن التقوى هاهنا ألا إن التقوى هاهنا وإذا خلق ليعلم به فتوجه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر كما أن إقبال الإذن على الكلام ابتغاء سماعه هو الإصغاء والاستماع وانصراف الطرف إلى الأشياء طلباً لرؤيتها هو النظر فالفكر للقلب كالإصغاء للأذن إذا سمعت ما أصغت إليه ومثله نظر العينين في شيء وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبة كما أن الأذن إذا سمعت ما أصغت إليه أو العين إذا أبصرت ما نظرت إليه وكم من ناظر مفكر لم يحب العلم ولم ينله كما أنه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره ومستمع إلى صوت لا يسمعه وعكسه من يؤتى علماً بشيء لم ينظر فيه ولم تسبق منه سابقة فكر كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصد إليه أو سمع قولاً من غير أن يصغي إليه وذلك كله لأن القلب بنفسه يقبل العلم وإنما الأمر موقوف على شرائط واستعداد قد يكون فعلاً من الإنسان فيكون مطلوباً وقد يأتي فضلاً من الله فيكون موهوباً فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء لا أقول أن يعلمها فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلاً له بل غافلاً عنه ملغياً له والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويثبتته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنياً فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره وذلك هو الذي أوتي الحكمة { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } {البقرة 269} وقال أبو الدرداء إن من الناس يؤتى من علماً ولا يؤتى حكماً وإن شداد بن أوس ممن أوتي علماً وحكماً هذا مع أن الناس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كامل وناقص وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك ثم هذه الأعضاء الثلاثة هي أمهات ما ينال به العلم يدرك أعني العلم الذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات دون ما يشاركه فيه من الشم الذوق واللمس وهنا يدرك به ما يحب ويكره وما يميز به من يحسن إليها ويسيء إلى غير ذلك قال الله تعالى { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {النحل 78} وقال { ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } {السجدة 9} وقال { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } {الإسراء 36} وقال { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً } {الأحقاف 26} وقال { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً } {البقرة 7} وقال فيما لكل عضو من هذه الأعضاء

¹الصفدية ج: 1 ص: 227

من العمل والقوة {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا} الأعراف 179 ثم إن العين تقصر عن القلب والأذن وتفارقهما في شيء وهو أنها إنما ترى بها الأشياء الحاضرة والأمور الجسمانية مثل الصور والأشخاص فأما القلب والأذن فيعلم بهما ما غاب عن الإنسان وما لا مجال للبصر فيه من الأشياء بنفسه إذا كان العلم بها هو غذاؤه وخاصيته أما الأذن فإنها تحمل الكلام المشتمل على العلم إلى القلب فهي بنفسها إنما تتال القول والكلام فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب وإنما سائر الأعضاء حجته توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه حتى إن من فقد شيئاً من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الوساطة فيه فالأصم لا يعلم ما في الكلام من العلم والضرير لا يدري ما تحوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب فإنه لا يعقل شيئاً فمدار الأمر على القلب وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} الحج 46 حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السوابق فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها ومثله قوله {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} الفرقان 44 وتتبين حقيقة الأمر في قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق 37 فإن من يوتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله واتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه فذلك صاحب القلب أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه وتبين له ويعظه ويؤديه فهذا أصغى فألقى السمع وهو شهيد أي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد أوتى العلم وكان له ذكرى ويتبين قوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} 42 {وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} 43 {يونس 42-43} وقوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} الأنعام 25 ثم إذا كان حق القلب أن يعلم الحق فإن الله هو الحق المبين {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} يونس 32 إذا كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر ويحول في لفظة خاطر ف الله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علماً إلا بما هو من آياته البينة في أرضه وسمائه وأصدق كلمة قالها لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه وجدته إلى العدم ما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه هم هدى رأبته حينئذ موجوداً مكسوا حل الفضل والإحسان فقد استبان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام أظنه سليمان الخواص رحمه الله الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولاً ب الله عاقلاً للحق مفكراً في العلم فقد وضع موضعه كما أن العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها أما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يبرع فيه الحق فنسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج أن يقال قد وضع في غير موضعه بل لم يوضع أصلاً فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلاً وما ليس بشيء أحرى إلا أن يكون موضعاً والقلب هو بنفسه لا يقبل إلا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} الفتح 23 وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلى فإن من لا يزال من أودية الأفكار وأقطار الأماني لا يكون على الحال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان العزيز الحكيم وإنما تنكشف له هذه الحال عند رجوعه إلى الحق إما في الدنيا عند الإنابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوء الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالاً عن الحق هذا إذا صرف إلى الباطل فأما لو ترك وحالته التي فطر عليها فارغاً عن كل ذكر وخالياً من كل فكر لقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء لا تحس فيها من جدعاء {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} الروم 30 وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمي ويصم فيبقى في ظلمة الأفكار وكثيراً ما يكون ذلك كبراً يمنعه عن أن يطلب

الحق {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} النحل 22 وقد يعرض الهوى بعد أن عرف الحق فيجده ويعرض عنه كما قال سبحانه فيهم {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 ثم القلب للعمل كالإناء للماء والوعاء للغسل والوادي للسيل كما قال تعالى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدْرِهَا} الرعد 17 الآية وقال للنبي صلى الله عليه وسلم إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت فيها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما أرسلت به ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به وفي حديث كميل بن زياد عن علي رضي الله عنه قال القلوب أوعية فخيرها أوعاها وبلغنا عن بعض السلف قال القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها وأصفاها وهذا مثل حسن فإن القلب إذا كان رقيقا لنا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا ورسخ فيه وأثر وإن يكن قاسيا غليظا يكن قبوله للعلم صعبا عسيرا ولا بد من ذلك أن يكون زكيا صافيا سليما حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمرا طيبا وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم وكان كالدغل في المزدرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت منعه من أن يزكو ويطيب وهذا بين لأولي الأبصار وتلخيص هذه الجملة أنه إذا استعمل في الحق فله وجهان وجه مقبل على الحق ومن هذا الوجه يقال له وعاء وإناء لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه ويوضع فيه وهذه الصيغة وجود ثبوت ووجه معرض عن الباطل ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم وطاهر لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر والخبث والدغل وهذه الصيغة عدم ونفي وبهذا يتبين أنه إذا صرف إلى الباطل فله وجهان وجه الوجود أنه منصرف إلى الباطل مشغول به ووجه العدم أنه معرض عن الحق غير قابل له وهذا يبين من البيان والحسن والصدق ما في قوله إذا ما وضعت القلب في غير موضع وضع بغير إناء فهو قلب مضيع فإنه لما أراد أن يبين حال من ضيع قلبه فظلم نفسه بأن اشتغل بالباطل وملا به قلبه حتى لم يبق فيه متسع للحق ولا سبيل له إلى الولوج فيه ذكر ذلك منه فوصف حال هذا القلب بوجهيه ونعته بمذهبيه فذكر أولا وصف الوجود منه فقال إذا ما وضعت القلب في غير موضع يقول إذا شغلته بما لم يخلق له فصرفته إلى الباطل حتى صار موضوعا فيه ثم الباطل على منزلتين إحداها تشغل عن الحق ولا تعانده مثل الأفكار والمهموم التي من علائق الدنيا وشهوات النفس والثانية تعاند الحق وتصد عنه مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك بل القلب لم يخلق إلا لذكر الله فما سوى ذلك فليس موضعا له ثم ذكر ثانيا ووصف العدم منه فقال بغير إناء يقول إذا وضعته بغير إناء فوضعتة ولا إناء معك كما تقول حضرت المجلس بلا محبرة فالكلمة حال من الواضع لا من الموضوع والله أعلم وبيان هذه الجملة والله أعلم أنه يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع فاشتغل بالباطل ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق ويتنزل إليه الذكر والعلم الذي هو حق القلب فقلبك إذا مضيع ضيعته من وجهي التضییع وإن كانا متحدين من جهة أنك وضعتة في غير موضوع ومن جهة أنه لا إناء معك يكون وعاء لحقه الذي يجب أن يعطاه كما لو قيل لملك قد أقبل على اللهو إذا اشتغلت بغير المماسكة وليس في الملك من يدبره فهو ملك ضائع لكن هنا الإناء هو القلب بعينه وإنما كان ذلك لأن القلب لا ينوب عنه غيره فيما يجب أن يصنعه {وَلَا تَرَرُ وَازْرَرَةٌ وَأُخْرَى} الأنعام 164 وإنما خرج الكلام في صورة اثنين بذكر نعتين لشيء واحد كما جاء نحوه في قوله تعالى {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} آل عمران 3-4 قال قتادة والربيع هو القرآن فرق فيه بين الحلال والحرام والحق والباطل وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف كالشيء الواحد وهو مع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتنزل منزلة أشخاص ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب بمنزلة حاسب وطبيب والرجل الذي يحسن النجارة والبناء بمنزلة نجار وبناء والقلب لما كان يقبل الذكر والعلم فهو بمنزلة الإناء الذي يوضع فيه الماء وإنما ذكر في هذا البيت الإناء من بين سائر أسماء القلب لأنه هو الذي يكون رقيقا وصافيا وهو الذي يأتي به المستطعم المستعطي في منزلة البائس الفقير ولما كان ينصرف عن البال فهو زكي وسليم فكانه اثنان ويتبين في الصورة أن الإناء غير القلب فهو يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع وهو الذي يوضع فيه الذكر والعلم ولم يكن معك إناء يوضع فيه المطلوب فتركها ثم أقبل يطلب طعاما فقبل له هات إناء نعطك طعاما فأما إذ أتيت وقد وضعت زبديتك مثلا في البيت وليس معك إناء نعطيك فيه شيئا رجعت بخفي حنين وإذا تأمل من له بصر بأساليب البيان وتصارييف اللسان وجد موقع هذا الكلام من العربية والحكمة كليهما موقعا حسنا بليغا فإن نقيض هذه الحال المذكورة أن يكون القلب مقبلا على الحق والعلم والذكر معرضا عن

ذكر غير ذلك وتلك هي الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فإن الحنف هو الميل عن الشيء بالإقبال على آخر فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده والإعراض عما سواه وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا هو اللهم ثبتنا عليها في الدنيا وفي الآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله¹

سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس بالحركة

قال تعالى { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } الحج46 أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا فيقال فلان يسمع فلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله { **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ** } البقرة171 وقوله { **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ** } الأنبياء45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس بالحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ** } الأنعام36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعاني السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم²

قال تعالى { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } الحج46 قال تعالى { **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** } طه44 أن التذکر سبب الخشية و الخشية حاصلة عن التذکر فذكر التذکر الذى هو السبب و ذكر الخشية التى هي النتيجة و إن كان أحدهما مستلزما للآخر كما قال { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** } ق37 و كما قال أهل النار { **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } الملك10 و قال { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } الحج46 فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو و إلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال { **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } محمد16 و قال { **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ** } يونس42 و قال { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف2 و كذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع و قد اعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا { **قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } الملك9 و كذلك المعترين بأثار المعذبين الذين قال فيهم { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** } الحج46 إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل و الناجين الذين صدقوهم فسمعوا قول الرسل و صدقوهم³

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص:330-332

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 195

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 185

الحق لا ينقض بعضه بعضا بل يصدق بعضه بعضا

قال تعالى { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } 46 { **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** } 47 { **وَكَايِنٌ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أُمَلِّئْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** } 48 { **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** } 49 { **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } 50 { **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** } 51 { **الحج 46-51** } فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضا بل يصدق بعضه بعضا بخلاف الباطل فإنه مختلف متناقض كما قال تعالى في المخالفين للرسول { **وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ** } 7 { **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ** } 8 { **يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكُ** } 9 { **الذاريات 7-9** } وإن ما علم بمعقول صريح لا يخالفه قط لا خبر صحيح ولا حس صحيح وكذلك ما علم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقل ولا حس وكذلك ما علم بالحس الصحيح لا يناقضه خبر ولا معقول والمقصود هنا الكلام مع من يعارض المعقولات بسمع أو حس فنقول لفظ المعقول يراد به المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرتهم التي فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا وهذه المعقولات في العمليات والعمليات هي التي ذم الله من خالفها بقوله { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } { **الحج 46** }¹

وأن الأدلة العقلية الصريحة موافقة للكتاب والسنة²

فالقول الصدق المعلوم بعقل أو سمع يصدق بعضه بعضا لا يكذب بعضه بعضا قال تعالى { **وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** } { **الزمر 33** } بعد قوله { **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** } { **الزمر 32** } وإنما مدح من جاء بالصدق وصدق بالحق الذي جاءه وهذه حال من لم يقبل إلا الصدق ولم يرد ما يجيبه به غيره من الصدق بل قبله ولم يعارض بينهما ولم يدفع أحدهما بالأخر وحال من كذب على الله ونسب إليه بالسمع أو العقل ما لا يصح نسبه إليه أو كذب بالحق لما جاءه فكذب من جاء بحق معلوم من سمع أو عقل وقال تعالى عن أهل النار { **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } { **الملك 10** } فأخبر أنه لو حصل لهم سمع أو عقل ما دخلوا النار وقال تعالى { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } { **الحج 46** } وقال تعالى { **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** } { **فصلت 53** } أي أن القرآن حق فأخبر أنه سيرى عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين أن الآيات المتلوة المسموعة حق³

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 396

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 258

³مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 241

الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبَ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } 46 { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } 47 { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمَلِّيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } 48 { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } 49 { فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } 50 { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } 51 { الحج 46-51 فإن الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } الحج 46 و قد قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { الروم 30-31 و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة إقرءوا إن شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30 و الفطرة تستلزم معرفة الله و محبته و تخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد و هو التوحيد و هذا معنى قول لا إله إلا الله كما جاء مفسرا كل مولود يولد على هذه الملة و روى على ملة الإسلام و في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا¹

قال تعالى { فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَتِ الذُّكْرَى } 9 { سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى } 10 { وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى } 11 { الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى } 12 { الأعلى 9-12 فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } غافر 13 وقال { تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } 8 { ولهذا قالوا في قوله { سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى } الأعلى 10 سيعتظ بالقرآن من يخشى الله وفي قوله { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } غافر 13 انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } 10 وقال سبحانه { إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ } يس 11 فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ { يس 10 فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذي تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 { وَمَنْ هَدَيْتَهُ فَلَمْ يَهْتَدِ كَمَا قَالَ { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } فصلت 17 فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحسوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعي ويقال الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقذور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيق فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذي يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } 109 { وَتَقَلَّبَ أَفْنَدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } 110 { الأنعام 109 وقال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } الصف 5 وقال { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ } النساء 155 وقال في الآية الأخرى { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ

{البقرة 88 و العلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقف كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى { بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ {البقرة 88 و {طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا {النساء 155 وقال تعالى {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ {محمد 16 وكذلك قالوا {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ {هود 91 قال {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ {الأنفال 23 أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها { لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ {الأنفال 23 فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفي عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا {الفرقان 44 وقال {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ {الأعراف 179 وقال {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ {البقرة 171 وقال عن المنافقين {صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ {البقرة 18 ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمى البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج 46 والقلب هو الملك والأعضاء جنوده وإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا¹

بصر القلب هو البصر و عماه هو العمى

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج 46 القلب من شأنه أن يبصر فان بصره هو البصر و عماه هو العمى كما قال تعالى { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج 46 فتارة يرى الشئ نفسه إذا كشف له عنه وتارة يراه متمثل فى قلبه الذى هو مرآته والقلب هو الرأى أيضا وهذا يكون يقظة ويكون مناما كالرجل يرى الشئ فى المنام ثم يكون إياه فى اليقظة من غير تغير وللقلب حال ثالثة كما للعين نظر فى المنام وهى التى تقع لغالب الخلق أن يرى الرؤيا مثلا مضروبا للحقيقة لا يضبط رؤية الحقيقة بنفسها ولا بواسطة مرآة قلبه ولكن يرى ماله تعبير فيعتبر به و عبارة الرؤيا هو العبور من الشئ إلى مثاله ونظيره وهو حقيقة المقايسة والاعتبار فان إدراك الشئ بالقياس والاعتبار الذى ألفه الانسان واعتاده أيسر من إدراك شئ على البديهة من غير مثال معروف²

لفظ العقل فى القرآن

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج 46 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 24- 30

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 638

الأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا {الحج46} وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } آل عمران118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} {الملك10} وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} {الحج46} والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة²

وأما قول السائل اين مسكن العقل فيه فالعقل قائم بنفس الانسان التى تعقل وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} {الحج46} وقيل لابن عباس بماذا نلت العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التى فى الجانب الأيسر من البدن التى جوفها علقة سوادء كما فى الصحيحين عن النبى ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد فان فسدت فسد لها سائر الجسد وقد يراد بالقلب باطن الانسان مطلقا فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك ومنه سمي القلب قليبا لأنه اخرج قلبه وهو باطنه وعلى هذا فاذا اريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماعه ايضا ولهذا قيل ان العقل فى الدماغ كما يقوله كثير من الاطباء ونقل ذلك عن الامام احمد ويقول طائفة من اصحابه ان اصل العقل فى القلب فاذا كمل انتهى الى الدماغ والتحقيق ان الروح التى هى النفس لها تعلق بهذا وهذا وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا لكن مبدا الفكر والنظر فى الدماغ ومبدا الاراده فى القلب والعقل يراد به العلم فالعلم والعمل الاختيارى اصله الاراده وأصل الاراده فى القلب والمريد لا يكون مريدا إلا بعد تصور المراد فلا بد ان يكون القلب متصورا فيكون منه هذا وهذا ويبتدىء ذلك من الدماغ وآثاره صاعدة إلى الدماغ فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء وكلا القولين له وجه صحيح وهذا مقدار ما وسعته هذه الاوراق والله اعلم³

الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

³مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 303-304

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {46} وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } {47} وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أُمْلِيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَهَا فَتَأْتِيهَا الْمَوْتُ وَأَلَيْهَا الْمَصِيرُ } {48} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } {49} فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } {50} وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } {51} الحج 46-51 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

وقال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ } الفجر 5 أى لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الْبُقْرَةَ 197 وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّةُ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحِثَمٍ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44²

وان الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون كما قال الله تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } الحج 46 وقال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } النحل 65 وقال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } 37 فقد بين القرآن أن من كان يعقل أو كان يسمع فانه يكون ناجيا وسعيدا ويكون مؤمنا بما جاءت به الرسل وقد بسطت هذه الامور فى غير موضع والله أعلم³

الطريق العقلية فى القياس والاعتبار

قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {46} وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } {47} وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أُمْلِيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَهَا فَتَأْتِيهَا الْمَوْتُ وَأَلَيْهَا الْمَصِيرُ } {48} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } {49} فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } {50} وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } {51} الحج 46-51 والحكم بين الشيين بالتماثل أو التفاضل يستدعي معرفة كل منهما

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

³ مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 246

ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم وكتابه أصح أو أن سيبويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} {الإسراء 55} والكلام في شيين أحدهما في كون المفضول يستحق تلك المنزلة دون الفاضل وهذا غاية الجهل والظلم كقول الرافضة الذين يقولون إن عليا كان إماما عالما عادلا والثلاثة لم يكونوا كذلك وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون إن موسى كان رسولا ومحمد لم يكن كذلك فإن هذا في غاية الجهل والظلم بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة ولكن فضل المفضول فهذا أقل جهلا وظلما ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون تارة في الكتب المنزلة عليهم وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم فمن عنده علم وعدل فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل أو في معجزات محمد ومعجزات غيره أو في شريعته وشريعة غيره أو في أمته وأمة غيره وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر وغيره هو النبي الصادق نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك كما أن كثيرا من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم عن علي رضي الله عنه فهؤلاء في الجهل وطلب العلم عليهم فرض خصوصا أمر النبوة فإن النظر في أمر من قال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {الأعراف 158} مقدم على كل شيء إذ كان التصديق بهذا مستلزما لغاية السعادة والتكذيب به مقتضيا لغاية الشقاوة فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل والهدى والضلال والفرق بين أولياء الله وأعدائه وكما يسلك هذه الطريق العقلية في القياس والاعتبار بأن يعتبر حال محمد وكتابه وشرعه وأمه بحال غيره وكتابه وشرعه وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان وأيها أفضل وإذا تبين أن حاله أفضل كان تصديقه أولى وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب بل لو كانا متماثلين وجب كونه صادقا بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل فإن المتنبي الكذاب لا يقارب الصادق بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس وكذلك نسلك هذه الطريق في جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقا وأمهم بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأمهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} {الحج 46} ¹

العمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له

قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} {49} {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {50} {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} {51} {الحج 49-51} قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} {التوبة 33} فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {الحج 50} ²

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 135

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238

وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاء بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنقيحاً ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هى التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فىبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبى إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله وقوله ومنه قول النبى العيان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا** } الحج39 هو الاذن الشرعي بمعنى أباح له ذلك و أجازة كما قال تعالى { **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ** } الأحزاب53 و قوله { **لَيْسَتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** } النور58 و نحو ذلك¹

2- قال تعالى { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } الحج39 وهو الإذن الشرعي بمعنى أباح له ذلك و أجازة²

3- قال تعالى { **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } الحج39 قدير منزه عن العجز والضعف³

4- قال تعالى { **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } الحج40 أن مواضع الساجد تسمى مساجد كما قال تعالى { **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** } الجن18 وقال تعالى { **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** } البقرة114 وقال تعالى { **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ** } التوبة17 وقال تعالى { **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } الأعراف29 ولا تسمى مقامات الا بعد فعل السجود فيها فعلم أن أعظم افعال الصلاة هو السجود الذي عبر عن مواضع السجود بأنها مواضع فعله⁴

5- قوله { **لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ** } الحج40 المراد بالصلاة مواضع الصلاة كما قال تعالى { **لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ** } الحج40⁵

قد قيل إن الصلوات اسم لمعابد اليهود يسمونها صلوات باسم ما يفعل فيها كمنظائره وهو انما استعمل لفظ الصلوات في المكان مقرونا بقوله { **لَهْدَمَتْ** } الحج40 والهدم انما يكون للمكان فاستعمله مع هذا اللفظ في المكان⁶

6- قال تعالى { **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } الحج40 وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي يقول الله تعالى عبدي مرضت فلم تعدني فيقول رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده عبدي جعت فلم تطعمني فيقول رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي ففي هذا الحديث ذكر المعنيين الحقيقين ونفى المعنيين الباطلين وفسرهما فقوله جعت ومرضت لفظ اتحاد يثبت الحق وقوله لوجدتني عنده

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 415

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 135

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 79

⁵شرح العمدة ج: 1 ص: 390

⁶مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 467

ووجدت ذلك عندي نفي للاتحاد العيني بنفي الباطل واثبات لتمييز الرب عن العبد وقوله لوجدتني عنده لفظ ظرف وبكل يثبت المعنى الحق من الحلول الحق الذي هو بالإيمان لا بالذات ويفسر قوله مرضت فلم تعدني فلو كان الرب عين المريض والجائع لكان اذا عادته واذا أطعمه يكون قد وجده اياه وقد وجده قد أكله وفي قوله في المريض وجدنتني عنده وفي الجائع لوجدت ذلك عندي فرقان حسن فان المريض الذي تستحب عيادته ويجد الله عنده هو المؤمن بربه الموافق لإلهه الذي هو وليه وأما الطاعم فقد يكون فيه عموم لكل جائع يستحب اطعامه فان الله يقول {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} البقرة 245 فمن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة فقد أقرض الله سبحانه بما أعطاه لعبده وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يأخذها بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم وقال ان الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل لكن الأشبه أن هذا العبد المذكور في الجوع هو المذكور في المرض وهو العبد الولي الذي فيه نوع اتحاد وان كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمي ونظير القرض النصر في مثل قوله تعالى {وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} الحج 40 {وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} الحديد 25 وقوله {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} محمد 7 ونحو ذلك لكن النصر فيه معنى لكن لا يقال في مثله جعلت فقد ذكر الله في القرآن القرض والنصر وجعله له هذا في الرزق وهذا في النصر وجاء في الحديث العيادة وهذه الثلاثة هي المذكورة في قوله تعالى {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَجَيْنَ الْبَأْسِ} البقرة 177 وقوله {مَسْتَهْتِمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلُوفًا} البقرة 214 وانما في الحديث أمر البأساء والضراء فقط لأن ذلك ينفرد به الواحد المخاطب بقوله عبدی مرضت وجعت فلذلك عاتبه وأما النصر فيحتاج في العادة الى عدد فلا يعتب فيه على أحد معين غالبا أو المقصود بالحديث التنبيه وفي القرآن النصر والرزق وليس فيه العيادة لأن النصر والقرض فيه عموم لا يختص بشخص دون شخص وأما العيادة فانما تكون لمن يجد الحق عنده¹

7- قال تعالى { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحج 40 قوي عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب²

8- قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 المعروف طاعة الله وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر والمنكر معصية الله ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور³

9- قال تعالى { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِنْرِ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } الحج 45 كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائما وإما غالبا فيطلق الإسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة وقد يقع على أحدهما مفردا كلفظ النهر و القرية و الميزاب ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالإسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ثم تقول حفر النهر فالمراد

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 392

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³الاستقامة ج: 2 ص: 311

به المجرى و تقول جرى النهر فالمراد به الماء وتقول جرى الميزاب تعنى الماء ونصب الميزاب تعنى الخشب و قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 والمراد السكان في المكان وقال تعالى { وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } الأعراف 4 و قال تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا } يوسف 82 و قال تعالى { وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } الكهف 59 و قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ } هود 102 و قال تعالى { لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا } الشورى 7 و قال تعالى { فَكَايُنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ } الحج 45 و الخاوي على عروشه المكن لا السكان و قال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا } البقرة 259 لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ } الأنعام 6 وقوله { وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا } الكهف 33 فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر و كذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص و سائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الأمور لبسطها موضع آخر¹

لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } يوسف 82 مثل قوله { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً } النحل 112 فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف²

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 37- 45 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

الحج 52-60

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {54} وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ } {55} الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَأَلْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } {56} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } {57} وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } {58} لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ } {59} ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } {60}

الأنبياء معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} الحج 52-53

أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أتوه كما قال تعالى { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } {136} فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {137} البقرة 136-137 وقال { وَلَكِنَّ الْبُرِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ } {البقرة 177} وقال { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } {البقرة 285} بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء الله ولهذا من سب نبيا من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ومن سب غيرهم لم يقتل وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة فإن النبي هو المنبأ عن الله والرسول هو الذي أرسله الله تعالى وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته هذا فيه قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجى وقالوا إن هذا لم يثبت ومن علم أنه ثبت قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا وقالوا في قوله { إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } {الحج 52} هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلًا ثابتًا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {54} الحج 52-54 فقالوا

الأثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطنا في النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ وهذا النوع أدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده عن الهوى من ذلك النوع فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتبتم هذه الآية { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } الأحزاب 37 ألا ترى أن الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ فبيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألفاه الشيطان هو أدل على تحريه للصدق وبرأته من الكذب وهذا هو المقصود بالرسالة فإنه الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم تسليمًا ولهذا كان تكذيبه كفرًا محضًا بلا ريب وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ومتنازعون في العصمة من الكبار والصغار أو من بعضها أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع والقول الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للأثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقًا والرد على من يقول أنه يجوز إقرارهم عليها وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسى بهم مشروع وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا ومعلوم أن التأسى بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورًا به ولا منهيًا عنه فضلًا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقيح أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة وقال آخر لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً الخ وقد قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 وقال تعالى { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } الفرقان 70 وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبا عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر فيقول الله له إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول أي رب إن لي سيئات لم أرها إذا رأى تبدل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقا منها أن تظهر ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبدل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبدل وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير إن العبد ليعمل الحسنه فيدخل بها النار وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة يعمل الحسنه فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة وقد قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } 72 { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } 73 { الأحزاب 72-73 } فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم ثم أن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأمة الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني والعصمة التي كانوا ادعوا لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى { فَأَتِمَّا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } النور 54 الآية و الله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من

ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 وقول الخليل عليه السلام { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } إبراهيم 41 وقوله { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } الشعراء 82 وقول موسى { أَنْتَ وَلِيِّنا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } {155} وَكَتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ } {156} الأعراف 155-156 وقوله { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقوله { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } الأعراف 143 وقوله تعالى عن داود { فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } {24} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لِرُفْقَى وَحُسْنَ مَآبٍ } {25} ص 24 وقوله تعالى عن سليمان { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } ص 135

وللناس فيها قولان مشهوران بعد إتفاقهم على أن التمنى هو التلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله { وَمِنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } البقرة 78 وأما من أول النهي على تمنى القلب فذاك فيه كلام آخر وإن قيل إن الآية تعم النوعين لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعاً لقوله بعد ذلك { فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } {53} الحج 52-53 وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها وهو يوافق ما ذكرناه وإذا كان التمنى لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان الأول أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه و الثاني وهو الذي عليه عامة السلف ومن إتبعهم أن الإلقاء في نفس التلاوة كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه كما وردت به الآثار المتعددة ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة إلا إذا أقر عليه ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ كما قال فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به فإني لن أكذب على الله ولولا ذلك لما قدمت الحجة به فإن كونه رسول الله يقتضى أنه صادق فيما يخبر به عن الله والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقر عليه لم يكن كل ما يخبر به عن الله والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا وقصدوا خير وأحسنوا في ذلك لكن يقال لهم ألقى ثم أحكم فلا محذور في ذلك فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذا موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من أخباره برفعه ولهذا قال في النسخ { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } البقرة 143 فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنون من معنى الوعد وهذا جائز لا محذور فيه إذا لم يقرؤا عليه وهذا وجه حسن وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث²

القائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة

قال تعالى { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } الحج 53

أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى وهذا هو مقصود الرسالة فإن الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 335-339 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 319

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 190-192

الخطأ وتنازعا هل يجوز أن يسبق على لسانه ما يستدركه الله تعالى ويبينه له بحيث لا يقره على الخطأ كما نقل أنه ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ثم إن الله تعالى نسخ ما ألقاه الشيطان وأحكم آياته فمنهم من لم يجوز ذلك ومنهم من جوزه إذ لا محذور فيه فإن الله تعالى ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته والله عليم حكيم قال تعالى { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } الحج 53 وهم متفقون على أنهم لا يقرون على خطأ في الدين أصلا ولا على فسوق ولا كذب ففي الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله فهم متفقون على تنزيههم عنه وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها فلا يصدر عنهم ما يضرهم كما جاء في الأثر كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة والله { يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 وإن العبد ليفعل السيئة فيدخل بها الجنة وأما النسيان والسهو في الصلاة فذلك واقع منهم وفي وقوعه حكمة استئنان المسلمين بهم كما روى في موطأ مالك إنما أنسى أو أنسى لأسن وقد قال صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني أخرجاه في الصحيحين ولما صلى بهم خمسا فلما سلم قالوا له يا رسول الله أزيد في الصلاة قال وما ذاك قالوا صليت خمسا فقال الحديث¹

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } الحج 53 وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أفعاله مشروع ولولا ذلك ما جاز الإقتداء به وهذا ضعيف فإنه قد تقدم أنهم لا يقرون بل لا بد من التوبة والبيان والإقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر فأما المنسوخ والمنهي عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالإتفاق فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها فالأفعال التي لم يقر عليها أولى بذلك وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب فقد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير²

" اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج من بينهما إلا حق "

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} الحج 52-53

الحديث النبوي هو عند الإطلاق ينصرف إلى ما حدث به عنه بعد النبوة من قوله وفعله وقراره فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة فما قاله إن كان خيرا وجب تصديقه به وإن كان تشريعا إيجابا أو تحريما أو إباحة وجب اتباعه فيه فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خيرا إلا حقا وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبيء الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه ولهذا كان كل رسول نبيا وليس كل نبي رسولا وإن كان قد يوصف بالارسال

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 471

² رسالة في التوبة ج: 1 ص: 276-277

المقيد في مثل قوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {الحج 52} وقد اتفق المسلمون على انه لا يستقر فيما بلغه باطل سواء قيل أنه لم يجر على لسانه من هذا الإلقاء ما ينسخه الله أو قيل أنه جرى ما ينسخه الله فعلى التقديرين قد نسخ الله ما ألقاه الشيطان وأحكم الله آياته والله عليم حكيم ولهذا كان كل ما يقوله فهو حق وقد روى أن عبد الله بن عمرو كان يكتب ما سمع من النبي فقال له بعض الناس إن رسول الله يتكلم في الغضب فلا تكتب كلما تسمع فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج من بينهما إلا حق يعني شفثيه الكرمتين وقد ثبت عن أبي هريرة أنه قال لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظ مني إلا عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب بيده ويعي بقلبه وكنت أعي بقلبي ولا اكتب بيدي¹

الفرق بين النبيين وغيرهم

قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {53} {الحج 52-53}

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان مما يناقض مقصود التبليغ²

ومما يبين الفرق بين النبيين وغيرهم أن الله سبحانه أوجب الإيمان بما أوتيه كل نبي من غير استثناء وأيضا فإنه أخبر بعصمة ما جاءت به الأنبياء ونسخ ما يلقيه الشيطان من الباطل في أمانياتهم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {الحج 52} فإن قيل ففي قراءة ابن عباس أو محدث وبهذا احتج الحكيم الترمذي وغيره قيل أولا هذه القراءة إذا ثبت أنها قراءة فلا يعرف لفظ بقية سائر الكلام معها كيف كان فإنها بتقدير صحتها إما من الحروف السبعة وإما مما نسخت تلاوته وعلى التقديرين فيجوز أن يكون نظم سائر الآية كان على وجه لا يدل على عصمة المحدث بل فيها نسخ ما يلقيه في أمينته النبي والرسول دون المحدث وإن ثبت أن الله تعالى كان ينسخ ما يلقيه الشيطان في قلوب المحدثين قبلنا فلا يقتضي أن ذلك بوحى يأتيه بل يكون ذلك بعرضه ذلك على نبوات الأنبياء فإن خالف ذلك كان مردودا وحينئذ فيكون حفظ الولي بمتابعة الكتاب والسنة ولا ريب أن السنة كما كان الزهري يذكر عن مضي من سلف المؤمنين قال كان من مضي من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجا وقال مالك السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وإن قدر أن المحدث ممن قبلنا كان ينسخ ما يلقيه الشيطان فيما يلقي إليه من غير استدلال بالنبوة فيكون من كان قبلنا كانوا مأمورين باتباع المحدث مطلقا لعصمة الله إياه ونحن لم نؤمر بذلك وسبب ذلك أن من كان قبلنا لم يكن يكفيهم نبوة واحدة بل كانوا يأخذون بعض الدين عن هذا النبي وبعضه عن هذا النبي بتصديق الآخر له كما كان أنبياء بني إسرائيل مأمورين باتباع التوراة وكما ان المسيح أحل لهم بعض ما حرم عليهم وأحالهم في أكثر الأحكام على التوراة وأما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهي كافية

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 7-8

²و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 502

لأتمته كما قال تعالى {أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} العنكبوت 51¹

والإيمان بكل ما جاء به الأنبياء واجب فإنهم معصومون ولا يجب الإيمان بكل ما يقوله الولي بل ولا يجوز فإنه ما من أحد من الناس إلا يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سب نبيا من الأنبياء قتل وكان كافرا مرتدا بخلاف الولي قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 53 {الحج 52-53} فإن قيل ففي قراءة ابن عباس ولا محدث قيل هذه القراءة ليست متواترة ولا معلومة الصحة ولا يجوز الاحتجاج بها في أصول الدين وإن كانت صحيحة فالمعنى أن المحدث كان فيمن كان قبلنا وكانوا يحتاجون إليه وكان ينسخ ما يلقيه الشيطان وإليه كذلك وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تحتاج إلى غير محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا كانت الأمم قبلنا لا يكفهم نبي واحد بل يحيلهم هذا النبي في بعض الأمور على النبي الآخر وكانوا يحتاجون إلى عدد من الأنبياء ويحتاجون إلى المحدث وأمة محمد أغناهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن غيره من الأنبياء والرسول فكيف لا يغنيهم عن المحدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر فعلق ذلك بأن ولا يجزم به لأنه علم استغناء أتمته عن محدث كما استغنت عن غيره من الأنبياء سواء كان فيها محدث أو لا أو كان ذلك لكمالها برسولها الذي هو أكمل الرسل وأجملهم وهؤلاء كبعض في أتمته عن الأمم قبلهم²

ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ولم يضمن ذلك للمحدث

قال تعالى في صيانتته وإحكامه لما تبليغه رسله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 53 {الحج 52-53}³

وجب على جميع الخلق اتباع الرسول وطاعته في جميع أموره الباطنة والظاهرة ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنيا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض دينه ولهذا من أقوال المارقين الذين يظنون ان من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى ومن قال هذا فهو كافر وقد قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {الحج 52} فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ولم يضمن ذلك للمحدث ولهذا كان في الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره وما أرسلنا من

¹الصفدية ج: 1 ص: 256-257

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 158-159

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 448

قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ويحتمل والله اعلم ان لا يكون هذا الحرف متلوا حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان في أمنية المحدث فان نسخ ما ألقى الشيطان ليس الا الأنبياء والمرسلين إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى ان يستقر فيه شيء من لقاء الشيطان وغيرهم لا تجب عصمته من ذلك وان كان من أولياء الله المتقين فليس من شرط أولياء الله المتقين ان لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفورا لهم بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقا بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة وقد قال الله تعالى { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } {33} لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ } {34} لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } {35} الزمر 33-35 فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون و المتقون هم أولياء الله ومع هذا فأخبر انه يكفر عنهم اسوأ الذي عملوا وهذا امر متفق عليه بين أهل العلم والايمن وانما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة واشباه الرافضة من الغالية في بعض المشائخ ومن يعتقدون انه من الأولياء فالرافضة ترعم ان الاتنى عشر معصومون من الخطأ والذنب ويرون هذا من أصول دينهم والغالية في المشائخ قد يقولون ان الولي محفوظ والنبي معصوم وكثير منهم ان لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال من يرى ان الشيخ والولى لا يخطيء ولا يذنب وقد بلغ الغلو بالطائفتين الى ان يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وافضل منه وان زاد الامر جعلوا له نوعا من الالهية وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية فان في النصرارى من الغلو في المسيح والأحبار والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن وجعل ذلك عبرة لنا لئلا نسلك سبيلهم ولهذا قال سيد ولد آدم لا تطرونى كما اطرت النصرارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وعصمتهم هي من أن يقرروا على الذنوب والخطأ فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} الحج 52-53¹

فالرسول والنبي والمحدث كما في قراءة ابن عباس وغيره فان الله ينسخ ما يلقي الشيطان والقراءة العامة ليس فيها المحدث إذ يجوز أن يقر على بعض الخطأ ويدخل الشيطان في أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ بخلاف الرسول والنبي فإنه لا بد من نسخ ما يلقي الشيطان وأن يحكم الله آياته لأنه حق والمحدث مأمور بأن يعرض ما يحدثه على ما جاء به الرسول ولهذا ألقى الشيطان لعمر وهو محدث في قصة الحديدية وقصة موت النبي وقصة اختلافه وحكيم بن حزام في سورة الفرقان فأزاله عنه نور النبوة²

القلوب في العلم والايمن ثلاثة أقسام

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {54} وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَعْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ } {55} الحج 52-55 جعل الله القلوب ثلاثة أقسام قاسية وذات مرض ومؤمنة مخبئة وذلك

¹دقائق التفسير ج: 2 ص: 222 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 65-68

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 52

لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافا وإذعانا أو لا تكون يابسة جامدة ف الأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ولا يرتسم فيه العلم لأن ذلك يستدعى محلا لينا قابلا و الثاني لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينة او يكون لينة مع ضعف وانحلال فالثاني هو الذي فيه مرض والأول هو القوى اللين وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلا فاما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوى ولا تبتطش أو تبتطش بعنف فذلك مثل القلب القاسي أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضاها فذلك مثل الذي فيه مرض أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم فبالرحمة خرج عن القسوة وبالعلم خرج عن المرض فان المرض من الشكوك والشبهات ولهذا وصف من عدا هؤلاء بالعلم والايمان والاحبات وفي قوله { **وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** } الحج 54 دليل على أن العلم يدل على الايمان ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة بل معهم العلم والايمان كما قال تعالى { **لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** } النساء 162 وقال تعالى { **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ** } الروم 56 الآية وعلى هذا فقولته { **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** } آل عمران 7 نظير هذه الآية فانه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم وأخبر هناك أنهم يقولون في المتشابه { **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** } آل عمران 7 وكلا الموضوعين موضع ريب وشبهة لغيرهم فان الكلام هناك في المتشابه وهنا فيما يلقي الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه الله مما ألقاه الشيطان ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين ان المحكم هو الناسخ و المتشابه المنسوخ أرادوا والله أعلم قوله { **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ** } { **52** } الحج 52 والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله وقد أشرت الى وجه ذلك فيما بعد وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ومقابل المنسوخ أخرى والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف العام كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق فان هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ويدخل فيه المجله فانه متشابه وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد وكذلك ما رفع حكمه فان في ذلك جميعه نسخا لما يلقيه الشيطان في معانى القرآن ولهذا كانوا يقولون هل عرفت الناسخ من المنسوخ فاذا عرف الناسخ عرف المحكم وعلى هذا فيصح أن يقال المحكم والمنسوخ كما يقال المحكم والمتشابه وقوله بعد ذلك { **ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } { **52** } الحج 52 جعل جميع الآيات محكمة محكمها ومتشابهها كما قال { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ** } هود 1 وقال { **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** } لقمان 2 على أحد القولين وهناك جعل الآيات قسمين محكما ومتشابهها كما قال { **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** } آل عمران 7 وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله فصار المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقا حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ويجعل المنسوخ ليس محكما وإن كان الله أنزله أولا اتباعا لظاهر قوله { **فَيَنْسَخُ اللَّهُ** } { **52** } الحج 52 و { **يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } { **52** } الحج 52

فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفتن لها وجماع ذلك أن الأحكام تارة يكون في التنزيل فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه فان الأحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشيء ويحصل اتقانه ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد فالمنع جزء معناه لا جميع معناه وتارة يكون الأحكام فى ابقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع وهو اصطلاحى أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخا سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلغ وقد يكون فى سمع المبلغ وقد يكون فى فهمه كما قال { **أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** } الرعد 17 الآية ومعلوم أن من سمع النص الذى قد رفع حكمه أو دلالة له فانه يلقي الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به يحصل رفع الحكم وبيان المراد وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار والله أعلم وتارة يكون الأحكام فى التأويل والمعنى وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين قال أحمد بن حنبل المحكم الذى ليس فيه اختلاف والمتشابه الذى يكون فى موضع كذا وفى موضع كذا ولم يقل فى المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه الا الله وانما قال { **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** } آل عمران 7 وهذا هو فصل الخطاب بين الممتازين فى هذا الموضوع فان الله اخبر أنه لا يعلم تأويله الا هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه اصحاب

رسول الله وجمهور التابعين وجماهير الأمة ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص29 وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر وقال {أَفَلَا يَنْدَبُرُونَ الْقُرْآنَ} النساء82 ولم يستثن شيئا منه نهى عن تدبره والله ورسوله انما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله بل أمر بذلك ومدح عليه يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كحيى بن أخطب وغيره من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصائبة المنجمين وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاما لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد اسقاط المكرر وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي في وفد نجران من تأول إنا و نحن على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع وهذا تأويل في الايمان بالله فأولئك تأولوا في اليوم الآخر وهؤلاء تأولوا في الله ومعلوم أن إنا و نحن من المتشابه فانه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه وان لم يكونوا من جنسه ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى فصار هذا متشابها لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع و الأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه وبعض المتواطئة أيضا من المتشابه ويسميتها أهل التفسير الوجوه والنظائر وصنفوا كتب الوجوه والنظائر فالوجوه في الأسماء المشتركة والنظائر في الأسماء المتواطئة وقد ظن بعض اصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعا في الأسماء المشتركة فهي نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى وليس الأمر على ما قاله بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} النحل22 {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي} طه14 {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} المؤمنون91 {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} الفرقان2 {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {4} الاخلاص3-4 ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس اذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها وذلك أن الكلام نوعان إنشاء فيه الأمر واخبار فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به كما قال من قال من السلف ان السنة هي تأويل الأمر قالت عائشة رضی الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن تعنى قوله {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} النصر3 وأما الاخبار فتأويله عين الأمر المخبر به اذا وقع ليس تأويله فهم معناه وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع هذا معناه قال الله تعالى {وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 52 {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ} 53 {الاعراف52-53 فقد أخبر أنه فصل الكتاب وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه ثم قال {هَلْ يَنْظُرُونَ} 53 {الاعراف53} أى ينتظرون {إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} 53 {الاعراف53} الى آخر الآية وانما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها كالدابة وبأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفا صفا وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك فحينئذ يقولون {قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} 53 {الاعراف53} وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته الا الله فان الله يقول {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} {السجدة17} ويقول أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء فان الله قد أخبر أن في الجنة خمرا ولبنا وماء وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله {وَأَنوَأ بِهِ مُتَشَابِهًا} البقرة25 على أحد القولين أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله فأشبهه اسم تلك الحقائق اسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه فنحن نعلمها اذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندرکها في الدنيا ولا سبيل الى ادراكنا لها لعدم ادراك عينها أو نظيرها من كل وجه وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به¹

قال تعالى {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} العنكبوت 49 فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم فانه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به و قد اجتمع فيه من الآيات مالم يجتمع في غيره فانه هو الدعوة و الحجة و هو الدليل و المدلول عليه و الحكم و هو الدعوى و هو البينة على الدعوى و هو الشاهد و المشهود به قال تعالى { فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } العنكبوت 49 سواء أريد به أنه بين في صدورهم أو أنه محفوظ في صدورهم أو أريد به الأمران و هو الصواب فانه محفوظ في صدور العلماء بين في صدورهم يعلمون أنه حق كما قال { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ } سبأ 6 و قال { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } الرعد 19 { وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الحج 54¹

{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ}

قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 53 {الحج 52-53}

كان نسخ ما نسخه الله وإنزل القرآن وانهزام المسلمين يوم احد وغير ذلك من مصائب الدنيا رزية في حق من في قلبه مرض قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} آل عمران 7 وإن كانت هذه الأمور في حق من هداه الله مما يزيدهم الله به علما وإيمانا وهذا كوجود الشياطين من الجن والإنس يرفع الله به درجات أهل الإيمان بمخالفتهم ومجاهدتهم مع ما في وجودهم من الفتنة لمن أضلوه وأغوه وهذا كقوله تعالى {وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} المدثر 31 وقوله {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ} البقرة 143 وقول موسى {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} الأعراف 155 وقوله {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ} القمر 27 وقوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 53 {وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 54 {الحج 52-54}²

القرآن مزيل للامراض الموجبة لارادات الفاسده

قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 52 {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 53 {وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 54 {وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ} 55 {الحج 52-55} قال الله تعالى {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 194

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 574- 575

اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا {الأحزاب 12} فالذين في قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة فذكروا هنا وفي قوله {لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ {الأحزاب 60} وفي قوله {فَيُطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ {الأحزاب 32} وذكر الله مرض القلب في مواضع فقال تعالى {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ {الأنفال 49} والمرض في القلب كالمرض في الجسد فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه أو أفسد عمله وحركته وذلك كما فسروه هو من ضعف الإيمان إما بضعف علم القلب وإعتقاده وإما بضعف عمله وحركته فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفرع فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه وعلى هذا فقوله {فَيُطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ {الأحزاب 32} هو إرادة الفجور وشهوة الزنا كما فسروه به ومنه قول النبي وأى داء أدوأ من البخل وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور وقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما شفاء العي السؤال وكان يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من منكرات الاخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض في قلبه كما ذكروا ان رجلا شكا الى احمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف احدا اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك ولهذا اوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال {إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {آل عمران 175} اى يخوفكم اوليائه وقال لعموم بني اسرائيل تنبيهنا لنا {وَأَيَّاءِ فَارَهِبُونَ {البقرة 40} وقال {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ الْمَائِدَةَ 44} وقال {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي {البقرة 150} وقال تعالى {الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي {المائدة 3} وقال {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ {التوبة 18} وقال {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ {الأحزاب 39} وقال {أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةً أَنْحَشْتُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {التوبة 13} فدللت هذه الآية وهي قوله تعالى {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ {الأنفال 49} على ان المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنبياء الصادقة التي توجب امن الانسان من الخوف حتى يظنوا انها كانت غرورا لهم¹

قال الله تعالى عن المنافقين {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا {البقرة 10} وقال {لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا {الأحزاب 60} وقال {وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا {المدثر 31} وقال تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ {يونس 57} وقال {وَنُنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا {الإسراء 82} وقال {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ {14} وَيُدْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ {15} {التوبة 14-15} و مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية فادراكه إما ان يذهب كالعمى والصمم واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرا وكما يخيل اليه أشياء لا حقيقة لها فى الخارج واما فساد حركته الطبيعية فمثل ان تضعف قوته عن الهضم او مثل ان يبغض الأغذية التي يحتاج اليها ويحب الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الارادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل فى البدن إما بسبب فساد الكمية او الكيفية فالأول اما نقص المادة فيحتاج الى غذاء واما بسبب زيادتها فيحتاج الى استقراغ و الثانى كقوة فى الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى فصل وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 448-450

بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله في قلوبهم مرض أى شك وتارة وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض ولهذا صنف الخرائطى كتاب اعتلال القلوب أى مرضها واراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التى لا يقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض فى الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمريض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وان حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس ومرض القلب ألم يحصل فى القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فان ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } {14} وَيُدْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ } {15} التوبة 14-15 فشفاهم يزوال ما حصل فى قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفى القود استشفاء اولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل فى النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبى هلا سألو إذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال والشاك فى الشئ المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذى أجاب بما يبين الحق قد شفانى بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وموته ومرضه وشفاه وشفاهو أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فهذا مرض القلب اذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وان حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه قال تعالى { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ } الحج 53 لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم لبيسها فولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ } الأحزاب 60 كما قال { وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } المدثر 31 لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك { فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } الأحزاب 32 وهو مرض الشهوة فان القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت اليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فذا خضعن بالقول طمع الذى فى قلبه مرض والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البيئات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصاص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطبيعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميهِ ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعىة واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفرغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } النور 21 وقال تعالى { وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } النور 28 وقال { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } النور 30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } {9} وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } {10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } {14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } {15} الأعلى 14-15 وقال تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى } عبس 3 وقال تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّى } {18} وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى } {19} النازعات 18-19 فالتركية وان كان اصلها النماء

" القلوب آنية الله في أرضه فأحبها الى الله أصلبها وارقها وأصفاها "

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {54} الحج 52-54 وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى { فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { الأنعام 43 } وقال { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } { البقرة 74 } قال الزجاج قست في اللغة غلظت وبيست وعست وعتت أى يبست وقوة القلب المحموده غير قسوته المذمومة فانه ينبغى أن يكون قويا من غير عنف ولينا من غير ضعف وفي الأثر القلوب آنية الله في أرضه فأحبها الى الله أصلبها وارقها وأصفاها وهذا كاليد فانها قوية لينة بخلاف ما يقسو من العقب فانه يابس لا لين فيه وان كان فيه قوة فان المتقين كما وصفهم الله بقوله { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } { الأعراف 201 } فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا فيبصرون قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ وقال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذا أبصر رجع ثم قال { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ } { الأعراف 202 } أى واخوان الشياطين تمدهم الشياطين في العي ثم لا يقصرون قال ابن عباس لا الانس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر بقى قلبه فى غي والشيطان يمده فى غيه وان كان التصديق فى قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه وهذا كما أن الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا وان لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وان لم يكن أعمى كعمى الكافر وهكذا جاء فى الآثار قال أحمد بن حنبل فى كتاب الايمان حدثنا يحيى عن أشعث عن الحسن عن النبي قال ينزع منه الايمان فان تاب أعيد اليه¹

الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } {52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {53} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {54} وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {55} الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِهِمْ } {56} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } {57} الحج 52-57 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 30

القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولاً ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصاً له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وقوله {وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولاً أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولاً لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضاً من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاء بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصاً بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفياً لأن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيماً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازماً للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجاً عنه كما في حديث جبريل وإن كان لازماً له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازماً له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ } التوبة 33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله { الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } الحج 56¹

لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار

قال تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الحج 57

لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله { الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْخُلِّ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 37 وقوله { وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 102 وقوله { أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } النساء 151 وقوله { فَبَاؤُوا بَعْضَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } البقرة 90 { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } آل عمران 178 { **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** } الحج 57 { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوعًا وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } الجاثية 9 { وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 5 { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } المجادلة 16 { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } النساء 14 فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعبدا للمؤمنين في قوله { لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } الأنفال 68 وقوله { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النور 14 وفي المحارب { ذَلِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } النساء 93 وقوله { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 94 وقد قال سبحانه { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزي وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان²

لا منافاة بين إيجاب العدل وبين استحباب الفضل

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } 60 { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } 61 { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } 62 { الحج 60-62 } والقرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال فالقرآن بين أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان أبرار مقتصدون ومقربون سابقون فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى { وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ } 41 { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 42 { الشورى 41-42 } فهذا عدل واجب من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة ثم قال { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } 43 { الشورى 43 } فهذا فضل مستحب مندوب إليه من فعله أثابه الله ورفع درجته ومن تركه لم يعاقبه وقال أنس ما رفع للنبي أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو فكان يأمر بالعفو ولا يلزم الناس به ولهذا لما عتقت بريرة وكان لها أن تفسخ النكاح وطلب زوجها أن لا

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 366-367 و الصارم المسلول ج: 2 ص: 109

تفارقة شفع إليها أن لا تفارقه فقالت أتأمرني قال لا إنما أنا شافع فلم يوجب عليها قبول شفاعته وهو سبحانه دائمًا يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل¹

إن الأمر بالإحسان والعفو يحسنه كل أحد وأما معرفة العدل والحكم بين الناس به فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس ولهذا يوجد الذي يصلح بين الناس بالإحسان خلق كثير وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل فناس قليل والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقِيمُوا النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} الحديد 25 وأمر المسيح عليه السلام للمظلوم بالعفو عن الظالم ليس فيه ما يدل على أنه من الواجب الذي من تركه استحق الذم والعقاب بل هو من المرغوب فيه الذي من فعله استحق المدح والثواب وموسى عليه السلام أوجب العدل الذي من تركه استحق الذم والعقاب وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل وبين استحباب الفضل لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف في تركه واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة وهذا فيه رهبة بلا رهبة ولهذا قال المسيح عليه السلام {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُمْ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} المائدة 117 ولهذا قيل إن المسيح عليه السلام بعث لتكميل التوراة فإن النوافل تكون بعد الفرائض كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألتني لآعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وإلا فلو قيل إن المسيح عليه السلام أوجب على المظلوم العفو عن الظالم بمعنى أنه يستحق الوعيد والذم والعقاب إن لم يعف عنه لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم ظالما مستحقا للذم والعقاب وهذا ظلم ثان للمظلوم الذي انتصف فإن الظالم ظلمه أولا فلما انتصف منه ظلم ظالما ثانيا فهو ظلم العادل انتصف من ظالمه وما أحسن كلام الله حيث يقول {فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {36} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَإِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} {37} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {38} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} {39} وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {40} وَلَمَنْ ائْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ} {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {42} وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {43} سورة الشورى الآيات 36 43 وقال تعالى {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ} {60} ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {61} ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} {62} الحج 60- 62 فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله حيث شرع العدل²

" إن الله يلوم على العجز "

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } الحج 60 وقوله تعالى { فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {36}

¹ الجواب الصحيح ج: 5 ص: 61 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 107

² الجواب الصحيح ج: 5 ص: 109-111

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ {37} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {38} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ {39} وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {40} وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {42} وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {43} الشورى 43 فمدحهم على الانتصار تارة وعلى الصبر أخرى و المقصود هنا أن الله لما حمدهم على هذه الصفات من الإيمان والتوكل ومجانبة الكبائر والاستجابة لربهم وإقام الصلاة والإشتوار في أمرهم وانتصارهم إذا أصابهم البغي والعفو والصبر ونحو ذلك كان هذا دليلا على أن ضد هذه الصفات ليس محمودا بل مذموما فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها فلو كان ضدها محمودا لكان عدم المحمود محمودا وعدم المحمود لا يكون محمودا إلا أن يخلفه ما هو محمود ولأن حمدها والثناء عليها طلب لها وأمر بها ولو أنه أمر إستحباب والأمر بالشيء نهى عن ضده قصدا أو لزوما وضد الإنتصار العجز وضد الصبر الجزع فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس حتى بعض المتدينين إذا ظلموا أو أرادوا منكرا فلا هم ينتصرون ولا يصبرون بل يعجزون ويجزعون وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك إن رجلين تحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي أنه قال المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان لا تعجز عن مأمور ولا تجزع من مقدر ومن الناس من يجمع كلا الشرين فأمر النبي بالحرص على النافع والإستعانة بالله والأمر يقتضي الوجوب وإلا فالإستحباب ونهى عن العجز وقال إن الله يلوم على العجز والعاجز ضد الذين هم ينتصرون والأمر بالصبر والنهي عن الجزع معلوم في مواضع كثيرة وذلك لأن الإنسان بين أمرين أمر أمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين بالله ولا يعجز وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ولهذا قال بعض العقلاء ابن المقفع أو غيره الأمر أمران أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن الذى فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له إذ لا يكلف نفسا إلا وسعها وقد أمره بكل خير فيه له حيلة وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله وإسم الحسنات والسيئات يتناول القسمين فالأفعال مثل قوله تعالى {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا} الأنعام 160 ومثل قوله تعالى {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} الإسراء 7 ومثل قوله {وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} الشورى 40 ومثل قوله تعالى {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} البقرة 81 والمصائب المقدره خيرا وشرا مثل قوله {وَبَلَوْنَاكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} الأعراف 168 إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم¹

لو أمرنا كل المظلوم بترك حقه لم يكن للظالمين زاجر يزرهم

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْتَصِرَتْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } الحج 60 أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه فالحاكم الذي يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه كان حاكما بالظلم لا بالعدل ولو أمرنا كل ولي مقتول أن لا يقتص من القاتل وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه بل يدعه على اختياره وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزرهم وظلم الأقوياء الضعفاء وفسدت الأرض قال تعالى {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} البقرة 251 فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ولا بد مع ذلك من نذب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل وهذه شريعة الإسلام مثل قوله {وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 37-39

{ الشورى 40 وقال أنس ما رفع للنبي أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو فكان يأمر بالعفو ولا يلزم الناس به ولهذا لما عتقت بريرة وكان لها أن تفسخ النكاح وطلب زوجها أن لا تفارقه شفع إليها أن لا تفارقه فقالت أتأمرني قال لا إنما أنا شافع فلم يوجب عليها قبول شفاعته¹

وذلك أن المظلوم وإن كان مآذونا له في دفع الظلم عنه بقوله تعالى {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ} الشورى 41 فذلك مشروط بشرطين أحدهما القدرة على ذلك والثاني ألا يعتدى فإذا كان عاجزا أو كان الانتصار يفضي إلى عدوان زائد لم يجز وهذا هو أصل النهي عن الفتنة فكان إذا كان المنتصر عاجزا وانتصاره فيه عدوان فهذا هذا ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة²

" كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفاوا "

القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ } الحج 60 قال تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } الرحمن 60 و قال { وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } النساء 86 و قال { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 وقال { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى } البقرة 178 و قال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 و قال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل و اجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات³

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ } الحج 60 قال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } الشورى 39 قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفاوا قال تعالى { هُمْ يَنْتَصِرُونَ } الشورى 39 يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا ودلا بل هذا مما يذم به الرجل والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق لا مع إهمال حق الله وحق العباد والله تعالى أعلم⁴

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 107

²الاستقامة ج: 1 ص: 40

³مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 521

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 174

أمر العالم في الشريعة مبنى على العدل

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ } الحج 60 إن كل خير فهو داخل في القسط والعدل وكل شر فهو داخل في الظلم ولهذا كان العدل أمرا واجبا في كل شيء وعلى كل أحد والظلم محرما في كل شيء ولكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا أو كان ظالما بل الظلم إنما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضا قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ { المائدة 8 } أي لا يحملنكم شنان أي بغض قوم وهم الكفار على عدم العدل { قَوْمٌ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ عَدْلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } المائدة 8 وقال تعالى { فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ } البقرة 194 وقال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } الشورى 40 وقد دل على هذا قوله في الحديث يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فإن هذا خطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحدا أحدا وأمر العالم في الشريعة مبنى على هذا وهو العدل في الدماء والأموال والإبضاع والأنساب والأعراض ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك ومقابلة العادى بمثل فعله لكن المماثلة قد يكون **علمها أو عملها** متعذرا أو متعسرا ولهذا يكون الواجب ما يكون أقرب إليها بحسب الإمكان ويقال هذا أمثل وهذا أشبه هذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما هو العدل والحق في نفس الأمر إذ ذلك معجز عنه ولهذا قال تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152 فذكر أنه لم يكلف نفسا إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لأن الكيل لا بد له أن يفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء يسير لا يمكن الإحتراز منه فقال تعالى { لَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152 ولهذا كان القصاص مشروعا إذا أمكن إستيفاؤه من غير جنف كالإقتصاص في الجروح التي تنتهي إلى عظم وفي الأعضاء التي تنتهي إلى مفصل فإذا كان الجنف واقعا في الإستيفاء عدل إلى بدله وهو لدية لأنه أشبه بالعدل من إتلاف زيادة في المقتص منه وهذه حجة من رأى من الفقهاء أنه لا قود إلا بالسيف في العنق قال لأن القتل بغير السيف وفي غير العنق لا نعلم فيه المماثلة بل قد يكون التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد إيلا ما لكن الذين قالوا يفعل به مثل ما فعل قولهم أقرب إلى العدل فإنه مع تحرى التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل ما يقدر عليه من العدل وما حصل من تفاوت الألم خارج عن قدرته وأما إذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه فقويل ذلك بضرب عنقه بالسيف أو رض رأسه بين حجرين فضرب السيف فهنا قد تيقنا عدم المعادلة والمماثلة وكنا قد فعلنا ما تيقنا إنتفاء المماثلة فيه وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الأول فإن المماثلة قد تقع إذ التفاوت فيه غير متيقن وكذلك القصاص في الضربة واللطمة ونحو ذلك عدل عنه طائفة من الفقهاء إلى التعزير لعدم إمكان المماثلة فيه والذي عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد ما جاءت به سنة رسول الله من ثبوت القصاص به لأن ذلك أقرب إلى العدل والمماثلة فإننا إذا تحرينا أن نفعل به من جنس فعله ونقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من ان نأتى بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنسا وقدرنا وصفة وهذا النظر أيضا في ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريبا أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك في مواضع ضمان الحيوان وغيره ونص عليه الشافعى فيمن خرب حائط غيره أنه يبنيه كما كان وبهذا قضى سليمان عليه السلام في حكومة الحرث التي حكم فيها هو وأبوه كما قد بين ذلك في موضعه فجميع هذه الأبواب المقصود للشريعة فيها تحرى العدل بحسب الإمكان وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل في نفس الأمر وإن كان كل منهم قد أوتى علما وحكما لأنه هو الذى أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل وضده الظلم كما قال سبحانه يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ولما كان العدل لا بد أن يتقدمه علم إذ من لا يعلم لا يدري ما العدل والإنسان ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه فصار عالما عادلا صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة اصناف العالم الجائر والجاهل الظالم فهذان من اهل النار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار فهذان القسمان كما قال من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن قال في القرآن برأيه فأخطأ فليتبوأ مقعده من النار وكل من حكم بين اثنين فهو قاض سواء كان صاحب حرب او متولى ديوان أو منتصبا للإحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط فإن الصحابة كانوا يعدونه من الحكام ولما كان الحكام مأمورين

بالعدل والعلم وكان المفروض إنما هو بما يبلغه جهد الرجل قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر¹

البغى مصرع الباغي الظالم

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } الحج 60 ثبت في الصحيح عن النبي انه قال ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله ولا نقصت صدقة من مال وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } الشورى 40 وقال تعالى { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 42 { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } 43 { الشورى 42- 43 } فالباغي الظالم ينتقم الله منه في الدنيا والآخرة فان الباغي مصرعه قال ابن مسعود ولو بغى جبل على جبل جعل الله الباغي منهما دكا ومن حكمة الشعر قضى الله ان الباغي يصرع اهله وان الباغي تدور الدوائر ويشهد لهذا قوله تعالى { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } يونس 23 الآية وفي الحديث ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا من الباغي وما حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم فمن كان من احدى الطائفتين باغيا ظلما فليتق الله وليتوب ومن كان مظلوما مبيغيا عليه وصبر كان له البشرى من الله قال تعالى { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } البقرة 155 قال عمرو بن اوس هم الذين لا يظلمون اذا ظلموا وقد قال تعالى للمؤمنين فى حق عدوهم { وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 وقال يوسف عليه السلام لما فعل به اخوته ما فعلوا فصبر واتقى حتى نصره الله ودخلوا عليه وهو فى عزه { قَالُوا أَأَتَتْكَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فمن إتقى الله من هؤلاء وغيرهم بصدق وعدل ولم يتعد حدود الله وصبر على اذى الآخر وظلمه لم يضره كيد الآخر بل ينصره الله عليه²

القصاص ثابت باتفاق الأمة

القصاص ثابت بين المسلمين باتفاق الأمة يقتص للهاشمي المسلم من الحبشي المسلم وللحبشي المسلم من الهاشمي المسلم فى الدماء والأموال والأعراض وغير ذلك بحيث يجوز القصاص فى الأعراض يجوز للرجل أن يقتص فإذا قال له الهاشمي يا كلب قال له يا كلب وإذا قال لعنك الله قال له لعنك الله ويجوز ذلك وهذا من معنى قوله تعالى { وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } 41 { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 42 { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } 43-41 ولو كذب عليه لم يكن له أن يكذب عليه وكذلك من سب أبا رجل فليس له أن يسب أباه سواء كان هاشميا أو غير هاشمي فإن أبا الساب لم يظلمه وإنما ظلمه الساب { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 ولكن إن سب مسلم أبا مسلم فإنه يعزر على ذلك فالهاشمي إذا سب أبا مسلم عزر الهاشمي على ذلك ومن سب أبا هاشمي عزر على ذلك ولا يجعل ذلك سبا للنبي ولو سب أباه وجده لم يحمل على النبي فإن اللفظ ليس ظاهرا فى ذلك إذ الجد المطلق هو أبو الأب وإذا سمي العبد جدا فأجداده كثيرة فلا يتعين واحد وسب النبي كفر يوجب القتل فلا يزول الإيمان المتعين

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 419-424 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 167-170

² مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 135-136

بالشك ولا يباح الدم المعصوم بالشك لا سيما والغالب من حال المسلم هو أن لا يقصد النبي فلا لفظه ولا حاله يقتضي ذلك ولا يقبل عليه قول من ادعى أنه قصد الرسول بلا حجة والله أعلم¹

ان الأمور منها ما يباح فيه القصاص ومنها ما لا يباح فيه

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } الحج 60 فإن الأمور منها ما يباح فيه القصاص كالقتل وقطع الطريق وأخذ المال ومنها ما لا يباح فيه القصاص كالفواحش والكذب ونحو ذلك قال تعالى في الأول { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 وقال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 وقال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 فأباح العقوبة والاعتداء بالمثل فلما قال صلى الله عليه وسلم ههنا ولا تخن من خانك علم ان هذا مما لا يباح فيه العقوبة بالمثل²

فان الشريعة مبناها على العدل كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25 { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 والله قد شرع القصاص في النفوس والأموال والأعراض بحسب الامكان فقال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } البقرة 178 الآية وقال تعالى { وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } المائدة 45 الآية وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 الآية وقال تعالى { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 الآية وقال تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 الآية فاذا قتل الرجل من يكافئه عمدا عدوانا كان عليه القود ثم يجوز أن يفعل به مثل ما فعل كما يقوله أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في إحدى الروايتين بحسب الامكان إذا لم يكن تحريمه بحق الله كما إذا رضخ رأسه كما رضخ النبي رأس اليهودي الذي رضخ رأس الجارية كان ذلك أتم في العدل بمن قتله بالسيف في عنقه وإذا تعذر القصاص عدل إلى الدية وكانت الدية بدلا لتعذر المثل وإذا اتلف له مالا كما لو تلفت تحت يده العارية فعليه مثله ان كان له مثل وان تعذر المثل كانت القيمة وهي الدراهم والدنانير بدلا عند تعذر المثل ولهذا كان من أوجب المثل في كل شيء بحسب الامكان مع مراعاة القيمة اقرب إلى العدل ممن أوجب القيمة من غير المثل وفي هذا كانت قصة داود وسليمان وقد بسطنا الكلام على هذه الأبواب كلها في غير هذا الموضع وإنما المقصود هنا التنبيه وحينئذ فتجوز العرايا ان تباع بخرصها لأجل الحاجة عند تعذر بيعها بالكيل موافق لأصول الشريعة مع ثبوت السنة الصحيحة فيه وهو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث ومالك جوز الخرص في نظير ذلك للحاجة وهذا عين الفقه الصحيح ومذهب أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في جزاء الصيد انه يضمن بالمثل في الصورة كما مضت بذلك السنة واقضية الصحابة فان في السنن أن النبي قضى في الضبع بكبش وقضت الصحابة في النعامة ببذنة وفي الطبي بشاة وأمثال ذلك ومن خالفهم من أهل الكوفة انما يوجب القيمة في جزاء الصيد وأنه يشتري بالقيمة الانعام والقيمة مختلفة باختلاف الأوقات³

والقصاص في الجراح ايضا ثابت بالكتاب والسنة والاجماع بشرط المساواة فاذا قطع يده اليمنى من مفصل فله ان يقطع يده كذلك وإذا قلع سنه فله أن يقطع سنه وإذا شجه في رأسه أو وجهه فأوضح العظم فله أن يشجه كذلك وإذا لم

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 84

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 375

³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 351

تمكن المساواة مثل أن يكسر له عظاما باطنا او يشجه دون الموضحة فلا يشرع القصاص بل تجب الدية المحدودة أو الأرش واما القصاص في الضرب بيده او بعصاه او سوطه مثل ان يطمه او يلجمه او يضربه بعصا ونحو ذلك فقد قالت طائفة من العلماء إنه لاقتصاص فيه بل فيه التعزير لأنه لا تمكن المساواة فيه والمأثور عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين ان القصاص مشروع في ذلك وهو نص أحمد وغيره من الفقهاء وبذلك جاءت سنة رسول الله وهو الصواب قال أبو فراس خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فذكر حديثا قال فيه ألا إني والله ما أرسل عمالي اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفسى بيده إذا لأقصنه منه فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين ان كان رجل من المسلمين أمر على رعية فأدب رعيته أئناك لتقصه منه قال إى والذى نفس محمد بيده إذا لأقصنه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعواهم حقوقهم فتكفروهم رواه الامام احمد وغيره ومعنى هذا إذا ضرب الوالى رعيته ضربا غير جائز فأما الضرب المشروع فلا قصاص فيه بالاجماع إذ هو واجب أو مستحب أو جائز فصل والقصاص فى الاعراض مشروع ايضا وهو ان الرجل إذا لعن رجلا او دعا عليه فله أن يفعل به كذلك وكذلك إذا شتمه يشتمه لا كذب فيها والعفو أفضل قال الله تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {40} ولَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ {41} الشورى 40-41 وقال النبى صلى الله عليه وسلم المستبان ما قالوا فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم ويسمى هذا الانتصار والشتيمة التى لا كذب فيها مثل الاخبار عنه بما فيه من القبائح او تسميته بالكلب او الحمار ونحو ذلك فأما إن افتري عليه لم يحل له ان يفترى عليه ولو كفره او فسقه بغير حق لم يحل له ان يكفره او يفسقه بغير حق ولو لعن أباه او قبيلته او أهل بلده ونحو ذلك لم يحل له ان يتعدى على أولئك فانهم لم يظلموه قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } المائدة8 فأمر الله المسلمين ألا يحملهم بعضهم للكفار على ألا يعدلوا وقال { اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } المائدة8 فان كان العدوان عليه فى العرض محرما لحقه لما يلحقه من الأذى جاز الاقتصاص منه بمثله كالدعاء عليه بمثل مادعاه وأما إذا كان محرما لحق الله تعالى كالكذب لم يجز بحال وهكذا قال كثير من الفقهاء إذا قتله بتحريق أو تغريق أو خنق أو نحو ذلك فإنه يفعل به كما فعل ما لم يكن الفعل محرما فى نفسه كتجريب الخمر واللواط به ومنهم من قال لا قود عليه إلا بالسيف والأول أشبه بالكتاب والسنة والعدل فصل وإذا كانت الفرية ونحوها لاقتصاص فيها ففيها العقوبة بغير ذلك فمنه حد القذف الثابت فى الكتاب والسنة والاجماع قال الله تعالى {3} وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ نَمَائِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {4} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {5} النور 4-5 فاذا رمى الحر محصنا بالزنا واللواط فعليه حد القذف وهو ثمانون جلده وإن رماه بغير ذلك عوقب تعزيرا وهذا الحد يستحقه المقذوف فلا يستوفى إلا بطلبه باتفاق الفقهاء فان عفا عنه سقط عند جمهور العلماء لأن المغلب فيه حق الأدمى كالقصاص والأموال وقيل لايسقط تغليباً لحق الله لعدم المماثلة كسائر الحدود وإنما يجب حد القذف إذا كان المقذوف محصنا وهو المسلم الحر العفيف فأما المشهور بالفجور فلا يحد قاذفه وكذلك الكافر والرفيق¹

جميع المتلفات تضمن بالجنس بحسب الامكان مع مراعاة القيمة

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } الحج60 ان جميع المتلفات تضمن بالجنس بحسب الامكان مع مراعاة القيمة حتى الحيوان كما انه فى القرض يجب فيه رد المثل واذا اقترض حيوانا رد مثله كما اقترض النبى بكرا ورد خيرا منه وكذلك فى المغرور يضمن ولده بمثلهم كما قضت به الصحابة وكذلك اذا استثنى رأس المبيع ولم يذبحه فان الصحابة قضوا بشرائه اى برأس مثله فى القيمة وهذا احد

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 379 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 128-129

القولين في مذهب احمد وغيره وقصة داود وسليمان عليهما السلام من هذا الباب فان الماشية كانت قد اتلفت حرث القوم وهو بستانهم قالوا وكان عينا والحرث اسم للشجر والزرع فقضى داود بالغنم لاصحاب الحرث كانه ضمنهم ذلك بالقيمة ولم يكن لهم مال الا الغنم فأعطاهم الغنم بالقيمة واما سليمان فحكم بأن اصحاب الماشية يقومون على الحرث حتى يعود كما كان فضمنهم اياه بالمثل واعطاهم الماشية يأخذون منفعتها عوضا عن المنفعة التي فاتت من حين تلف الحرث الى ان يعود وبذلك افتى الزهري لعمر بن عبد العزيز فيمن كان اتلف له شجرا فقال يغرسه حتى يعود كما كان وقيل رببعة وابو الزناد قالوا عليه القيمة فغلظ الزهري القول فيهما وهذا موجب الأدلة فان الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الامكان قال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } الشورى 40 وقال { فَمَنْ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 وقال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 وقال { وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ } البقرة 194 فاذا اتلف نقدا او حبوبا ونحو ذلك امكن ضمانها بالمثل وان كان المتلف ثيابا او آنية او حيوانا فهنا مثله من كل وجه وقد يتعذر فالأمر دائر بين شيئين اما ان يضمه بالقيمة وهي دراهم مخالفة للمتلف في الجنس والصفة لكنها تساويه في المالىة واما ان يضمه بثياب من جنس ثياب المثل او آنية من جنس آنيته او حيوان من جنس حيوانه مع مراعاة القيمة بحسب الامكان ومع كون قيمته بقدر قيمته فهنا المالىة مساوية كما في النقد وامتاز هذا بالمشاركة في الجنس والصفة فكان ذلك امثل من هذا وما كان امثل فهو اعدل فيجب الحكم به اذا تعذر المثل من كل وجه ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفاق الصحابة من القصاص في اللطمة والضربة وهو قول كثير من السلف وقد نص عليه احمد في رواية اسماعيل بن سعيد الشالنجي التي شرحها الجوزجاني في كتابه المسمى بالمرجم فقال طائفة من الفقهاء المساواة متعذرة في ذلك فيرجع الى التعزير فيقال لهم ما جاءت به الآثار هو موجب القياس فان التعزير عقاب غير مقدر الجنس ولا الصفة ولا القدر والمرجع فيه الى اجتهاد الوالى ومن المعلوم الأمر بضرب يقارب ضربة وان لم يعلم انه مساو له اقرب الى العدل والمماثلة من عقوبة تخالفه في الجنس والوصف غير مقدره اصلا واعلم ان المماثل من كل وجه متعذر حتى في المكيلات فضلا عن غيرها فانه اذا اتلف صاعا من بر فضمن بصاع من بر لم يعلم ان احد الصاعين فيه من الحب ما هو مثل الآخر بل قد يزيد احدهما على الآخر ولهذا قال تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُفْ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا } الأنعام 152 فان تحديد الكيل والوزن مما قد يعجز عنه البشر ولهذا يقال هذا امثل من هذا اذا كان اقرب الى المماثلة منه اذا لم تحصل المماثلة من كل وجه¹

اذا اختصم رجلان وجب ان يقام في امرهما بالقسط

قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } الحج 60 فاذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب ان يقام في امرهما بالقسط قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } النساء 135 وقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } المائدة 8 وقال { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } الحجرات 9 الآية وقد روى ان اقتتلهما كان بالجريد والنعال وقد قال تعالى { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء 114 الآية وقال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } النساء 58 وقال { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } الشورى 40 وقال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } النحل 126 الآية فان كان الشخصان قد اختصما نظر امرهما فان تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فان كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص في ذلك وان كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 563-565

على غير الظالم فاذا لعنه او سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فاذا لعن اياه لم يكن له أن يلعن اياه لأنه لم يظلمه وان افترى عليه كذبا لم يكن له ان يفتري عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير من العلماء فى القصاص فى البدن أنه اذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل فهذا أصح قولى العلماء الا ان يكون الفعل محرما لحق الله كفعل الفاحشة أو تجريعه الخمر فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم وان كان بعضهم سوغه بنظير ذلك واذا اعترف الظالم بظلمه وطلب من المظلوم ان يعفو عنه ويستغفر الله له فهذا حسن مشروع كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء انه كان بين أبى بكر وعمر كلام وان أبى بكر طلب من عمر ان يستغفر له فأبى عمر ثم ندم فطلب أبى بكر فوجده قد سبقه إلى النبى وذكر له ذلك فقال النبى يغفر الله لك يا أبى بكر ثم قال ايها الناس انى قد جئت إليكم فقلت انى رسول الله فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت فهل انتم تاركوا لى صاحبى واذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب كان من المحسنين الذين اجرهم على الله وان أبى الا طلب حقه لم يكن ظالما لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن فليس لأحد ان يخرج من أهل الطريق بمجرد ذلك كما قد يفعله كثير من الناس قال الله تعالى { وَلمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل } {41} إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم } {42} ولمن صبر وعفر إن ذلك لمن عزم الأمور } {43} الشورى 41-43 فانه لو كان من ترك الاحسان الذى لا يجب عليه يحسب خارجا عن الطريق خرج عنه جمهور أهله و أولياء الله على صنفين مقربين سابقين وأصحاب يمين مقتصدین كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فى سمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتى لأعطينه ولئن استعذتى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونهم لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه أو قرينه ونحو ذلك والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح كما أوجبه فى الحكم فقال تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات 9 وقيد الاصلاح الذى يثيب عليه بالاخلاص فقال تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء 114 اذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح إما لسمعة وإما لرياء ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو ويصالحه الظالم وترغيبه فى ذلك فان الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم نذب فيها إلى العفو كقوله سبحانه { وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } المائدة 45 وقوله { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى 40 وعن أنس قال ما رفع إلى رسول الله صلى عليه وسلم شيء فى القصاص الا أمر فيه بالعفو وليس من شرط طلب العفو من المظلوم ان الظالم يقوم على قدميه ولا يضع نعليه على رأسه ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق فاذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه ثم المستحق بالخيار ان شاء عفى وان شاء استوفى وللمظلوم أن يهجره ثلاثا وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه لقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم ان

يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام واما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب والفواحش والبدع المخالفة للكتاب والسنة أو اضاءة الصلاة بالتفريط وواجباتها ونحو ذلك فهذا لا بد فيه من التوبة وهل يشترط مع التوبة اظهار الاصلاح فى العمل على قولين للعلماء وإذا كان لهم شيخ مطاع فان له ان يعزر العاصى بحسب ذنبه تعزيرا يليق بمثله أن يفعله بمثله مثل هجره مدة كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم وديناهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله { أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } النساء 59 بأمراء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } الحديد 25 وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيرهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به

غيرهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وهو اضعف الايمان وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينفى من شرب الخمر وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة لخوف فتنة النساء به وقد مضت سنة رسول الله بالنفى فى الزنا ونفى المخنث¹

لطائف لغوية

1-أمنية هي التلاوة و منه قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الحج 52 قال الشاعر تمنى كتاب الله أول ليلة و آخرها لاقى حمام المقادر²

2-قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الحج 52 عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه³

3-قال تعالى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } الحج 58 وهو الرازق ذو القوة المتين يرزق من يشاء بغير حساب⁴

4-قال تعالى { لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} الحج 59 عليم منزه عن الجهل حلیم منزه عن السفه⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 547- 552

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 435

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 401

⁵الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الحج 61-70

{ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } 61
 { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } 62
 { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } 63 { لَهُ
 مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } 64 { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
 مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
 بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ } 65 { وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } 66 { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَارِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى
 رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ } 67 { وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } 68 { اللَّهُ يَحْكُمُ
 بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } 69 { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } 70

قال تعالى { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } الحج 61

{ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ }

وقد قال أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وهذا تصديق قوله تعالى { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } الحج 62 وقال تعالى { فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } يونس 32 وقال سبحانه { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } القصص 88 قال طائفة من السلف كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه وقد قال سبحانه { وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتِ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 87 { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } 88 { القصص 87-88 و الإله هو المألوه أى المستحق لأن يؤله أى يعبد ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده وكل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال بمعنى المركوب والمحمول وكان الصحابة يرتجزون فى حفر الخندق يقولون هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا وأظهر وإذا قيل هذا هو الامام فهو الذى يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لابراهيم { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَلِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } البقرة 124 فعهده بالامامة لا ينال الظالم فالظالم لا يجوز أن يؤتم به فى ظلمه ولا يركن اليه كما قال تعالى { وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسْكُمُ النَّارُ } هود 113 فمن انتم بمن لا يصلح للامامة فقد ظلم نفسه فكيف بمن جعل مع الله الها آخر وعبد من لا يصلح للعبادة والله تعالى { لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الالهية هى القدرة والربوبية فالاله هو القادر وهو الرب وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون فى أمور لكن امامهم ابن عربى يقول الأعيان ثابتة فى العدم

وجود الحق فاض عليها فلماذا قال فنحن جعلناه بمألوهايتها لها فزعم أن المخلوقات جعلت الرب لها لها حيث كانوا مألوهاين ومعني المألوهين عنده مربوبين قلوبهم مألوهاين حيث كانت أعينهم ثابتة في العدم وفي كلامهم من هذا وامثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا و التحقيق أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء في الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به فيكون سببا في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 والله سبحانه خالق الانسان ومعلمه فهو الذي { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } 2 { العلق 2 } وهو الأكرم { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } 4 { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } 5 { العلق 4-5 } ولو قدر أن الاله بمعنى الرب فهو الذي جعل الربوب مربوبا فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوها والمربوب لم يجعله ربا بل ربوبيته صفة وهو الذي خلق الربوب وجعله مربوبا وهو اذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله ربا ولم يبيع ربا سوى الله ولم يتخذ ربا سواه كما قال تعالى { قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ } وقال تعالى { أَعْبُدُوا اللَّهَ } 164 { الأنعام 164 } وقال { وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } آل عمران 80 وهو أيضا في نفسه هو الاله الحق لا اله غيره فاذا عبده الانسان فقد وحده من لم يجعل معه الها آخر ولا اتخذ الها غيره قال تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } الإسراء 22 وقال ابراهيم لأبيه أزر { أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } الأنعام 74 فالمخلوق ليس باله في نفسه لكن عابده اتخذها وجعله الها وسماه الها وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره كما أن الجاهل اذا اتخذ اماما ومفتيا وقاضيا كان ذلك باطلا فانه لا يصلح أن يفتى ولا يقضى وغير الله لا يصلح ان يتخذ الها يعبد ويدعى فانه لا يخلق ولا يرزق وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع خولا يستجيب له فدعاه باطل وضلال كل من سوى الله اما أنه لا يسمع دعاء الداعي أو يسمع ولكن لا يستجيب له فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء ألبتة وقد قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } 22 { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } 23 { سبأ 22-23 } فغير الله لا مالك لشيء ولا شريك في شيء ولا هو معاون للرب في شيء بل قد يكون له شفاعة ان كان من الملائكة والانبيا والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع وان يأذن للمشفوع له أن يشفع له ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة فلا يصلح من سواه لان يكون الها معبودا كما لا يصلح أن يكون خالقا رازقا لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير¹

فان للانسان قوتين قوة علمية فهي تحب الحق وقوة عملية فهي تحب الجميل والجميل هو الحسن والقيح ضده فاللغة التي جاء بها القرآن وتكلم بها الرسول لفظ الحق منها يتضمن النوعين كقوله صلى الله عليه وسلم كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق وقوله الوتر حق فمن شاء أوتر بركة ومن شاء أوتر بثلاث ومن شاء أوتر بخمس او سبع ومثل هذا موجود في غير موضع من كلامه ومن هذا الباب قوله اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل ومنه قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ } الحج 62 وقوله { فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ } يونس 32 ومعلوم أن ما عبد من دونه موجود مخلوق ولكن عبادته باطلة وهو باطل لان المقصود منه بالعبادة معدوم ولهذا يقول الفقهاء بطلت العبادة وبطل العقد وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } محمد 33 والابطال ضد الاحقاق وقال تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلًا أَعْمَالُهُمْ } 1 { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } 3 { محمد 1-3 } وقد بين الله ان الاعمال السيئة القبيحة باطلة في مثل قوله { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 202-205

كَسْرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {39} أَوْ كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ {40} النور 39-40 فهذا الثاني مثل ما يصدر عن الجهل البسيط والاول الجهل المركب وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَتَلْتُهُ كَمَتَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا } البقرة 264 فهذا مثل إبطال العمل بالمن والاذى وبالرياء والكفر والمقصود انها لم تبق نافعة بخلاف العمل الحق المحمود فانه نافع ومنه قوله تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا } الفرقان 23¹

كل معبود من دون الله باطل

قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } الحج 62 ان فقر الاشياء الى خالقها لازم لها لا يحتاج الى علة كما ان غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى الى علة وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته الا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغنى الا بالله وهذا من معانى الصمد وهو الذى يفتقر اليه كل شىء ويستغنى عن كل شىء بل الاشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فلو لم يخلق شيئا بمشيئته وقدرته لم يوجد شىء وكل الأعمال ان لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته والا كانت أعمالا فاسدة فان الحركات تفتقر الى العلة الغائية كما افتقرت الى العلة الفاعلية بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ولولا ذلك لم يفعل فلو لا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شىء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد وهذا معنى قوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } الأنبياء 22 ولم يقل لعدمنا وهذا معنى قول لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل وهو كالدعاء المأثور أشهد أن كل معبود من لدن عرشك الى قرار أرضك باطل الا وجهك الكريم ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبي كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رمية بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجته فانهن من الحق وقوله عن عمر رضى الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل في ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ } الحج 62 فان الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اى غير مطابق واتصافها بالالهية فى انفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } الأنبياء 18 وقوله {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } الإسراء 81 فان الكذب باطل لأنه غير مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة فقول النبي أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل هذا معناه ان كل معبود من دون الله باطل كقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ } لقمان 30 وقال تعالى {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } {31} فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } {32} يونس 31-32 وقد قال قبل هذا { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } يونس 30

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 434

كما قال فى الانعام { وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّنَا رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } {الأنعام 61} وقال { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد3 { ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال كيف تجدك قال أجدنى مردودا الى الله مولاي الحق قال تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {24} {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {النور 24-25} وقد اقرؤا بوجوده فى الدنيا لكن فى ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ولهذا قال { هُوَ الْحَقُّ } {النور 25} بصيغة الحصر فانه يومئذ لا يبقى أحد يدعى فيه الالهية ولا أحد يشرك بربه احداً وإذا عرف تنزيه الرب عن صفات النقص مطلقا فلا يوصف بالسفول ولا علو شىء عليه بوجه من الوجوه بل هو العلى الاعلى الذى لا يكون الا أعلى وهو الظاهر الذى ليس فوقه شىء كما اخبر النبى وأنه ليس كمثله شىء فيما يوصف به من الافعال اللازمة والمتعدية لا النزول والا الاستواء ولا غير ذلك فيجب مع ذلك اثبات ما اثبته لنفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله والادلة العقلية الصحيحة توافق ذلك لا تناقضه ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة والسلف بل الصحابة والتابعون لهم باحسان كانوا يقرون أفعاله من الاستواء والنزول وغيرهما على ما هى عليه¹

فلفظ الاله يقتضى أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه وليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الالهة كثيرة و لكن تسميتهم آلهة و الخبر عنهم بذلك و اتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } {النجم 23} وقال { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ } {الحج 62} فالالهة التى جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بالآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا و هو لا يحسن شيئا من ذلك ولا بد لكل إنسان من إله يألهه و يعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد آله ذلك محبة و ذلا و تعظيما كما قد بسط فى غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم و قضى بأن لا يعبد إلا إياه²

{ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }

قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } {الحج 62} وإسمه العلى يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدرا فهو أحق بصفات الكمال و يفسر بأنه العالى عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم و هم المقدورون و هذا يتضمن كونه خالقا لهم و ربا لهم و كلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شىء فلا شىء فوقه كما قال النبى صلى الله عليه و سلم أنت الأول فليس قبلك شىء و أنت الآخر فليس بعدك شىء و أنت الظاهر فليس فوقك شىء و أنت الباطن فليس دونك شىء فلا يكون شىء قبله و لا بعده و لا فوقه و لا دونه كما أخبر النبى صلى الله عليه و سلم و أثنى به على ربه و إلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقضا و كان ذلك أعلى منه و إن قيل إنه لا داخل العالم و لا خارجه كان ذلك تعطيلاً له فهو منزّه عن هذا و هذا هو العلى الأعلى مع أن لفظ العلى و العلو لم يستعمل فى القرآن عند الإطلاق إلا فى هذا و هو مستلزم لذينك لم يستعمل فى مجرد القدرة و لا فى مجرد الفضيلة و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } {الأعراف 54} فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبي العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَىٰ } {الأعراف 54} قال إرتفع و كذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515
²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 172-173

رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية
{ ثُمَّ اسْتَوَى { الأعراف54 قال إرتفع¹

لفظ الدعاء والدعوة

قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } الحج62 والدعاء
قصد المدعو والتوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه وإرادته
سواء طلب لذاته أو للأمر منه ومن ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر60 فإنه فسر بالمسألة
و بالعبادة و قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ } الحج62²

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء213 وقال تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون117 وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْقَصَص88 وقال { وَأَتَتْهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } الجن19 وقال { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } النساء117 ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء وسميت الصلاة
دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى
السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له
فذكر اولا لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد
السائل الطالب للخير وذكرهما جميعا بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على
العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة186 وكل سائل
راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل
وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب
المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامثال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ
سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يري في حصول مراده
ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء90 وقال تعالى
{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او
دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع³

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 359

²شرح العمدة ج: 4 ص: 28

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 239-240

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسئلة والإستعانة كما قال تعالى { وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } الأنبياء 90 ودم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } الحج 62¹

{ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } الحج 63 و قد قال تعالى في سورة الملك { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } الملك 14 و هو بيان ما فى المخلوقات من لطف الحكمة التى تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بالطف الوجه كما قال يوسف عليه السلام { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } يوسف 100 و هذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة و العلم بالطريق الموصول و كذلك الخبرة²

الحمد نوعان

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } 63 { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } 64 { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ } 65 { الحج 63-65 اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال و معلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو احق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب³

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } 63 { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } 64 { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ } 65 { الحج 63-65 ان الذى علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حتى قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما⁴

¹ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

² مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 356

³ مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

⁴ مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 348

وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم كقوله **{ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } {الحج 64}** وقول سليمان عليه السلام **{ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } {النمل 40}** وكذلك قوله **{ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ } {التغابن 1}** فإن كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن إخبار المحاسن المحبوبة محبة له وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالأول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الأثر أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي صلى الله عليه وسلم كان من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه¹

العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك

قال تعالى **{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } {63}** **{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } {64}** **{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ } {الحج 63-65}** سمي الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا اضيفت إليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الأسماء وتماتل مساهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الإضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال **{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } {البقرة 255}** وسمى بعض عباده حيا فقال **{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } {الروم 19}** وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي اسم الله مختص به وقوله **{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } {الروم 19}** اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفان إذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي الله نفسه سمي نفسه بالروؤوف الرحيم فقال **{ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ } {الحج 65}** وسمى بعض عباده بالروؤوف الرحيم فقال **{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } {التوبة 128}** وليس الروؤوف كالروؤوف ولا الرحيم كالرحيم وليس هو في ذلك مماثلا لخلق²

خلق المخلوقات وتسخيرها لبني آدم

قال تعالى **{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } {63}** **{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } {64}** **{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ } {الحج 63-65}** وحمل بني آدم في السفينة من اعظم الآيات قال تعالى **{ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ } {41}** **{ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّنْ**

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 314

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 423 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 11-12

مَثَلِهِ مَا يَرْكَبُونَ {42} يس 41-42 و قال {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} لقمان 31¹

وامثال ذلك من الآيات التي يبين فيها انه خلق المخلوقات لبني آدم ومعلوم أن الله فيها حكما عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة وما أسبغ عليهم فإذا قيل فعل كذا لكذا لم يقتض ان لا يكون فيه حكمة اخرى²

أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم

قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } {63} لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } {64} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ } {65} الحج 63-65 قد تنازع الناس في قدرة الرب والعبد فقالت طائفة كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال و به نطق الكتاب و السنة و هو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر و مقدوره المباين له وقد تبين بعض مادل على ذلك في قدرة الرب و أما قدرة العبد فذكر قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة و هذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة مثل قوله { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا } المجادلة 4 { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } التوبة 42 و قول النبي صلى الله عليه و سلم صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك

وأیضا فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم و ما كان مصنوعا لهم فهو مقدر و بالضرورة و الإتفاق و المنازع يقول ليس شئ خارجا عن محل قدرتهم مصنوعا لهم و هذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} هود 37 و قال {وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ} هود 38 و قد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم و جعلها من آياته فقال {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} يس 41 { سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } الحج 65 { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } الزخرف 12 و قال {أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنَتُونَ} {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {96} الصافات 95-96³

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 172

² مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 97

³ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 17

الموت المثبت غير الموت المنفى

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } {الحج66}

فالقلب إذا كان حيا فمات الانسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست فى نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } {البقرة154} وقال تعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } {آل عمران169} مع انهم موتى داخلون فى قوله { كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ } {الانبيا35} وفى قوله { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } {الزمر30} وقوله { وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } {الحج66} فالموت المثبت غير الموت المنفى المثبت هو فراق الروح البدن والمنفى زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما ان النوم اخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وان كانت الحياة موجودة فيهما قال الله تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {الزمر42} وكان النبى إذ استيقظ من منامه يقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور وفى حديث آخر الحمد لله الذى رد على روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم انت خلقت نفسى وانت توفاه لك مماتها ومحيائها إن امسكتها فارحمها وان ارسلتها فاحفظها لما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم اموت واحيا¹

النسك العبادة ثم خص الحج باسم النسك

قال تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَارِكُ عَلَيْكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ } {الحج67} النسك فى اللغة العبادة قال الجوهرى النسك العبادة و الناسك العابد و قد نسكك و تنسك أى تعبد و نسك بالضم أى صار ناسكا ثم خص الحج باسم النسك لأنه أدخل فى العبادة و الذل لله من غيره و لهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله و العبادة له كالسعي و رمي الجمار قال النبى صلى الله عليه و سلم إنما جعل رمي الجمار و السعي بين الصفا و المروة لإقامة ذكر الله رواه الترمذي و خص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لأن إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له و لهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتى نار من السماء فتأكله و لهذا قال تعالى { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا الْأَلْثَمُونَ } {البقرة175} و تأكله النار قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {آل عمران183} وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغرم و يكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم و أمة محمد صلى الله عليه و سلم و سع الله عليهم لكمال يقينهم و إخلاصهم و أنهم يقاتلون لله و لو أكلوا المغنم و يذبحون لله و لو أكلوا القربان و لهذا كان عباد الشياطين و الأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له و لهذا لم يجز الذبح لغير الله و لا أن يسمى غير الله على الذبائح

و حرم سبحانه ما ذبح على النصب و هو ما ذبح لغير الله و ما سمي عليه غير اسم الله و إن قصد به اللحم لا القربان و لعن النبى صلى الله عليه و آله و سلم من ذبح لغير الله و نهى عن ذبائح الجن و كانوا يذبحون للجن بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب و السنة فى غير موضع وقد قال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ } {الكوثر2} أى إنحر لربك كما قال الخليل { إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {الأنعام162} و قد قال هو و إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {127} { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْبِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } {128} {البقرة128} فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ } {الحج67} و قال تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } {الحج34} و

¹ أمراض القلوب ج: 1 ص: 13 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 111

قال { لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ } الحج 37 كما قال تعالى { وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } الحج 32 فالمقصود تقوى القلوب لله و هو عبادتها له و حده دون ما سواه بغاية العبودية له و العبودية فيها غاية المحبة و غاية الذل و الإخلاص و هذه ملة إبراهيم الخليل و هذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبي صلى الله عليه و سلم إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب و النية و القصد هما عمل القلب فلا بد في المتابعة للرسول صلى الله عليه إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب و النية و القصد هما عمل القلب فلا بد في المتابعة للرسول صلى الله عليه و سلم من إعتبار النية و القصد¹

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ }

والاسلام دين جميع المرسلين قال نوح عليه السلام { فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس 72 وقال الله عن ابراهيم وبنيه ما تقدم وقال يوسف الصديق { تَوَفَّيْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 وقال موسى { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال في التوراة { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا } المائدة 44 قال شيخ الاسلام وقد قررت في غير هذا الموضوع الاسلام العام والخاص والايان العام والخاص كقوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 وأما تنوع الشرائع وتعددتها فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله { قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } البقرة 144 الى قوله { وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيئُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } البقرة 148 فأخبر أن لكل أمة وجهة ولم يقل جعلنا لكل أمة وجهة بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق بخلاف ما ذكره في الشرع والمناهج فانه قال { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا } المائدة 41 الى قوله { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة 50 وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم في الحدود والقصاص والديات أخبر أن التوراة { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا } المائدة 44 وهذا عام في النبيين جميعهم والربانيين والاحبار ثم لما ذكر الانجيل قال { وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ } المائدة 47 فامر هؤلاء بالحكم لأن الانجيل بعض ما في التوراة وافر الاكثر والحكم بما انزل الله فيه حكم بما في التوراة أيضا ثم قال { فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } المائدة 48 فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجا أي سنة وسبيلا فالشرعة الشريعة وهي السنة والمنهاج الطريق والسبيل وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج الى ما جعل له ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله اليه فالأول نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته والثاني وان كان حكما غير الحكم الذي أنزل نهى له ان يترك شيئا مما انزل فيها اتباع محمد الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله وان لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه وقال تعالى في الحج { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } الحج 34 { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ } قَالا **يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ** { الحج 67 } وذكر في أثناء السورة { لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } الحج 40 فبين انه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر في البقرة الوجهة التي يتوجهون اليها وقال في سورة الجاثية بعد أن ذكر بنى اسرائيل { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } الجاثية 18 الآية وقال في النسخ ووجوب اتباعهم للرسول { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 484-486

قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ { آل عمران 81 } وَقَالَ { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } {156} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {157} الأعراف 156-157 وقد تقدم ما في البقرة وآل عمران من أمرهم بالإيمان بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك في سورة النساء وهو كثير في القرآن¹

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبر به الرسل قبله وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة ونهى عن الشرك والشرك والظلم والفواحش كما أمرت ونهت الرسل قبله والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وأما السور لمدينة ففيها هذا وفيها ما يختص به محمد من الشريعة والمنهاج فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وأما الشريعة والمنهاج فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } المائدة 48 وقال { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكَّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَالْحُكْمَ إِلَهُ وَاجِدْ فَالَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } الحج 34 إلى قوله { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } الحج 67²

(ناقص ن م) هذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبتته للمشروع بقوله تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ } الحج 67³

وأما تنوع الناس في العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال فإنهم متنوعون في ذلك أيضاً وقد قال تعالى { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } المائدة 48 وقال تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } الجاثية 18 وقال تعالى { وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُهَا } البقرة 148⁴

الأعياد والمواسم لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم

قال تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } الحج 67 أن الأعياد والمواسم في الجملة لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم كانتفاعهم بالصلاة والزكاة

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 112-114

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 343

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 189

⁴قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 41

والصيام والحج ولهذا جاءت بها كل شريعة كما قال تعالى **{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ}** {الحج 67} ثم إن الله شرع على لسان خاتم النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق على أتم الوجوه وهو الكمال المذكور في قوله تعالى **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا}** {المائدة 3} ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان وهو عيد النحر ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمامة المسلمين وقد نفى الله تعالى الكفر وأهله والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ويروي مرفوعا إن كل أدب يحب أن تؤتى مآدبته وإن مآدبة الله هي القرآن ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته استغنى عن طعام آخر حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشم وربما ضره أكله أو لم ينتفع به ولم يكن هو المغذي الذي يقيم بدنه فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع فإنه تعظم محبته له ومنفعته به ويتم دينه به ويكمل إسلامه ولهذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن حتى ربما يكرهه ومن أكثر من السفر إلى زيارة المشاهد ونحوها لا يبقى لحج البيت المحرم في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذلك الموقع ومن أدمن على قصص الملوك وسيرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذلك الاهتمام ونظائر هذه كثيرة ولهذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع الله عنهم من السنة مثلها رواه الإمام أحمد وهذا أمر يجده من نفسه من نظر في حاله من العلماء والعباد والأمراء والعامّة وغيرهم ولهذا عظمت الشريعة النكير على من أحدث البدع وحذرت منها لأن البدع لو خرج الرجل منها كفافا لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفا بل لا بد أن توجب له فسادا في قلبه ودينه ينشأ من نقص منفعة الشريعة في حقه إذا القلب لا يتسع للعوض والمعوض عنه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في العيدين الجاهليين إن الله قد أبدلكم بهما يومين خيرا منهما فيبقى اغتذاء قلبه من هذه الأعمال المبتدعة مانعا من الاغتذاء أو من كمال الاغتذاء بتلك الأعمال النافعة الشرعية فيفسد عليه حاله من حيث لا يعلم كما يفسد جسد المغتذي بالأغذية الخبيثة من حيث لا يشعر وبهذا يتبين لك بعض ضرر البدع إذا تبين هذا فلا يخفى ما جعل الله في القلوب من التشوق إلى العيد والسرور به والاهتمام بأمره إنفاقا واجتماعا وراحة ولذة وسرورا وكل ذلك يوجب تعظيمه لتعلق الأغراض به فلهذا جاءت الشريعة في العيد بإعلان ذكر الله فيه حتى جعل فيه من التكبير في صلاته وخطبته وغير ذلك مما ليس في سائر الصلوات فأقامت فيه من تعظيم الله وتنزيل الرحمة خصوصا العيد الأكبر ما فيه صلاح الخلق كما دل على ذلك قوله تعالى **{وَأَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}** {27} **{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}** {28} {الحج 27-28} فصار ما وسع على النفوس فيه من العادات الطبيعية عونا على انتفاعها بما خص به من العبادات الشرعية فإذا أعطيت النفوس في غير ذلك اليوم حظها أو بعض الذي يكون في عيد الله ففترت عن الرغبة في عيد الله وزال ما كان له عندها من المحبة والتعظيم فنقص بسبب ذلك تأثير العمل الصالح فيه فخرست خسرانا مبينا وأقل الدرجات أنك لو فرضت رجلين أحدهما قد اجتمع اهتمامه بأمر العيد على المشروع والآخر مهتم بهذا وبهذا فإنك بالضرورة تجد المتجرد للمشروع أعظم اهتماما به من المشترك بينه وبين غيره ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشرائع وأما الإحساس بفتور الرغبة فيجده كل أحد فإننا نجد الرجل إذا كسا أولاده أو وسع عليهم في بعض الأعياد المسخوطة فلا بد أن تنقص حرمة العيد المرضي من قلوبهم حتى لو قيل بل في القلوب ما يسع هذين قيل لو تجردت لأحدهما لكان أكمل¹

الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 216-219

قال تعالى { **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ** } **الحج 67** أن الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك التي قال الله سبحانه { **لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** } المائدة 48 وقال { **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ** } **الحج 67** كالقابلة والصلاة والصيام فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر والموافقة في بعض فروع موافقة في بعض شعب الكفر بل الأعياد هي من أخص ما تتميز به بين الشرائع ومن أظهر ما لها من الشعائر فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة وشروطه وأما مبدؤها فأقل أحواله أن تكون معصية وإلى هذا الاختصاص أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إن لكل قوم عيدا وإن هذا عيدنا وهذا أقبح من مشاركتهم في لبس الزنار ونحوه من علاماتهم فإن تلك علامة وضعية ليست من الدين وإنما الغرض منها مجرد التمييز بين المسلم والكافر وأما العيد وتوابعه فإنه من الدين الملعون هو واهله فالموافقة فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه وإن شئت أن تنظم هذا قياسا تمثيلا قلت العيد شريعة من شرائع الكفر أو شعيرة من شعائره فحرمت موافقتهم فيها كسائر شعائر الكفر وشرائعه وإن كان هذا أبين من القياس الجزئي ثم كل ما يختص به ذلك من عبادة وعادة فإنما سببه هو كونه يوما مخصوصا وإلا فلو كان كسائر الأيام لم يختص بشيء وتخصيصه ليس من دين الإسلام في شيء بل هو كفر به¹

لفظ الهدى اذا اطلق

قال تعالى { **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ** } **الحج 67** عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** } الأعراف 43 وانما هداهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { **وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** } الأنعام 87 وكما في قوله { **شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ** } النحل 121 { **اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ** } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا²

الإيمان بالقدر على درجتين

قال تعالى { **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } **الحج 70** وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو الذي هو موصوف به أزلا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والأجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 207-208

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

ما خلق الله القلم قال له أكتب قال ما أكتب قال أكتب ما هو كائن الى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه وتعالى { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {الحج 70} وقال {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {الحديد 22} وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ونحو ذلك فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكره اليوم قليل وأما الدرجة الثانية فهو مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما فى السموات والارض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق فى الارض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالق قوتهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } {28} وَمَا تَشَاوَرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } {29} {التكوير 29} وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلخوا العبد قدرته وإختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها¹

" ان الله كتب مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة "

التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {الحج 70} وفى الصحيح عن النبي أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال رب وما أكتب قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة وقال ابن عباس ان الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك فى كتابه فقال { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {الحج 70} وهذا هو معنى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ميسرة الفجر قال قلت يا رسول الله متى كنت نبيا وفى رواية متى كتبت نبيا قال وأدم بين الروح والجسد والاحاديث فى خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة فى كتب الحديث والتفسير وغيرهما فأخبر أنه كان نبيا أى كتب نبيا وأدم بين الروح والجسد وهذا والله أعلم لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذى يكون بأيدي ملائكة الخلق فيقدر لهم ويظهر لهم ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه كما أخرج الشيخان فى الصحيحين وفى سائر الكتب الأمهات حديث الصادق المصدوق وهو من الأحاديث المستفيضة التى تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا على تصديقها وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح وقال فوالذى نفسى بيده ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب

¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 36- 38 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 148-150

فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة فلما أخبر الصادق المصدوق أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح وأدم هو أبو البشر كان أيضا من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه ومحمد سيد ولد آدم فهو أعظم الذرية قدرا وأرفعهم ذكرا فأخبر أنه كتب نبيا حينئذ وكتابة نبوته هو معنى كون نبوته فإنه كون في التقدير الكتابي ليس كونا في الوجود العيني إذ نبوته لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين سنة من عمره كما قال تعالى له {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الشورى 52 ولذلك جاء هذا المعنى مفسرا في حديث العرباض بن سارية عن رسول الله أنه قال انى عبد الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمرى دعوة ابراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأته حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاعت لها منه قصور الشام هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض رواه البغوى فى شرح السنة هكذا وفى الصحيحين عن عائشة قالت أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليلي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو بحراء فاتاه الملك فقال له اقرأ قال لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ ثم أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق {1} خلق الإنسان من علق {2} فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره الحديث بطوله فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئاً وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبيا ثم أنزل عليه سورة المدثر وبها صار رسولا لقوله {قُمْ فَأَنْذِرْ} المدثر 2 ولهذا ذكر سبحانه فى هذه السورة الوجود العيني والوجود العلمى وهذا أمر بين يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه الى سمع فإن الشئ لا يكون قبل كونه وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار وهذا العلم والكتاب هو القدر الذى ينكره غالية القدرية ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار كفرهم الأئمة كالشافعى وأحمد وغيرهما وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر وأجاب النبى عن السؤال الوارد عليه وهو ترك العمل لأجله فأجاب عن ذلك فى الصحيحين عن على بن أبى طالب قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله فقعده وقعدنا حوله ومعه مخرصة فنكس فجعل ينكت بمخرصته ثم قال ما منكم من أحد أو قال ما من نفس منفوسة الا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى {5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى {7} وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى {8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى {10} } الليل 5-10 وفى رواية كان رسول الله ذات يوم جالسا وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال ما منكم من نفس الا وقد علم منزلها من الجنة والنار قالوا يا رسول الله فقيم العمل أفلا نتكل قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ فأما من أعطى الآية ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه¹

" إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا "

قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} القمر 49 وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما فى قوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} {173} الصافات 171-173 وهو

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 147-152 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 89

سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال { **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } الحج70 قال ابن عباس إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك في قوله { **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } الحج70 وقال للملائكة { **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } البقرة30 فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء فكيف لا يعلمه الله سواء علموه بإعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم لهم إلا ما علمهم وما اوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون هو أعلم به منهم فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء¹

الله خالق كل شيء و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و في إستعادة النبي صلى الله عليه و سلم أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر و لا فاجر من شر ما ذرأ و برأ و أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه و عقابه و شر عباده فكلماته التامة هي التي كون بها الأشياء كما قال تعالى { **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } يس82 لا يجاوزها بر و لا فاجر و لا يخرج أحد عن القدر المقدر و لا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور و هذا المعنى قد دل عليه القرآن في غير موضع كقوله { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ** } الأعراف179 الآية و قوله { **مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } الأنعام111 { **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } الحج70 و قوله في السحر { **وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } البقرة102 { **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** } الأنعام125 و نحو ذلك²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } الحج61 سميع بصير منزله عن الصم والعمى³

2- قال تعالى { **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } الحج64 غني منزله عن الفقر⁴

3- قال تعالى { **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ** } الحج65 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 382

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 58

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الإباحة والإجازة النوع الثاني مع كونه بمشيئته وقدرته قوله {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
الحج¹65}

¹الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

الحج 72-74

**{ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرِ
الْمَصِيرِ } 72 { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ } 73 { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } 74 {**

الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسطان

قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 فمن إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة أى على بينة وعلم يدعو إليه بمنزل من الله بخلاف الذى يأمر بما لا يعلم أو بما لم ينزل به وحيا كما قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } الحج: 71¹

وقد بين في غير موضع ان السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } الحج 71 وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان هذه حال الكفار الذين قال فيهم ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا سورة غافر 4 فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقا ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسطان²

" ما أسر أحد بسريرة إلا أباها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه "

قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } 71 { وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرِ الْمَصِيرِ } 72 { الحج 71-72 أن وصف الوجوه بالأعمال ليس فى القرآن و إنما فى القرآن ذكر العلامة كقوله { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ } الفتح 29 و قوله { وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 427

²الاستقامة ج: 1 ص: 22

فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} محمد30 و قوله { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} الحج72 و ذلك لأن العمل والنصب ليس قائما بالوجه فقط بخلاف السیما والعلامة¹

فهذه السیما وهذا المنكر قد يوجد في وجه من صورته المخلوقة وضيئة كما يوجد مثل ذلك في الرجال والنساء والولدان لكن بالنفاق قبح وجهه فلم يكن فيه الجمال الذي يحبه الله وأساس ذلك النفاق والكذب ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه كما يوصف الصادق ببياض الوجه كما أخبر الله بذلك ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزيز شاهد الزور بأن يسود وجهه ويركب مقلوبا على الدابة فإن العقوبة من جنس الذنب فلما اسود وجهه بالكذب وقلب الحديث سود وجهه وقلب في ركوبه وهذا أمر محسوس لمن له قلب فإن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسرى كثيرا إلى الوجه والعين وهما أعظم الأشياء ارتباطا بالقلب ولهذا يروى عن عثمان أو غيره أنه قال ما أسر أحد بسريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقلات لسانه والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه فقال {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} محمد30 فهذا تحت المشيئة ثم قال { وَتَعْرِفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } {محمد:30} فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه لكنه يبدو في الوجه بدوا خفيا يعلمه الله فإذا صار خلقا ظهر لكثير من الناس²

مَسَاعِي الْقُلُوبِ وَأَعْمَالِهَا تَحْمَدُ وَتَذَمُّ

قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} {71} وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشْرٌ مِّنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَسَّ الْمَصِيرُ} {72} الحج71-72 إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي من احب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذي يظهر في بذل المال الذي هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمَنْ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} البقرة165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يعطى إلا الله ولا يمنع إلا الله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما استعاذ منه وقد ذم في كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة93 وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 220

على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 وقوله {وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} الحج 72 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب واعمالها مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل¹

ذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } {الحج:73}

و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ } الحج 73²

و الدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسئلة و الإستعانة كما قال تعالى {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} غافر 14 و ذم الذين يدعون الملائكة و الأنبياء و غيرهم فقال { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ } الحج 73³

كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } {الحج:73}

لفظ الدعاء و الدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة و دعاء المسئلة قال الله تعالى {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} الشعراء 213 وقال تعالى {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} المؤمنون 117 وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} القصص 88 وقال {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} الجن 19 وقال {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} النساء 117 و لفظ الصلاة في اللغة اصله الدعاء و سميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء و هو العبادة و المسئلة و في الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى

¹ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 754- 769 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 183

² شرح العمدة ج: 4 ص: 28

³ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 70

السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راغب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضاً راغب وراغب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعاقد من يطلب ذلك بامتنال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعاقد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضاً راج خائف راغب راغب يري في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الانبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع¹

وقوله { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا } النساء 117 الآية وقوله { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ } فصلت 48 الآية وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر لوجه ثلاثة أحدهما أنهم قالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } الزمر 3 فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم الثاني إن الله تعالى فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى { وَقِيلَ لَهُمْ أَيَّنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ } 92 { مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْتَصِرُونَ } 93 { الشعراء 93 } وقوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } الانبياء 98 وقوله تعالى { لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } الكافرون 2 فدعواؤهم لألهتهم هو عبادتهم الثالث أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعواؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة²

ضرب الأمثال هو القياس العقلي

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } {الحج: 73}

أن ضرب المثل هو القياس إما قياس التمثيل فيكون المثل هو المفرد وإما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياساً كما بينته في غير هذا الموضع من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لها ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ولسائر الأفراد فإن الذهن يرسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين وكل فرد يماثل الآخر فصار هذا المعنى يماثل هذا وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما وبهذا والله أعلم سمي ضرب مثل وسمى قياساً فإن الضرب الجمع والجمع في القلب واللسان وهو العموم والشمول فالجمع والضرب والعموم والشمول في النفس معنى ولفظاً فإذا ضرب مثلاً فقد صيغ عموماً مطابقاً أو صيغ مفرداً مشابهة فتدبر هذا فإنه حسن إن شاء الله ولك أن تقول كل إخبار بمثل صورته المخبر في النفس فهو ضرب مثل لأن المتكلم جمع مثلاً في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف كقوله

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 240

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 13

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ} الرعد35 وقوله {ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} الحج73 وبسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع¹

الأمثال الكلية و هذه التي أشكل تسميتها أمثالا كما أشكل تسميتها قياسا حتى اعترض بعضهم قوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} الحج73 فقال اين المثل المضروب و كذلك إذا سمعوا قوله {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} الزمر27 ييقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال و قد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا و أربعين مثلا وهذه الأمثال تارة تكون صفات وهذه الأمثال تارة تكون صفات وتارة تكون أقيسة فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها من خبرين هما قضيتان و حکمان و انه لا بد أن يكون احدهما كليا لأن الأخبار التي هي القضايا لما انقسمت الى معينة و مطلقة و كلية و جزئية و كل من ذلك انقسم الى خبر عن اثبات و خبر عن نفي فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عام و قضية كلية و ذلك هو المثل الثابت في العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها فلولا عمومها لما أمكن الاعتبار لجواز أن يكون المقصود حكمه خارجا عن العموم و لهذا يقال لا قياس عن قضيتين جزئيتين بل لا بد أن تكون احدهما كلية و لا قياس أيضا عن سالبيتين بل لا بد أن تكون احدهما موجبة و الا السلبان لا يدخل احدهما في الآخر لا بد فيه من خبر يعم و جملة ما يضرب من الأمثال ستة عشر لأن الأولى اما جزئية و اما كلية مثبتة أو نافية فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر تحذف منهما الجزئيتين سواء كانتا موجبتين أو سالبيتين أو احدهما سالبة و الأخرى موجبة فهذه ست من ستة عشر و السالبتين سواء كانتا جزئيتين أو كليتين أو احدهما دون الأخرى لكن إذا كانتا جزئيتين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفين من ستة عشر و يحذف منهما السالبة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب أن يلاقيها السلب بخلاف الايجاب فان الايجابين الجزئيين يلتقيان و كذلك الايجاب الجزئي مع السلب الكلي يلتقيان لاندرج ذلك الموجب تحت السلب العام يبقى من الستة عشر ستة أضرب فإذا كانت احدهما موجبة كلية جاز في الأخرى الأقسام الأربعة و إذا كانت سالبة كلية جاز أن تقارنها الموجبتان لكن تقدم مقارنة الكلية لها و لا بد في الجزئية أن تكون صغرى و إذا كانت موجبة جزئية جاز أن تقارنها الكليتان و قد تقدمتا و إذا كانت سالبة جزئية لم يجز أن يقارنها الا موجبة كلية و قد تقدمت فيقر الناتج ستة و الملغى عشرة و بالاعتبارين تصير ثمانية فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الايجاب العام و لا بد في جميع ضروبه من أحد أمرين إما إيجاب و عموم و إما سلب و خصوص فنقيضان لا يفيد اجتماعهما فائدة بل إذا اجتمع النقيضان من نوعين كسالبة كلية و موجبة جزئية فنقيض بشرط كون الكبرى هي العامة فظهر أنه لا بد في كل قياس من ثبوت و عموم إما مجتمعين في مقدمة و إما مفترقين في المقدمتين و أيضا مما يجب أن يعلم أن غالب الأمثال المضروبة و الأقيسة إنما يكون الخفي فيها احدى القضيتين و اما الأخرى فجلية معلومة فضارب المثل و ناصب القياس إنما يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية فيعلم بذلك المقصود لما قاربها في الفعل من القضية السلبية و الجلية هي الكبرى التي هي أعم فإن الشيء كلما كان أعم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل و خير الكلام ما قل و دل فهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجليلة لأن في ذكرها تطويلا و عيا و كذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين يعد تطويلا و اعتبر ذلك بقوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} الأنبياء22 ما أحسن هذا البرهان فلو قيل بعده و ما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل و انما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء و الخط إذا علمنا الصبى الخط نقول با سين ميم صارت بسم فإذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأه تهجيا فيذهب ببهجة الكلام بل قد صار التأليف مستقرا و كذلك النحوى إذا عرف أن محمد رسول الله مبتدأ و خير لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول لأنه مبتدأ و خبر فتأليف الأسماء من الحروف لفظا و معنى و تأليف الكلم من الأسماء و تأليف الأمثال من الكلم جنس و احد ولهذا كان المؤلفون للأقيسة

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 42

يتكلمون أولاً في مفردات الألفاظ والمعاني التي هي الأسماء ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقصة والحكم ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو القياس والبرهان والدليل والآية والعلامة فهذا مما ينبغي أن يتفطن له فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته فذلك هو البيان هو البرهان وأما ما لا حاجة إلى ذكره فذكره عي وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلاً وقال الثاني أنه ليس في القرآن برهان تام فهو لاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر وأيضا فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والإيجاب فإنه ما من خبر إلا وهو إما عام أو خاص سالب أو موجب فالمعين خاص محصور والجزئي أيضا خاص غير محصور والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف صيغ النفي والعموم فإن ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام¹

((التفصيل في التفسير في هذا الموضوع في تفسير الروم 28 نفس المرجع والصفحات (يستشار))

فلا يحصل للعقل من القياس في الرب إلا العلم بالسلب والعدم إذا كان القياس صحيحا ولهذا جاءت الأمثال المضروبة في القرآن وهي المقاييس العقلية دالة على النفي في مثل قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ } الحج:73

وأمثال ذلك من الأمثال وهي القياسات التي مضمونها نفي الملزوم لانتفاء لازمه أو نحو ذلك²

الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } {الحج:73}

فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد ودم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعنى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } 23 { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ } 24 { ص 23-24 الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } الزمر:27 وقال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ } العنكبوت:43 وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص:56-67

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص:61-62

تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25¹

مثل ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق

ومن الفرقان أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق وان المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق فى شىء فيجعل المخلوق ندا للخالق كقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 وقوله { وَمَنْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } الإخلاص 4 وضرب الأمثال فى القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم فى النار يصطرخون فيها { تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } {97} إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {98} الشعراء 97-98 وقال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {17} وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ {18} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } {19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } {21} النحل 17-21 فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحى الذى لا يموت ومن سواه لا يخلق شيئاً كما قال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } {73} مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ {74} {الحج 73-74} وهذا مثل ضربه الله فإن الذباب من اصغر الموجودات وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه فاذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم فهم عن خلق غيره وعن مغالبتة أعجز وأعجز و المثل هو الأصل والنظير المشبه به كما قال { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ } الزخرف 57 أى لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا اذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا فضرّبوه مثلاً لآلهتهم وجعلوا يصدون أى يضجون ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه فى قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } الأنبياء 101 وقال فى فرعون { فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ } الزخرف 56 أى مثلاً يعتبر به ويقاس عليه غيره فمن عمل بمثل عمله جوزى بجزائه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله وقال تعالى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } النور 34 وهو ما ذكره من أحوال الامم الماضية التى يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الامم المستقبلية كما قال { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } يوسف 111 فمن كان من أهل الايمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده فى الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والآخرة كما قال فى حق هؤلاء { أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ } القمر 43 وقد قال { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } آل عمران 137 وقال فى حق المؤمنين { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } النور 55 وقال { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } {87} فَاستَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ } {88} الأنبياء 87-88 وقال فى قصة أيوب { فَاستَجَبْنَا لَهُ فَكشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِّلْعَابِدِينَ } الأنبياء 84 { رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَى لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } ص 43 وقال { أَوْلِيكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ } الأنعام 90 وقال { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ وَرَأُلُؤًا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } البقرة 214 وقال { وَكَلَّا تُقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ } هود 120 فلفظ المثل يراد به النظير الذى يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس قال سبحانه { وَضُرِبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78 أى لا أحد يحييها وهى رميم فمثل الخالق بالمخلوق فى هذا النفى فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على احيائها سواء نظمه فى قياس تمثيل او قياس شمول كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 347

الموضع وبين أن معنى القياسين قياس الشمول وقياس التمثيل واحداً والمثل المضروب المذكور في القرآن فاذا قلت النبيذ مسكر وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله صلى الله عليه وسلم كل مسكر حرام فهو كقوله قياساً على الخمر لأن الخمر إنما حرمت لأجل الاسكار وهو موجود في النبيذ فقوله {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ} الحج 73 جعل ما هو من اصغر المخلوقات مثلاً ونظيراً يعتبر به فاذا كان أدون خلق الله لا يقدر على خلقه ولا منازعته فلا يقدر على خلق ما سواه فيعلم بها من عظمة الخالق وان كلما يعبدون من دون الله في السماء والارض لا يقدر على ما هو اصغر مخلوقاته وقد قيل انهم جعلوا آلهتهم مثلاً لله فاستمعوا لذكرها وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ويجعل له ندا¹

خاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس

خاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس وهذا لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} الحج 73 ولا ريب أن النحلة ما هي من جنس النواة ولا السنبله من جنس الحبة ولا الانسان من جنس المنى ولا المنى من جنس الانسان وهو يخرج هذا من هذا وهذا من هذا فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته وهذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وهو سبحانه إذا جعل الابيض أسود أعدم ذلك البياض وجعل موضعه السواد لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد ويخلق الضد من ضده كما جعل من الشجر الاخضر ناراً²

أصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنَ الذُّبَابِ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } {الحج:73}

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بان يكون هو المعبود وحده لا شريك له وانما يعبد بما أمر به على ألسن رسله وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسله ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته ولا عبده حق عبادته والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} الأنعام 91 في ثلاث مواضع ليثبت عظمتة في نفسه وما يستحقه من الصفات وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة الا هو وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الزمر 67 الآية وقال في الحج {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} {73} {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} {74} {الحج 73-74} وقال في الانعام {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} الأنعام 91 وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته وأن يجاهد فيه حق جهاده قال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} الحج 78 وقال {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} آل عمران 102 والمصدر هنا مضاف الى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به وحق تقاته التى أمركم بها واقدروه قدره الذى بينه لكم

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 15-17

²النبوات ج: 1 ص: 64

وأمركم به فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه قالت عائشة فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً لا سيما قوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع والارضين على اصبع والجبال على أصبع والشجر والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر وقرأ هذه الآية وعن ابن عباس قال مر يهودى بالنبي ﷺ صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم ما تقول اذا وضع الله السماء على ذه والارض على ذه والجبال والماء على ذه وسائر الخلق على ذه فأنزل الله تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } الزمر 67 رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس وقال غريب حسن صحيح وهذا يقتضى أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر فان الذى فى الآية أبلغ كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض وفى الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم يطوى الله السموات يوم القيامة يوم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون ورواه مسلم أبسط من هذا وذكر فيه أنه يأخذ الارض بيده الأخرى وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى ثنا عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبدالله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود فى صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه ﷺ { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فجعل صفته التى وصفه بها شركاً وقال حدثنا أبى ثنا ابو نعيم ثنا الحكم يعنى أبا معاذ عن الحسن قال عمدت اليهود فنظروا فى خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } الزمر 67 وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره وقوله { عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق فى شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق فى شيء من الأشياء فعُدل بربه والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمي له ولا مثل له ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء فانه معطل ممثّل والمعطل شر من المشرك والله تنى قصة فرعون فى القرآن فى غير موضع لاحتياج الناس الى الاعتبار بها فانه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والالهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين وكانت عاقبته الى ما ذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره فلهذا لم يجز أن يستعمل فى حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذى تستوى أفراده فان ذلك شرك اذ سوى فيه بالمخلوق بل قياس الأولى فانه سبحانه { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } الروم 27 فهو أحق من غيره بصفات الكمال وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص وقد بسطت هذه الأمور فى غير هذا ^{الموضع}¹

{ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } {73} { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {74} { الحج: 73-74 }

قال تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } الأنعام 91 قال ابن عباس فى رواية الوالبي عنه هذه فى الكفار فأما من آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره وذكروا فى قوله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } الأنعام 91 ما عرفوه حق معرفته و ما عظموه حق عظمته و ما وصفوه حق صفته و هذه الكلمة ذكرها الله فى ثلاثة مواضع

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 161-164

في الرد على المعطلة و على المشركين و على من أنكر إنزال شيء على البشر فقال في الأنعام { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } { الأنعام: 91 } و قال في الحج { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } { 73 } { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } { 74 } { الحج: 73-74 } و قال في الزمر { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } { الزمر: 67 } ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن حبرا من اليهود قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إن الله يوم القيامة يجعل السموات على أصبع و الأرض على أصبع و الجبال و الشجر على أصبع و الماء و الثرى و سائر الخلق على أصبع ثم يهزهن و يقول أنا الملك قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لقول الحبر ثم قرأ { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } { الزمر: 67 } الآية و في الصحيحين أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون و كذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون و في لفظ لمسلم قال يأخذ الجبار تبارك و تعالى سمواته و أرضه بيديه جميعا فجعل يقبضهما و يبسطهما ثم يقول أنا الملك أنا الجبار و أنا الملك أين الجبارون و أين المتكبرون و يميل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه و عن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أنى لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم و في السنن عن عوف بن مالك الأشجعي قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بأية رحمة إلا وقف فسأل و لا يمر بأية عذاب إلا وقف و تعوذ قال ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت و الملكوت و الكبرياء و العظمة ثم يسجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة رواه أبو داود و النسائي و الترمذي في الشمائل فقال في هذا الحديث سبحان ذي الجبروت و الملكوت و الكبرياء و العظمة و هذه الأربعة نوزع الرب فيها كما قال أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون و قال عز وجل العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني و احدا منهما عذبتة ذي الجبروت و الملكوت و الكبرياء و العظمة و هذه الأربعة نوزع الرب فيها كما قال أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون و قال عز وجل العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني و احدا منهما عذبتة و نفاة الصفات ما قدروا الله حق قدره فإنه عندهم لا يمسك شيئا و لا يقبضه و لا يطويه بل كل ذلك ممتنع عليه و لا يقدر على شيء من ذلك و هم أيضا في الحقيقة يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء لوجهين أحدهما أن الإنزال إنما يكون من علو و الله تعالى عندهم ليس في العلو فلم ينزل منه شيء و قد قال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } { الأنعام: 114 } { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } { الأحقاف: 2 } إلى غير ذلك و قولهم أنه خلقه في مخلوق و نزل منه باطل لأنه قال { أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } { الأنعام: 114 } و لم يجيء هذا في غير القرآن و الحديد ذكر أنه أنزله مطلقا و لم يقل منه و هو منزل من الجبال و المطر أنزل من السماء و المراد أنه أنزله من السحاب و هو المزن كما ذكر ذلك في قوله { أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ } { الواقعة: 69 } و الثاني أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له و كلاما له فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل و لأن الله لا يتصف بالمخلوقات و لو إتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات و متحرك إذا خلق الحركات في غيره إلى غير ذلك إلى أن قال فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره و أنهم داخلون في هذه الآية و أنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل و لا على الكلام بمشيئته و لا على نزوله و على إنزاله منه شيئا فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدره الله و أنه إلى كل شيء قدير و إذا لم يكن قديرا لم يكن قويا و يلزمهم أنه لم يخلق شيئا فيلزمهم الدخول في قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } { 73 } { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } { الحج: 73-74 }

فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل و حقيقة قولهم أنه صار قادرا بعد أن لم يكن و القدرة التي يثبتونها لاحقيقة لها و هذا أصل مهم من تصوره عرف حقيقه الأقوال الباطلة و ما يلزمها من اللوازم و عرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول و صريح المعقول لاسيما في هذه الأصول التي هي أصول كل الأصول والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول و قد تبين أنه كلما تحققت الحقائق و أعطى النظر و الاستدلال حقه من التمام كان مادل عليه القرآن هو الحق و هو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتهه بغيره مما يسمى معقولا و هو مشتبه مختلط

كما قال مجاهد فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} الأنعام 159 قال هم أهل البدع والشبهات فهم فى أمور مبتدعة فى الشرع مشتبهة فى العقل والصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا فى العقل فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه وأنه تنزيل منه وأنه كلامه وأنه قوله وأنه كفر من قال أنه قول البشر وأخبر أنه قول رسول كريم من الملائكة ورسول كريم من البشر والرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئا وأخبر أنه جعله قرآنا عربيا¹

العالم العلوى والسفلى بالنسبة الى الخالق سبحانه وتعالى فى غاية الصغر

قال تعالى { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {الحج 74}

أعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كرية الشكل وهى فى الماء المحيط بأكثرها اذ اليابس السدس وزيادة بقليل والماء أيضا مقبب من كل جانب للأرض والماء الذى فوقها بينه وبين السماء كما بيننا وبينها مما يلى رؤوسنا وليس تحت وجه الأرض الا وسطها ونهاية التحت المركز فلا يكون لنا جهة بينة الا جهتان العلو والسفل وانما تختلف الجهات باختلاف الانسان فلعو الأرض وجهها من كل جانب وأسفلها ما تحت وجهها ونهاية المركز هو الذى يسمى محط الأثقال فمن وجه الأرض والماء من كل وجهة الى المركز يكون هبوطا ومنه الى وجهها صعودا وإذا كانت سماء الدنيا فوق الأرض محيطة بها فالثانية كرية وكذا الباقي والكرسى فوق الافلاك كلها والعرش فوق الكرسى ونسبة الافلاك وما فيها بالنسبة الى الكرسى كحلقة فى قلاة والجملة بالنسبة الى العرش كحلقة فى قلاة والافلاك مستديرة بالكتاب والسنة والاجماع فان لفظ الفلك يدل على الاستدارة ومنه قوله تعالى { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } يس 40 قال ابن عباس فى فلكة كفلكة المغزل ومنه قولهم تفلك ثدى الجارية اذا استدار وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك

وأما العرش فانه مقبب لما روى فى السنن لابي داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال يا رسول الله جهدت النفس وجاع العيال وذكر الحديث الى أن قال رسول الله ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصبعه مثل القبة ولم يثبت أنه فلك مستدير مطلقا بل ثبت أنه فوق الافلاك وان له قوائم كما جاء فى الصحيحين عن ابي سعيد قال جاء رجل من اليهود الى رسول الله قد لطم وجهه فقال يا محمد ان رجلا من أصحابك لطم وجهي فقال النبي ادعوه فدعوه فقال لم لطمت وجهه فقال يا رسول الله انى مررت بالسوق وهو يقول والذى اصطفى موسى على البشر فقلت يا خبيث وعلى محمد فأخذتنى غضبة فلطمته فقال النبي لا تخيروا بين الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور وفى علوه قوله اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة وأعلىها وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلا المخلوقات وسقفها وأنه مقبب وان له قوائم وعلى كل تقدير فهو فوق سوا كان محيطا بالافلاك أو غير ذلك فيجب أن يعلم أن العالم العلوى والسفلى بالنسبة الى الخالق سبحانه وتعالى فى غاية الصغر لقوله تعالى { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {الحج 74}²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 26

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 152

لطائف لغوية

- 1- قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } {الحج:71} والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {الروم:35} وقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } {الأعراف:71} وقال ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو الحجة ذكره البخاري في صحيحه¹

والسلطان هو الحجة المنزلة من عند الله²

- 2- قال تعالى { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } {الحج:74} قوي عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب³

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الحج: 75-78

{ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {75} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {76} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {77} وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنَبِّئُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ كُفْرًا إِذْ قَبِلْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْيَدِ الْأَيْمَنَ وَالْيَسْرَى وَالْيُسْرَى أُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ {78} }

الفرق بين الارسال الكونى و الدينى

قال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {75} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {76} } {الحج: 75-76} وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبته اصحابه ولا يجعلهم من اوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واکرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله فى مشيئته و ارادته الكونية و الارادة الدينية هى المتضمنة لمحبه ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح واما لفظ الارسال فقال فى الارسال الكونى { أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُونَ أَرْسَالًا وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْهُ إِلَّا هُمْ يُسَبِّحُونَ } {الفرقان 48} وقال فى الدينى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } {الفتح 8} وقال تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ } {نوح 1} وقال تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا } {المزمل 15} وقال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا } {الحج 75} وقال { فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ } {الطور 29} إلى قوله { إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } {34} {الطور 34} فانه سبحانه وتعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عن تفتن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين وبين ان الذى جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه قال الله تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {الحج 75} وقال تعالى { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {192} {نزل به الروح الأمين} {193} { عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } {194} { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } {195} { الشعراء 192-195 }¹

بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده

قال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {75} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {76} } {الحج: 75-76} وقد بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده فى قوله { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ } {الشورى 51} فبين

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 272-273

سبحانه أن التكليم تارة يكون وحيا وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى وتارة يرسل رسولا فيوحى الرسول بإذن الله ما يشاء وقال تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** } {الحج: 75} فإذا أرسل الله تعالى رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى { **قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَلْفِ بَرٍّ** } {التوبة: 94} وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به كما قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** } {المائدة: 67} وقال تعالى { **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ** } {الجن: 28} وقال تعالى { **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } {النور: 54} ¹

الملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني وأمره الديني

قال تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {75} { **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } {76} { **الحج: 75-76** } فتبين أنه يصطفى رسلا من الناس ورسلا من الملائكة ²

قال تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {الحج: 75} فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا** } فاطر 1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {الحج: 75} ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصىه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتنسيب والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا كما ذكر تعالى في خطابه للملائكة وأمره لهم بالسجود لآدم وقوله تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {الحج: 75} ³

فإن هذا يعني به الإرسال الديني الذي يحبه تعالى ويرضاه الذي هدى به من اتبعهم وأدخله في رحمته وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله وهذه الرسالة التي أقام بها الحجة على الخلق كما قال تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {الحج: 75} وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر وهو محمد صلى الله عليه وسلم ⁴

توسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة

قال تعالى { **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } {75} { **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } {76} { **الحج: 75-76** }

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 300

²الصفدية ج: 1 ص: 204

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 120-121

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 147

وجبريل الذي نزل بالوحي على محمد هو روح القدس وهو روح الحق كما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} النحل 102 وهذا الروح إنما جعله بمجيء محمد والكلام الذي نزل به هو الذي بلغه محمد
ولهذا قال الله تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} الحج 75 فاصطفى
الله جبريل من الملائكة واصطفى محمدا من البشر

ولهذا يضاف القول الذي هو القرآن إلى قول هذا تارة وإلى قول هذا تارة كما قال تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ} {19} {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} {20} {مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ} {21} التكوير 19-21 فهذا الرسول هنا جبريل
وقال تعالى في الآية الأخرى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} {40} {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ} {41} وَلَا
بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} {42} {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} {43} {الْحَاقَّةُ} 40-43 فهذا الرسول هنا محمد وأضافه
إلى كل منهما بلفظ الرسول لتضمنه أنه بلغه عن مرسله لم يقل إنه لقول ملك ولا نبي بل كفر من قال إنه قول البشر
كما ذكر ذلك عن التوحيد¹

فذكر أنه قول رسول اصطفاه من الملائكة نزله به على رسول اصطفاه من البشر فقال {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ} {40} {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ} {41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} {42} {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ} {43} {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ} {44} {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} {45} {ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} {46} {فَمَا مِنْكُمْ
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} {47} {وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُنْتَقِينَ} {48} {وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ} {49} {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ} {50} {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} {51} {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} {52} سورة الحاقة الآيات 40 52 فنزه كلا
من الرسولين عما قد يشته به نزه الملك أن يكون شيطانا ونزه البشر أن يكون شاعرا أو كاهنا وبين برهان ذلك
وأيته فقال {وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} {210} {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ} {211} {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
لَمَعْرُوفُونَ} {212} {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ} {213} الشعراء 210-213 فبين أنه ما يصلح لهم
النزول به بل هم منهيون عن ذلك وهم ممتنعون عن ذلك لا يريدونه لمنافاه لمقصودهم وأنهم لو أرادوا العجزوا عن
ذلك فلم يستطيعوه إذ كانوا معزولين عن أن يسمعه من الملائكة الأعلى وهم إنما يقدر على أن ينزلوا بما سمعوه لا
بما لم يسمعه وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريدا له قادرا عليه فبين قوله {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ
{211} الشعراء 211 أنهم لا يريدون تنزيله وبقوله {وَمَا يَسْتَظِيلُونَ} {211} الشعراء 211 أنهم
عاجزون عن تنزيله²

فتوسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة كما قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} الحج 75 وقال تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} {19} {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} {20}
{مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ} {21} التكوير 19-21 فهذا جبريل ثم قال {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} التكوير 22 وقوله وما صاحبكم
كقوله في الآية الأخرى {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} {النجم 2} فقوله {صَاحِبُكُمْ} {النجم 2} تنبيه على نعمته
على البشر واحسانه اليهم إذ بعث اليهم من يصحبهم ويصحبونه بشرا مثلهم فانهم لا يطيقون الاخذ عن الملك كما
قال تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ} {8} {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبَسُونَ} {9} الانعام 8-9³

الرد على الذين يرون ان الملائكة افضل من البشر

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 312

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 347

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 385

قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {75} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {76} الحج 75- 76

وها نحن نذكر ما احتجوا به قوله تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {الحج 75} فبدأ بهم والابتداء إنما يكون بالافضل والاشرف فالافضل والاشرف كما بدأ بذلك فى قوله { فَأَوْلَيْكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ } النساء69 فبدأ بالاكمل والافضل والجواب أن الإبتداء قد يكون كثيرا بغير الافضل بل يبتدأ بالشئ لاسباب متعددة كما فى قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب7 ولم يدل ذلك على ان نوحا افضل من ابراهيم والنبى صلى الله عليه وسلم افضل وكذلك قوله {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } الأحزاب35 لا يدل على ان المسلم افضل من المؤمن فلعله والله أعلم انما بدأ بهم لان الملائكة اسبق خلقا ورسالة فإنهم ارسلوا الى الجن والانس فذكر الاول فالاول فى الخلق والرسالة على ترتيبهم فى الوجود وقد قال تعالى {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ } الشورى49 والذكور افضل من الإناث وقال {وَالنَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ } التين1 {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } الشمس1 الآيات و {فِيهِمَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ } الرحمن68 الى غير ذلك ولم يدل التقديم فى شئ من هذه المواضع على فضل المبدوء به فعلم أن التقديم ليس لازما للفضل¹

ليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه

قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {75} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {76} الحج 75- 76

وقد قال النبى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجبا عليهم وان كان واجبا على غيرهم ولهذا كان من الايمان ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } محمد17 وقال {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } مريم76 وقال {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } الفتح4 ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا } {66} وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } {68} النساء66- 68 كما قال {اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الحديد28 وكما قال { أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ } المجادلة22 ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانتة وإقداره لهم لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم لا عانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ما جنسه غير مقدور لهم اذا قيل ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرا على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى {إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا } الأنفال12 وقد قال {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } الأنفال45 فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى الى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذلك بهذا الايمان وان لم يكن المفضل ترك واجبا فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 385

ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبي في الحديث الصحيح إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكما قال تعالى {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً} النساء 95 فاستثنى أولى الضرر وفي الصحيحين عن النبي أنه قال من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجر من أتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا وفي حديث أبي كبشة الأنماري هما في الأجر سواء وهما في الوزر سواء رواه الترمذى وصححه ولفظه إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يتقى في ذلك المال ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو ان لي مالا لعملت فيه فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لي مالا لعملت فيه فلان فهو بنيته فوزرهما سواء ولفظ ابن ماجه مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال رسول الله فهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يختبط في ماله ينفقه في غير حقه ورجل لم يؤته علما ولا مالا وهو يقول لو كان لي مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل فهما في الوزر سواء كالشخصين إذا تماثلا في ايمان القلوب معرفة وتصديقا وحباً وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر كما جاء في الأثر أن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح ليس الشديد ذو الصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقد قال رأيت كائناً أنزع على قلبه فأخذها ابن أبي قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت في يده غربا فلم أر عبقريا يفري فريه حتى صدر الناس بعطن فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منه كما قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل غيره وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فانه هو الذي استخلفه وفي المسند من وجهين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالامة فرجح ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان في حياة النبي وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من الايمان والعلم ما لم يكن عنده فهو قد دعاه الى فعله من خير واعانه عليه بجهده والمعين على الفعل اذا كان يريد ارادة جازمة كان كفعله كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله وقال من فطر صائما فله مثل أجره وقد روى الترمذى من عزى مصابا فله مثل أجره وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضل فيها أفضل عند الله من الآخر لأنه أفضل في الايمان الذي في القلب وأما إذا تفاضلا في ايمان القلوب فلا يكون المفضل فيها أفضل عند الله ألبتة وإن كان المفضل لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الأسباب التي بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضل ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا من المفضل كما فضل الله نبينا ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطى كلا من أولئك أجرا أجرا لأن الايمان الذي في قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء أعظم أجرا وهو فضله يؤتية من يشاء بالأسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالأسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله في الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } 72 { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } آل عمران 72-73 وقال في الآية

الأخرى { اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } {الأنعام 124} وقال { اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } {الحج 75} وقال {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} {البقرة 284} وقد بين في مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق¹

الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه الا بالرسول

قال تعالى { اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {75} {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {76} {الحج 75-76}

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسول الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسول المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسول فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومثل هذا فى القرآن كثير وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى { اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {الحج 75} ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل والسور التي أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات الرر وحم و طس ونحو ذلك هي متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر²

الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {الحج 77} لها شأن انفردت به على سائر الأعمال قال تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } {97} {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} {98} {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} {99} {الحج 97-99} تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها وكذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {الحج 77}³

وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 339-344

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 123

³شرح العمدة ج: 4 ص: 88

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 فإن الله تعالى أوجب الركوع والسجود في الكتاب والسنة وهو واجب بالإجماع لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } الحج 77 وقوله تعالى { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ } القلم 42¹

العبادة هي الغاية المحبوبة لله

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وفي قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً } النساء 36 وقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } البقرة 21 وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } الزمر 2 { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي } الزمر 14 وقوله { أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } الزمر 64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقول نوح { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 2²

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتم والمساكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } النحل 36³

فإن الله تعالى أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى وأخبر عن كل نبي أنه دعا قومه إلى ذلك { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد ديناً غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 566

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

³الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 362

⁴الصفدية ج: 2 ص: 242

قال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْبَيْتَةَ } وقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا } التوبة 31 و هذا إختيار الزجاج وغيره و هذا هو المعروف عن مجاهد بالإسناد الثابت قال ابن أبي حاتم ثنا أبو سعيد الأشج { إِلَّا لِيَعْبُدُونَ } الذاريات 56 لأمرهم و أنهاهم كذلك روي عن الربيع بن أنس قال ما خلقتهما إلا للعبادة و يدل على هذا مثل قوله { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } القيامة 36 يعني لا يؤمر و لا ينهي و قوله { قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } الفرقان 77 أي لولا عبادتكم و قوله { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ } النساء 147 و قوله { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } الأنعام 130 إلى قوله { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } الأنعام 131 و قوله { أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {61} يس 60-61 الآيات وما بعدها و قالت الجن لما سمعوا القرآن { قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ } {30} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } {31} وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } {32} الأحقاف 30-31 الآية و ما بعدها و قالت الجن { وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا } {14} وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } {15} الجن 14-15 الآية و ما بعدها وقد قال في القرآن في غير موضع { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } البقرة 21 { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ } النساء 1 فقد أمرهم بما خلقهم له و أرسل الرسل إلى الإنس و الجن و محمد أرسل إلى الثقلين و قرأ القرآن على الجن و قد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن و جعل يقرأ { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } الرحمن 13 يقولون و لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعاً و هو الذى تفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه و يعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه و فى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له يامعاذ أتدرى ما حق الله على عبادة قال الله و رسوله أعلم قال فإن حق الله على عبادة أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم و فى المسند عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل و الصغار على من خالف أمرى و من تشبه بقوم فهو منهم¹

العبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمُ } الحج 77 فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وإنابة كان وبالاً على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وإنما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنوية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 58

العبادة له التي لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا نوحاً} وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها¹

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {الحج: 77} والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبيب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا²

فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا³

هذه الآية وما بعدها لم تترك خيرا إلا جمعته ولا شرا إلا نفته

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {77} {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنَبِّئُكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} {78} {الحج: 77-78} سورة الحج فيها من التوحيد والحكم والمواظ على إختصارها ما هو بين لمن تدبره وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيدا وصلوة وزكاة وحج وصياما قد تضمن ذلك كله قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {الحج: 77} فيدخل في قوله {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ} {الحج: 77} كل واجب ومستحب فخصص في هذه الآية وعمم ثم قال {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} {الحج: 78} فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيرا إلا جمعته ولا شرا إلا نفته

{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} {4}

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 12

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 63

³الجواب الصحيح ج: 6 ص: 31

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 266

قال تعالى { **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** } الحج 78 وقال { **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** } آل عمران 102 والمصدر هنا مضاف الى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به وحق تقاته التى أمركم بها واقدره قدره الذى بينه لكم وأمركم به فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه قالت عائشة فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو¹

أن لفظ النسخ مجمل فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم أو اطلاق أو غير ذلك كما قال من قال ان قوله { **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** } آل عمران 102 و { **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** } الحج 78 نسخ بقوله { **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ** } التغابن 16 و ليس بين الآيتين تناقض لكن قد يفهم بعض الناس من قوله { **حَقَّ تَقَاتِهِ** } آل عمران 102 { **حَقَّ جِهَادِهِ** } الحج 78 الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا كما ينسخ الله ما يلقي الشيطان و يحكم الله اياته و ان لم يكن نسخ ذلك نسخ ما انزله بل نسخ ما لقيه الشيطان اما من النفس أو من الاسماع أو من اللسان وكذلك ينسخ الله ما يقع فى النفوس من فهم معنى و ان كانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل²

الجهاد جنس تحته انواع متعددة ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه

قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } 77 { **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنَبِّئُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } 78 { **الحج: 77-78** } قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } الحجرات 15 يبين أن الجهاد واجب والجهاد وان كان فرضا على الكفاية فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله اذا تعين ولهذا قال النبى من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق رواه مسلم فأخبر أنه من لم يهجم به كان على شعبة نفاق وايضا فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه³

كل من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين

قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } 77 { **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنَبِّئُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } 78 { **الحج: 77-78** } الأنبياء يشهدون على أممهم⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 266

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 140

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

⁴القواعد النورانية ج: 3 ص: 378

مَنْ رَبِّكُمْ { الأعراف 3 } وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا { الأنعام 155 } وأما السلف مثل قوله { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ { النساء 83 } وقوله { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ { النساء 59 } وقوله { الْمُنَافِقُونَ 8 } وقوله { وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَالرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ { المنافقون 8 } ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لأن الباطل والضلال ليس من الايمان الذي يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمان لقوله { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ { آل عمران 139 } ومنها قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {7} الفاتحة 6-7 } أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا { النساء 69 } الآية وفيها الدلالة ومنها قوله { وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ { لقمان 15 } والسلف المؤمنون منييون اي فيجب اتباع سبيلهم ومنها قوله { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ { النساء 115 } ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا { البقرة 143 } وقوله { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ { الحج 78 } وقال قوم عيسى { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ { آل عمران 53 } فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ { المائدة 83 } في ال عمران والمائدة لان لنا الشاهدة ولهم العبادة بلا شهادة والامة الوسط العدل الخيار والشهداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول ولهذا قال في الجنازة وجبت وجبت وقال أنتم شهداء الله في الارض وقال توشكوا ان تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيء فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الاشخاص والأفعال ولو كانوا قد يشهدون بما ليس بحق لم يكونوا شهداء مطلقا¹

" يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين "

قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ { البقرة 143 } وفي آخر الحج مثلها قوله تعالى { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ { الحج 78 } وقد ثبت في صحيح البخارى عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمه فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ وكذلك فى الصحيحين من حديث انس فى شهادتهم على تلك الجنازتين وأنهم أثنوا على احدهما خيرا وعلى الأخرى شرا فقال أنتم شهداء الله فى أرضه الحديث ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التى جعلها الله لأهل السنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيهم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين²

الإجماع دليل على النص

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 500- 504

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 313

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص بالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ بالإجماع دليل على النص ولهذا قال تعالى { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115 فعلق الوعيد بمشاققة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاققة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فلماذا علقه بهما كما كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف نجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النصر وأيضا فقوله تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 والاستدلال به كما تقدم وأيضا فقوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة 143 وقوله { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } الحج 78 ومن جعلهم الرب شهداء على الناس فلا بد أن يكونوا عالمين بما يشهدون به ذوي عدل في شهادتهم فلو كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويوجبون ما عفا الله عنه ويسقطون ما أوجبه الله لم يكونوا كذلك وكذلك إذا كانوا يجرحون الممدوح ويمدحون المجروح فإذا شهدوا أن أبا بكر أحق بالإمامة وجب أن يكونوا صادقين في هذه الشهادة عالمين بما شهدوا به وكذلك إذا شهدوا أن هذا مطيع لله وهذا عاص لله وهذا فعل ما يستحق عليه الثواب وهذا فعل ما يستحق عليه العقاب وجب قبول شهادتهم فإن الشهادة على الناس تتناول الشهادة بما فعلوه من مذموم ومحمود والشهادة بأن هذا مطيع وهذا عاص هي تتضمن الشهادة بأفعالهم وأحكام أفعالهم وصفاتهم وهو المطلوب وفي الصحيحين عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنابة فأتوا عليها خيرا فقال وجبت ومر عليه بجنابة فأتوا عليها شرا فقال وجبت فقبل يا رسول الله ما قولك وجبت قال هذه الجنابة أتيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنابة أتيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض¹

"إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره"

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 واللي هو تغيير الشهادة والإعراض كتمانها والله تعالى قد أمر بالصدق والبيان ونهى عن الكذب والكتمان فيما يحتاج إلى معرفته وإظهاره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 345-355

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {المائدة: 8} ومن أعظم الشهادات ما جعل الله آمة محمد شهداء عليه حيث قال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة 143 وقال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} الحج 78 والمعنى عند الجمهور أن الله سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن وفي القرآن {وَقَالَ تَعَالَى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} البقرة 140 وقال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} آل عمران 187 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} {159} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {160} البقرة 159-160 لا سيما الكتمان إذا لعن آخر هذه الأمة أولها كما في الأثر إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد¹

كل دين سوى الإسلام باطل

قال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} الحج 78 أن الإسلام دين و الدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح²

و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له³

الدين هو التعاقد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاقد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ} {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {6} الكافرون 1-6 وقال تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} يوسف 76

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 16-18

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

³ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

وقال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } التوبة 29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعنوية التي صارت خلقاً وبذلك يكون المطاع محبوباً مراداً إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لا ينعف صاحبه وقد قال سبحانه { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } البينة 5 وقال تعالى { وَقَاتِلُواهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ } البقرة 193 وقال تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ } التوبة 36 وقال تعالى { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِرِأْسِهِ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 161 وقال تعالى { قُلْ لَا تَقْرَأُ مِنْ كُتُبِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرَ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } التوبة 122 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وقال تعالى { وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُلِقُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19 وقال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقال تعالى { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى 13 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضاً فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضاً فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى { وَرَضِيَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به¹

وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم فإننا مأمورون باتباع ملته بقوله تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَهُ أَيْ كُنتُمْ إِبْرَاهِيمَ } الحج 278

¹ قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

² شرح العمدة ج: 2 ص: 201

في توحيد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة: 124 فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} النحل: 120 وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى فى آل عمران {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} {19} آل عمران: 18- 19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وقال فى آخر سورة الحج التى ذكر فيها الملل الست وذكر ما جعل لهم من المناسك والمعابد وذكر ملة ابراهيم خصوصا {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} وذكر فى النحل دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة الله وحده لا شريك له فقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} النحل: 36 الاية وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلغا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة: 6-7 والاسلام دين جميع المرسلين¹

{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}

1-ان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر

قال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} الحج: 78 المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة والحق الذى يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين وان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس ثم إنه سبحانه كما قال قتادة وغيره من السلف لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وفي الحديث الصحيح حديث أبى ذر عن النبى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 110-111

واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال تعالى في وصف النبي الأمي { يَاْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ } الأعراف 157 وقال تعالى لما ذكر الوضوء { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } المائدة 6 فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به وهذه نكرة مؤكدة بحرف من فهي تنفي كل حرج وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا وقال تعالى في الآية الأخرى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنْبِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ } الحج 78 فقد أخبر أنه ما جعل علينا في الدين من حرج نفيًا عما مؤكدا فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذب الله ورسوله فكيف بمن اعتقد أن الأمور به قد يكون فسادا وضررا لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ولهذا لما لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق كما قال تعالى { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء 65¹

2- " إنما بعثتم ميسرين يسروا ولا تعسروا "

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنْبِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع واياح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى اتقوا الله حق تقاته سورة آل عمران 102 وقال فاتقوا الله ما استطعتم سورة التغابن 16 وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسدوا وقاربوا واستعينوا بالعدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنْبِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78²

وقال تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 وقال تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } النساء 28 وفي الصحيحين إنما بعثتم ميسرين يسروا ولا تعسروا ليعلم اليهود أن في ديننا سعة فكل ما لا يتم المعاش إلا به فتحريمه حرج وهو منتف شرعا ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرهما وجدها مبنية على قوله تعالى { فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } البقرة 173 وقوله { فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } المائدة 3 فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 183-184

²الاستقامة ج: 2 ص: 314

معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد و إن كان سببه معصية كالمسافر سفر معصية اضطر فيه الى الميتة و المنفق للمال في المعاصي حتى لزمته الديون فانه يؤمر بالتوبة و يباح له ما يزيل ضرورته فتباح له الميتة و يقضى عنه دينه من الزكاة و إن لم يتب فهو الظالم لنفسه المحتال و حاله كحال الذين قال الله فيهم { إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيبَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } الأعراف 163 و قوله { فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } النساء 160 الآية وهذه قاعدة عظيمة ربما ننبه إن شاء الله عليها¹

3- للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي وفي باب الإرادة والقصد وفي الحركة البدنية

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا سورة البقرة 286 وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس ومن حديث أبي هريرة عن النبي ص أن الله استجاب لهم هذا الدعاء وقال قد فعلت وأنهم لم يقرأوا بحرف منها إلا أعطوه وهذا مع قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة سورة البقرة 82 وقوله دليل على ان الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وغير ذلك دليل على أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها والوسع هو ما تسعه النفس فلا تضيق عنه ولا تعجز عنه فالوسع فعل بمعنى مفعول كالجهد وهذا أيضا كقوله تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 والخرج الضيق فهو نفى أن يكون عليهم ضيق أي ما يضيق عنهم كما أخبر أنه لا يكلف النفس إلا ما تسعه فلا بد أن يكون الإيجاب والتحرير مما تسعه النفس حتى يقدر الإنسان على فعله ولا بد أن يكون المباح مما يسع الإنسان ولا يضيق عنه حتى يكون للإنسان ما يسع الإنسان ويحمل الإنسان ولا يضيق عنه من المباح وليتدبر الفرق بين ما يسعه الإنسان وهو الوسع الذي قيل فيه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها سورة البقرة 286 وبين ما يسع الإنسان فلا يكون حرجا عليه وهو مما لا بد للإنسان منه من المباحات وهذا يكون في صفة فعل المأمور به كما في الوضوء والصلاة فلا بد ان يكون المجزئ له من ذلك ما يسع الإنسان والواجب عليه ما يسعه الإنسان ويكون في باب الحلال والحرام فلا يحرم عليه ما لا يسع هو تركه بحيث يبقى المباح له ضيقا منه لا يسعه وإذا كان كذلك فينبغي أن يعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي وفي باب الإرادة والقصد وفي الحركة البدنية أيضا فالخطأ والنسيان هو من باب العلم يكون إما مع تعذر العلم عليه أو تعسره عليه والله قد قال ما جعل عليكم في الدين من حرج سورة الحج 78 وقال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر سورة البقرة 185 وقال النبي ص في الحديث المتفق عليه لمعاذ وأبي موسى لما أرسلها إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وطوعا ولا تخلفا وإذا كان كذلك فما عجز الإنسان عن عمله واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسيانا فذلك مغفور له كما قال النبي ص إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر الاستقامة ج: 1 ص: 300²

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 314

² الاستقامة ج: 1 ص: 27-29

4- الإيجاب والتحرير قد يكون نعمة وقد يكون عقوبة وقد يكون محنة

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } {الحج78} الإيجاب والتحرير قد يكون نعمة وقد يكون عقوبة وقد يكون محنة فالأول كإيجاب الإيمان والمعروف وتحريم الكفر والمنكر وهو الذي أثبتته القائلون بالحسن والقبح العقليين والعقوبة كقوله { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ } {النساء160} وقوله { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا } {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا } {الأنعام146} الى قوله { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ } {الأنعام146} وقوله { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } {الأعراف157} فسامها أصارا وأغلا لا والأصار في الإيجاب والأغلال في التحريم وقوبه { وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِمْ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } {البقرة286} ويشهد له قوله { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } {الحج78} وقوله { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } {المائدة6} فان هذا النفي العام ينفي كل ما يسمى حرجا والحرَج الضيق فما أوجب الله ما يضيق ولا حرم ما يضيق وضده السعة والحرَج مثل الغل وهو الذي لا يمكنه الخروج منه مع حاجته الى الخروج وأما المحنة فمثل قوله { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } {البقرة249} الآية ثم ذلك قد يكون بانزال الخطاب وهذا لا يكون الا في زمن الأنبياء وقد انقطع وقد يكون باظهار الخطاب لمن لم يكن سمعه ثم سمعه وقد يكون باعتقاد نزول الخطاب أو معناه وإن كان إعتقادا مخطئا لأن الحكم الظاهر تابع لإعتقاد المكلف فالتكليف الشرعي إما أن يكون باطنا وظاهرا مثل الذي تيقن أنه منزل من عند الله وإما أن يكون ظاهرا مثل الذي يعتقد أن حكم الله هو الإيجاب أو التحريم إما اجتهدا وإما تقليدا وإما جهلا مركبا بأن نصب سبب يدل على ذلك ظاهرا دون ما يعارضه تكليف ظاهر إذ المجتهد المخطيء مصيب في الظاهر لما أمر به وهو مطيع في ذلك هذا من جهة الشرع وقد يكون من جهة الكون بأن يخلق سبحانه ما يقتضى وجود التحريم الثابت بالخطاب والوجوب الثابت بالخطاب كقوله { وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْفَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } {الأعراف163} فأخبر أنه بلاهم بفسقهم حيث أتى بالحيثان يوم التحريم ومنعها يوم الإباحة كما يؤتى المحرم المبتلى بالصيد يوم إحرامه ولا يؤتى به يوم حله أو يؤتى بمن يعامله ربا ولا يؤتى بمن يعامله بيعا ومن ذلك مجيء الإباحة والإسقاط نعمة وهذا كثير كقوله { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ } {الأنفال66} وقد تقدم نظائرها¹

5- من قال أن الله أمر العباد بما يعجزون عنه فقد كذب على الله ورسوله

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } {الحج78} قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحبا وزيادة ونهى عن أفعال محرمة او مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالا هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة فقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } {التغابن16} وقال تعالى { لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَّعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ }

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 199-201

{البقرة 286 وقال تعالى { وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا {الطلاق 7 وكل من الأيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانية الاعطاء الواجب¹

وقال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {الحج 78 الشريعة طافحة بأن الأفعال المأمور بها مشروطة بالإستطاعة و القدرة كما قال النبي صلى الله عليه و سلم لعمران ابن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وقد إتفق المسلمون على أن المصلي إذا عجز عن بعض واجباتها كالقيام أو القراءة أو الركوع أو السجود أو ستر العورة أو إستقبال القبلة أو غير ذلك سقط عنه ما عاجز عنه و إنما يجب عليه ما إذا أراد فعل إرادة جازمة أمكنه فعله و كذلك الصيام إتفقوا على أنه يسقط بالعجز عن مثل الشيخ الكبير و العجوز الكبير الذين يعجزون عن أداء و قضاء و إنما تنازعا هل على مثل ذلك الفدية بالإطعام فأوجبها الجمهور كابى حنيفة و الشافعي و أحمد و لم يوجبها مالك وكذلك الحج فإنهم أجمعوا على أنه لا يجب على العاجز عنه و قد قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا { آل عمران 97 و قد تنازعا هل الإستطاعة مجرد وجود المال كما هو مذهب الشافعي و أحمد أو مجرد القدرة و لو بالبدن كما هو مذهب مالك أو لا بد منهما كمذهب أبى حنيفة و الأولون يوجبون على المغضوب أن يستتیب بماله بخلاف الآخرين بل مما ينبغى أن يعرف أن الإستطاعة الشرعية المشروطة فى الأمر و النهي لم يكتف الشارح فيها بمجرد المكنة و لو مع الضرر بل متى كان العبد قادرا على الفعل مع ضرر يلحقه جعل كالعاجز فى مواضع كثيرة من الشريعة كالتطهر بالماء و الصيام فى المرض و القيام فى الصلاة و غير ذلك تحقيقا لقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ {البقرة 185 و لقوله تعالى {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ {الحج 78 و لقوله تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ {المائدة 6} و فى الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم أن الأعرابي لما بال فى المسجد قال لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين و كذلك فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لمعاذ و أبى موسى حين بعثهما الى اليمن يسرا و لا تعسرا و بشرا و لا تنفرا و تطوعا و لا تختلفا و هذا و أمثاله فى الشريعة أكثر من أن يحصر فمن قال أن الله أمر العباد بما يعجزون عنه إذا أرادوه إرادة جازمة فقد كذب على الله و رسوله و هو من المفترين الذين قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ {الأعراف 152 قال أبو قلابة هذا لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة لكن مع قوله ذلك فيجب أن تعلم أنه لا حول و لا قوة إلا بالله و أنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و أن الله خالق كل شيء فهو خالق العباد و قدرتهم و إرادتهم و أفعالهم فهو رب كل شيء و مليكه لا يكون شيء إلا بمشيئته و إننه و قضائه و قدره و قدرته و فعله²

6-درك الصواب فى جميع أعيان الاحكام اما متعذر او متعسر

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {الحج 78 وقال سبحانه { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 49

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 439

8- لم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 وكذلك ما يشترط في القضاة والولاية مع الشروط يجب فعله بحسب الإمكان بل وسائر شروط العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك كل ذلك واجب مع القدرة فأما مع العجز فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها

ولهذا أمر الله المصلى ان يتطهر بالماء فان عدمه او خاف الضرر باستعماله لشدة البرد او جراحة او غير ذلك تيمم صعيداً طيباً فمسح بوجهه ويديه منه وقال النبي لعمران بن حصين صل قائماً فان لم تستطع فقعدا فان لم تستطع فعلى جنب فقد أوجب الله فعل الصلاة في الوقت على أي حال أمكن كما قال تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } 238 { فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } البقرة 238-239 فأوجب الله الصلاة على الأمن والخائف والصحيح والمريض والغنى والفقير والمقيم والمسافر وحققها على المسافر والخائف والمريض كما جاء به الكتاب والسنة وكذلك أوجب فيها واجبات من الطهارة والستارة واستقبال القبلة وأسقط ما يعجز عنه العبد من ذلك فلوا انكسرت سفينة قوم او سلبهم المحاربون ثيابهم صلوا عراة بحسب أحوالهم وقام إمامهم وسطهم لئلا يرى الباؤون عورته ولو اشتبهت عليهم القبلة اجتهدوا في الاستدلال عليها فلو عميت الدلائل صلوا كيفما أمكنهم كما قد روى أنهم فعلوا ذلك فهكذا الجهاد والولايات وسائر أمور الدين وذلك كله في قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 وفي قول النبي إذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم كما ان الله تعالى لما حرم المطاعم الخبيثة قال { فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } البقرة 173 فلم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد وقال تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 وقال تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } المائدة¹

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 الامر والنهي الذي يسميه بعض العلماء التكليف الشرعي هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم كالمجنون والطفل ولا تجب على من يعجز كالاعمى والاعرج والمريض في الجهاد وكما لا تجب الطهارة بالماء والصلاة قائماً والصوم وغير ذلك على من يعجز عنه سواء قيل يجوز تكليف مالا يطاق او لم يجز فانه لا خلاف ان تكليف العاجز الذي لا قدرة له على الفعل بحال غير واقع في الشريعة بل قد تسقط الشريعة التكليف عن من لم تكمل فيه اداة العلم والقدرة تخفيفاً عنه وضبطاً لمناط التكليف وان كان تكليفه ممكناً كما رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم وان كان له فهم وتمييز لكن ذلك لانه لم يتم فهمه ولان العقل يظهر في الناس شيئاً فشيئاً وهو يختلفون فيه فلما كانت الحكمة خفية ومنتشرة قيدت بالبلوغ وكما لا يجب الحج الا على من ملك زادا وراحلة عند جمهور العلماء مع امكان المشي لما فيه من المشقة وكما لا يجب الصوم على المسافر مع امكانه منه تخفيفاً عليه وكما تسقط الواجبات بالمرض الذي يخاف معه زيادة المرض وتاخر البرء وان كان فعلها ممكناً لكن هذه المواضع هي مما تختلف فيها الشرائع فقد يوجب الله في شريعة ما يشق ويحرم ما يشق تحريمه كالاصار والاعلال التي كانت على بني اسرائيل وقد يخفف في شريعة اخرى كما قال مؤمنين { رَبَّنَا لَا نُؤْخِذُنَا اِنْ نَسِينَا اَوْ اَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 390 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 136

إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا {البقرة 286} وكما قال الله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 وقال { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } المائدة 6 وقال { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 وقال { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } النساء 28 وقال النبي لأصحابه في قصة الاعرابي انما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين وقال لمعاذ وابي موسى يسرا ولا تعسرا وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه وقال لا تشددوا على انفسكم فيشدد الله عليكم فان اقواما شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات {وَرَهَبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } الحديد 27 وقال لا رهبانية في الاسلام وقال لكني اصوم وافطر واقوم وانام واتزوج النساء واكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني وقال ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته وروى عنه انه قال بعثت بالحنيفية السمحة واما كون الانسان مريدا لما امر به او كارهها له فهذا لا تلتفت اليه الشرائع بل ولا امر عاقل بل الانسان مامورا بمخالفة هواه و الارادة هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار كما قال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا } {18} { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } {19} {الإسراء 18-19} وقال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا } {القصص 83} وقال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ } {هود 15} الآية وقال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } {الأنعام 52} ونظائره كثيرة فان هذه الاصول ممهدة في الكتاب والسنة وكلام العلماء والعارفين وليس الغرض هنا تقريرها وانما الغرض شيء آخر وهو انه اذا كان التكليف مشروطا بالتمكن من العلم الذي اصله العقل وبالقدرة على الفعل فنقول كل من هذين قد يزول باسباب محظورة وباسباب غير محظوره فاذا ازال عقله بشرب الخمر او البنج ونحوهما لم يزل عنه بذلك ثم بما يتركه من الواجبات ويفعله من المحرمات اذا كان السكر يقتضي ذلك بخلاف ما اذا زال بسبب غير محرم كالاغماء لمرض او خوف او سكر بشرب غير محرم مثل ان يجرع الخمر مكرها فان هذا لا اثم عليه واما قضاء الصلاة عليه عند احمد وعند من يقول يقضى صلاة يوم وليلة فذاك نظير وجوب قضائها على النائم والناسي ولا اثم عليهما كما قال النبي صلواته عليه وسلم ليس في النوم تقريط وانما التقريط في اليقظة وقال من نام عن صلاة او نسيها فليصلها اذا ذكرها فان ذلك وقتها لا كفارة لها الا ذلك وكذلك قدرة العبد فانه لو فرط بعد وجوب الحج عليه حتى ضيع ماله بقي الحج في ذمته وكذلك في استحلال المحرمات قال الله تعالى { فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } البقرة 173 فالضرورة بسبب محظور لا تستباح بها المحرمات بخلاف الضرورة التي هي بسبب غير محظور وقد اختلف العلماء في العاصي بسفره هل يترخص ترخص المسافر ومذهب الشافعي واحمد انه لا يترخص¹

9- لا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه

انه قد يقترن بالحسنات سيئات اما مغفورة او غير مغفورة وقد يتعذر او يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة الا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علما وعملا فاذا لم يحصل النور الصافي بان لم يوجد الا النور الذي ليس بصاف والا بقي الانسان في الظلمة فلا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه والا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية اذا خرج غيره عن ذلك لما رآه في طرق الناس من الظلمة وانما قررت هذه القاعدة ليحمل ذم السلف والعلماء للشيء على موضعه ويعرف ان العدول عن كمال خلافه النبوة المأمور به شرعا تارة يكون لتقصير الحسنات علما وعملا وتارة بعدوان بفعل السيئات علما وعملا وكل من الامرين قد يكون عن غلبة وقد يكون مع قدرة فالاول قد يكون لعجز وقصور وقد يكون مع قدرة وامكان و الثاني قد يكون مع حاجة وضرورة وقد يكون مع غنى وسعة وكل واحد من العاجز عن كمال الحسنات والمضطر الى بعض السيئات معذور فان الله يقول {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } {التغابن 16} وقال { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } الطلاق 7 في البقرة والطلاق وقال {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {الأعراف 42} وقال النبي اذ امرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم وقال سبحانه { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ { الحج 78 وقال { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ { المائدة 6 وقال { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ { البقرة 185 وقال { غَيْرَ يَأْخُذُ وَلَا عَادٍ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ { البقرة 173 وقال { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً { الأحزاب 5 وهذا أصل عظيم وهو ان تعرف الحسنه في نفسها علما وعملا سواء كانت واجبة او مستحبة وتعرف السيئة في نفسها علما وقولا وعملا محظورة كانت او غير محظورة ان سميت غير المحظورة سيئة وان الدين تحصيل الحسنات والمصالح وتعطيل السيئات والمفاسد وانه كثيرا ما يجتمع في الفعل الواحد او في الشخص الواحد الامران فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه الى ما تضمنه احدهما فلا يغفل عما فيه من النوع الاخر كما يتوجه المدح والامر والثواب الى ما تضمنه احدهما فلا يغفل عما فيه من النوع الاخر وقد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية والفجورية لكن قد يسلب مع ذلك ما حمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية فهذا طريق الموازنة والمعادلة ومن سلكه كان قائما بالقسط الذي انزل الله له الكتاب والميزان قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ { الحج 78 وهنا أصل يجب اعتماده وذلك أن الله سبحانه عصى هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم أحادها من الخطأ لا صديقا ولا غير صديق لكن إذا وقع بعضها في خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك الخطأ لأن هذه الأمة شهداء على الناس وهم شهداء الله في الارض وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأولا فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها أعدائهم فباطل بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عددا وأدنى منزلة لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله فإنه بذلك أمرت الأمة¹

الشارع لم ينقل الاسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ { الحج 78 وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في اسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا { التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا { النور 21 وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ {6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ {7} فصلت 6-7 وهي عند المفسرين التوحيد وقد بين النبي مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد

ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 364-368

الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقولهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خيرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} العلق 9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتني يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} العلق 9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسامه معلوم عندهم فلا اجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد¹

من أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {الحج 78} { أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر و الاضطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ {الحج 78} وإذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} الكوثر 2 {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {الأنعام 162} و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 فان الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه و سلم صوم شهر الصبر و ثلاثة أيام من كل شهر²

جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} البقرة 43 وقال {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَاجْزَأْنَاكُمْ فِي الدِّينِ} التوبة 11 وقال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} البينة 5 وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبي عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذنا الى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299-300

²شرح العمدة ج: 4 ص: 89

أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب

فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمي الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينمو إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} الشمس 9 {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} الأعلى 14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى¹

فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارس العلم التسييح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي²

" الصلاة أول ما يحاسب عليه العبد من عمله "

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِبِرَائِهِمْ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 و عماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة³

جكم من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 8

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 1

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج78 كان جمهور العلماء على أن من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا فعليه إعادة الصلاة ما دام يمكن فعلها وهو إعادتها في الوقت هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد لكن مالك وأحمد يقولان قد يجب فيها ما يسقط بالسهو ويكون سجود السهو عوضا عنه وسجود السهو واجب عندهما وأما الشافعي فيقول كل ما وجب بطلت الصلاة بتركه عمدا أو سهوا وسجود السهو عنده ليس بواجب فإن ما صحت الصلاة مع السهو عنه لم يكن واجبا ولا مبطلا والأكثرون يوجبون سجود السهو كمالك وأبي حنيفة وأحمد ويقولون قد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم والأمر يقتضي الإيجاب ويقولون الزيادة في الصلاة لو فعلها عمدا بطلت الصلاة بالإتفاق مثل أن يزيد ركعة خامسة عمدا أو يسلم عمدا قبل إكمال الصلاة ثم إذا فعله سهوا سجد للسهو بالسنة والإجماع فهذا سجود لما تصح الصلاة مع سهوة دون عمده وكذلك ما نقصه منها فإن السجود يكون للزيادة تارة وللنقص أخرى كسجود النبي صلى الله عليه وسلم لما ترك التشهد الأول ولو فعل ذلك أحد عمدا بطلت صلاته عند مالك وأحمد وأما أبو حنيفة فيوجب في الصلاة ما لا تبطل بتركه لا عمدا ولا سهوا ويقول هو مسيء بتركه كالطمأنينة وقراءة الفاتحة وهذا مما نازعه فيه الأكثرون وقالوا من ترك الواجب عمدا فعليه إعادة الممكنة لأنه لم يفعل ما أمر به وهو قادر على فعله فلا يسقط عنه وقد أخرجنا في الصحيحين حديث المسيء في صلاته لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع فصل فإنك لم تصل وأمره بالصلاة التي فيها طمأنينة فدل هذا الحديث الصحيح على أن من ترك الواجب لم يكن ما فعله صلاة بل يؤمر بالصلاة والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الاسم إلا لانتفاء بعض واجباته فقله فإنك لم تصل لأنه ترك بعض واجباتها ولم تكن صلاته تامة مقامة الإقامة المأمور بها في قوله تعالى { فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } النساء103 فقد أمر بإتمامها ولهذا لما أمر بإتمام الحج والعمرة بقوله { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة196 أُلزم الشارع فيهما فعل جميع الواجبات فإذا ترك بعضها فلا بد من الجبران فعلم أنه إن لم يأت بالمأمور به تاما التمام الواجب وإلا فعليه ما يمكن من إعادة أو جبران وكذلك أمر الذي رآه يصلي خلف الصف وحده أن يعيد وقال لا صلاة لخذ خلف الصف وقد صححه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وابن حزم وغيرهم من علماء الحديث فإن قيل ففي حديث المسيء الذي رواه أهل السنن من حديث رفاعة بن رافع أنه جعل ما تركه من ذلك يؤاخذ بتركه فقط ويحسب له ما فعل ولا يكون كمن لم يصل قيل وكذلك نقول من فعلها وترك بعض واجباتها لم يكن بمنزلة من لم يأت بسيء منها بل يثاب على ما فعل ويعاقب على ما ترك وإنما يؤمر بالإعادة لدفع عقوبة ما ترك وترك الواجب سبب للعقاب فإذا كان يعاقب على ترك البعض لزمه أن يفعلها فإن كان له جبران أو أمكن فعله وحده وإلا فعليه مع غيره فإنه لا يمكن فعله مفردا فإن قيل فإذا لم يكن فعله مفردا طاعة لم يثب عليه أو لا قيل هو أولى فعله ولم يكن يعلم أنه لا يجوز أو كان ساهيا كالذي يصلي بلا وضوء أو يسهو عن القراءة والسجود المفروض فيثاب على ما فعل ولا يعاقب بنسيانه وخطئه لكن يؤمر بالإعادة لأنه لم يفعل ما أمر به أو لا كالنائم إذا استيقظ في الوقت فإنه يؤمر بالصلاة لأنها واجبة عليه في وقتها إذا أمكن وإلا صلاحها أي وقت استيقظ فإنه حينئذ يؤمر بها وأما إذا أمر بالإعادة فقد علم أنه لا يجوز فعل ذلك مفردا فلا يؤمر به مفردا فإن قيل فلو تعمد أن يفعلها مع ترك الواجبات التي يعلم وجوبها قيل هذا مستحق للعقاب فإنه عاص بهذا الفعل وهذا قد يكون إثمه كإثم التارك وإن قدر أن هذا قد يثاب فإنه لا يثاب عليه ثواب من فعله مع غيره كما أمر به بل أكثر ما يقال إن له عليه ثوابا بحسبه لكن الذي يعرف أنه إذا لم يكن يعرف أن هذا واجب أو منهي عنه فإنه يثاب على ما فعله قال الله تعالى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } {8} الزلزلة7-8 والقرآن وذكر الله ودعاؤه خير وإلا فالمسلم لا يصلى إلى غير قبلة أو بغير وضوء أو ركوع أو سجود ومن فعل ذلك كان مستحقا للذم والعقاب ومع هذا فقد يمكن إذا فعل ذلك مع اعترافه بأنه مذنب لا على طريق الإستهانة والإستهزاء والإستخفاف بل على طريق الكسل أن يثاب على ما فعله كمن ترك واجبات الحج المجبورة بدم لكن لا يكون ثوابه كما إذا فعل ذلك مع غيره على الوجه المأمور به¹

(ملاحظة التوسع في هذا الموضوع موجود في تفسير النساء103))

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 234

إقامة الصلاة إتمامها والطمأنينة فيها

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 وان الله سبحانه و تعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري و مسلم في الصحيحين و أخرج أصحاب السنن أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و أصحاب المسانيد كمسند احمد و غير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه و سلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فارجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم و عليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم اجلس حتى تطمئن جالساً ثم اعمل ذلك في صلاتك كلها و في رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر و اقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم اعمل ذلك في صلاتك كلها و في رواية له ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تستوي قائماً و باقيه مثله و في رواية و إذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك و ما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك و عن رفاعه بن رافع رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فذكر الحديث و قال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر و يحمده الله عز و جل و ينثني عليه و يقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعاً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعداً ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته و في رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز و جل فيغسل وجهه و يديه إلى المرفقين و يمسح برأسه و رجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله و يحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له و تيسر و ذكر نحو اللفظ الأول و قال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله و تسترخي ثم يكبر فيستوي قاعداً على مقعدته و يقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الترمذي و قال حديث حسن و الروايتان لفظ أبي داود و في رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و بما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك و امدد ظهرك و قال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى و في رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز و جل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن و قال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن و افترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك و في رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقراً به و إلا فاحمد الله عز و جل و كبره و هله و قال فيه و إن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة و أمر الله و رسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب و أمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع و السجود و أمره المطلق على الإيجاب و أيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة و العمل لا يكون منفياً إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز و جل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة و أما ما يقوله بعض الناس إن هذا نفي للكمال كقوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فيقال له نعم هو لنفي الكمال لكن لنفي كمال الواجبات أو لنفي كمال المستحبات فأما الأول فحق و أما الثاني فباطل لا يوجد مثل ذلك في كلام الله عز و جل و لا في كلام رسوله قط و ليس بحق فإن الشيء إذا كملت

واجباته فكيف يصح نفيه وأيضاً فلو جاز لجاز نفي صلاة عامة الأولين والآخرين لأن كمال المستحبات من أندر الأمور وعلى هذا فما جاء من نفي الأعمال في الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وقوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} {النور 47} وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} {الحجرات 15} الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ} {النور 62} الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء¹

لا يجوز تأخير الصلاة بحال لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّثْلَ مَا أَنزَلَ عَلَىٰ آبَائِهِمْ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } {الحج 78} والذي عليه أكثر العلماء أنه لا يجوز تأخير الصلاة بحال وهو قول مالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر عند أكثر العلماء كما جمع النبي بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة والجمع في هذين الموضعين ثابت بالسنة المتواترة واتفق العلماء وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه كان يجمع في السفر إذا جد به السير وأنه صلى بالمدينة ثمانية جمعا الظهر والعصر وسبعا المغرب والعشاء أراد بذلك أن لا يخرج أمته لقوله تعالى {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} {الحج 78}²

فإن الله تعالى قال { فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا } النساء 103 والموقوت قد فسره السلف بالمفروض وفسروه بماله وقت المفروض هو المقدر المحدد فإن التوقيت والتقدير والتحديد والفرض ألفاظ متقاربة وذلك وجب أن الصلاة مقدره محددة موقوتة وذلك في زمانها وأفعالها وكما أن زمانها محدود فأفعالها أولى أن تكون محدودة موقوتة وهو يتناول تقدير عددها بأن جعله خمسا وجعل بعضها أربعا في الحضر وإثنتين في السفر وبعضها ثلاثا وبعضها إثنتين في الحضر والسفر وتقدير عملها أيضا ولذا يجوز عند العذر الجمع المتضمن لنوع من التقديم والتأخير في الزمان كما يجوز أيضا القصر من عددها ومن صفتها بحسب ما جاءت به الشريعة وذلك أيضا مقدر عند العذر كما هو مقدر عند غير العذر ولهذا فليس للجامع بين الصلاتين أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل أو صلاة الليل إلى النهار وصلاتى النهار الظهر والعصر وصلاتى الليل المغرب والعشاء وكذلك أصحاب الأعدار الذين ينقصون من عددها وصفتها وهو موقون محدود ولا بد أن تكون الأفعال محدودة الإبتداء والإنتهاء فالقيام محدود بالإنتصاب بحيث لو خرج عن حد المنتصب إلى حد المنحنى الراكع بإختياره لم يكن قد أتى بحد القيام ومن المعلوم أن ذكر القيام الذي هو القراءة أفضل من ذكر الركوع والسجود ولكن نفس عمل الركوع والسجود أفضل من عمل القيام ولهذا كان عبادة بنفسه ولم يصح في شرعنا إلا لله بوجه من الوجوه وغير ذلك من الأدلة المذكورة في غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن هذه الأفعال مقدره محدودة بقدر التمكن منها فالساجد عليه أن يصل إلى الأرض وهو غاية التمكن ليس له غاية دون ذلك إلا لعذر وهو من حين نحنائه أخذ في السجود سواء سجد من قيام أو من قعود فينبغي أن يكون إبتداء السجود مقدرًا بذلك بحيث يسجد من قيام أو قعود لا يكون سجوده من إنحناء فإن ذلك يمنع كونه مقدرًا محدودًا بحسب الإمكان

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 527-531 و القواعد النورانية ج: 1 ص: 25-34

²مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 439

ومتى وجب ذلك وجب الاعتدال في الركوع وبين السجدين وأيضاً ففي ذلك إتمام الركوع والسجود وأيضاً فأفعال الصلاة إذا كانت مقدرة وجب أن يكون لها قدر وذلك هو الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يكن لفعله قدر أصلاً فإن قدر الشيء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم ليس له قدر فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات إمتداد وأيضاً فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها والإقامة أن تجعل قائمة والشيء القائم هو المستقيم المعتدل فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة وذلك إنما يكون بثبوت أبعاضها وإستقرارها وهذا يتضمن الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يقيم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر وكذلك الراكع يبين ذلك ما جاء في الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ سوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة وأخرجاه من حديث عبدالعزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أتموا الصفوف فإنى أراكم من خلف ظهري وفى لفظ أقيموا الصفوف وروى البخارى من حديث حميد عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهري وكان أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه وبدنه ببينه فإذا كان تقويم الصف وتعديله من تمامها وإقامتها بحيث لو خرجوا عن الإستواء والإعتدال بالكلية حتى يكون رأس هذا عند النصف الأسفل من هذا لم يكونوا مصطفين وكانوا يؤمرون بالإعادة وهم بذلك أولى من الذى صلى خلف الصف وحده فأمره النبي أن يعيد صلاته فكيف بتقويم أفعالها وتعديلها بحيث لا يقيم صلبه في الركوع والسجود ويدل على ذلك وهو دليل مستقل في المسألة ما أخرجاه في الصحيحين عن شعبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبي قال أقيموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعدى وفى رواية من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم وفى رواية للبخارى عن همام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أنه سمع النبي يقول أتموا الركوع والسجود فوالذى نفسى بيده انى لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى وابن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أن نبي الله قال أتموا الركوع والسجود ولفظ ابن أبى عروبة أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم وذكره فهذا يبين أن إقامة الركوع والسجود توجب إتمامها كما في اللفظ الآخر وأيضاً فأمره لهم بإقامة الركوع والسجود يتضمن السكون فيهما إذ من المعلوم أنهم كانوا يأتون بالإنحاء في الجملة بل الأمر بالإقامة يقتضى أيضاً الاعتدال فيهما وإتمام طرفيهما وفى هذا رد على من زعم أنه لا يجب الرفع فيهما وذلك أن هذا أمر للمأمومين خلفه ومن المعلوم أنه لم يكن يمكنهم الإنصراف قبله وأيضاً فقوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 أمر بالقنوت في القيام لله والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان في حال الإنتصاب أو في حال السجود¹

إخلاص الدين لله هو أصل العبادة

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 543-546

يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ { الزمر 29 فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم¹

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيقه وكبيره²

أعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمره فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

² زيارة القبور ج: 1 ص: 58

³ السياسة الشرعية ج: 1 ص: 112

{ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ }

قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 الله هو الهادي النصير يهdy من يشاء الى صراط مستقيم وينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد¹

وقال تعالى { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ } 20 { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُنُوٍّ وَتُفُورٍ } 21 { الْمَلِكُ 20-21 } وقال تعالى { وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الأنفال 40 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 أى لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فانه سبحانه وتعالى من حسن تدبيره لعبده وتسيره له اسباب الخير من الهدى للقلوب والزلفى لديه والتبصير يدفع عنه شياطين الانس والجن ما لا تبلغ العباد قدره²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } الحج 75

سميع بصير منزه عن الصم والعمى³

2- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبيا للأمر مقصودا له كما فى قوله { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 وفى قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ } البقرة 189 وفى قوله { وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وفى قوله { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التغابن 8 وفى قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 401

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

3- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 أنا وجدنا المأمورات المعطوف بعضها على بعض ما كان منها مرتبطا بعضه ببعض وجب فيه الترتيب كقوله { ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } الحج 77 وقوله { إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ } البقرة 158 وما لم يكن مرتبطا لم يجب فيه الترتيب كقوله { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } البقرة 43 { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة 196 و { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ } التوبة 60 { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ } الأنفال 41¹

4- قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } الحج 77 ضمير الخطاب كما أن جميع الموجودين في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة مخاطبون بهذا الكلام لأنه كلام الله وإنما الرسول مبلغ عن الله وهذا مذهب عامة المسلمين وإن كان بعض من تكلم في أصول الفقه اعتمد أن ضمير الخطاب إنما يتناول الموجودين حين تبليغ الرسول وأن سائر الموجودين دخلوا إما بما علمناه بالاضطرار من استواء الحكم كما لو خاطب النبي صلى الله عليه وسلم واحدا من الأمة وإما بالسنة وإما بالاجماع وإما بالقياس²

5- قال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّثْلَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج 78 و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له³

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

{ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }

###

¹ شرح العمدة ج: 1 ص: 205

² اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 26

³ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152